

رؤية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الله والعدل والنبوة

تأليف

الدكتور على حسني الخربوطي

بمحة
التعريف بالإسلام



التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
بالقاهرة

الهدى وأهل الذمة

تأليف

الدكتور على حسني الخربوطي



الكتاب
التاسع والأربعون
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

131399

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هي أول دراسة علمية منهجية باللغة العربية عن (الاسلام وأهل الذمة) ، وقد رجعنا فيها الى جميع المصادر العربية ، القديمة والحديثة ، فضلا عن المصادر الافرنجية .

وهذا الكتاب يتحدث عن أحكام أهل الذمة في الاسلام ، ويدرس أحوال أهل الذمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الدول الاسلامية على مر العصور التاريخية ، وقد أثبتنا بالأدلة ، التاريخية ، وباعترافات المستشرقين ، أن أهل الذمة قد نعموا طوال العصر الاسلامي بالحرية والاخاء والمساواة ، وعاشوا دائما في ظل التسامح الاسلامي .

وقد قسمنا الكتاب الى ١٥ فصلا . تحدثنا في الفصل الأول عن اليهود والمسيحيين في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وشهدنا الصراع الدائم الذي نشب بين الطائفتين حول السيادة في الجزيرة العربية ، ورأينا عدم اقبال العرب على اعتناق هاتين الديانتين ، حتى أصبح العرب في حاجة ماسة لظهور عقيدة جديدة ، هي الاسلام .

والفصل الثاني بعنوان (الرسول والمسيحيون) وشهدنا معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم المتسامحة للمسيحيين ، ودرسنا ظروف هجرة المسلمين الى الحبشة المسيحية ، ثم درسنا العلاقات بين الدول الاسلامية في عهد الرسول والدولة الرومانية ، ورسالتى النبي عليه الصلاة والسلام الى كل من هرقل امبراطور الروم والمقوقس زعيم القبط بمصر ، وموقف كل منهما من الدعوة الى الاسلام .

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن (الرسول واليهود) ، فقد كان اليهود يشرون بظهور نبي جديد ويتوعدون به الوثنيين ، حتى اذا ظهر الاسلام ونزل الوحي على الرسول الكريم ، تنكر اليهود للرسول والمسلمين ووقفوا منهم موقفا عدائيا . وحاول الرسول بعد هجرته الى المدينة جذب اليهود الى الاسلام ، وأكرمهم وعاملهم معاملة متسامحة ، ولكنهم أصروا على عدائهم وتعصبهم ، مما أدى الى الصراع بين المسلمين واليهود .

ودرسنا في الفصل الرابع (أحكام أهل الذمة في الاسلام) ، فعرفنا بأهل الذمة ، وذكرنا حقوقهم وواجباتهم ، وفصلنا الحديث عن الجزية ، وأسباب فرضها ومقدارها وطريقة موعد جباتها وأصول الاعفاء منها . كما ناقشنا مدى اعتبار المجوس من أهل الذمة . ثم تحدثنا عن ملابس وأزياء أهل الذمة في المجتمع الاسلامي ومدى تطبيق هذه القواعد . ثم ذكرنا القواعد الفقهية لكثير من مسائل أهل الذمة ، كالزواج والقضاء والارتداد والموارث والتجارة .

والفصل الخامس بعنوان (أهل الذمة في ظل التسامح الاسلامي) ، تحدثنا فيه عن المبادئ الانسانية في الاسلام ، وما حث عليه من تسامح مع أهل الكتاب ، وشهدنا صورا كثيرة من تسامح المسلمين مع أهل الذمة ، مما أثر في ترحيبهم بالفتوحات الاسلامية ، ثم ذكرنا اعترافات معظم المستشرقين بتسامح المسلمين .

ويدرس الفصل السادس أحوال أهل الذمة في مجتمع صدر الاسلام ، فشهدنا اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام وتعلم اللغة العربية والتحضر بالحضارة الاسلامية ، مما أدى الى مشاركة أهل الذمة في جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ويتحدث الفصل السابع عن أهل الذمة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، فيبدأ بدراسة أحوال أهل الذمة في عهد عمر وعثمان وعلي ، ثم أحوالهم في العصر الأموي ، ويتحدث عن تولية أهل الذمة المناصب

الحكومية ، ثم يدرس الجزية والخراج فى عصر الخلفاء الراشدين
والأمويين ، ويصور ما تمتع أهل الذمة به من حرية دينية وقيامهم ببناء
الكنائس والمعابد .

ويدرس الفصل الثامن أحوال أهل الذمة فى العصرين العباسي
والعثماني ، فيبين تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة ، حتى أصبحوا
يتولون كثيرا من المناصب الكبرى ، مما شجعهم على الاقبال على اعتناق
الاسلام . كما يتحدث عن المجوس فى العصر العباسي وتحولهم الى
الاسلام . ثم يدرس هذا الفصل أحوال المسيحيين فى العصر العثماني
ومشاركتهم فى حياة المجتمع الاسلامي .

أما الفصل التاسع فهو يدرس أحوال أهل الذمة فى مصر الاسلامية،
منذ الفتح العربى حتى الفتح العثماني ، فيتحدث عن موقف الأقباط
المصريين من الفتح الاسلامي ، وتسامح العرب مع الأقباط ، وينفى
أسطورة حريق مكتبة الاسكندرية . ثم يدرس اقبال أهل الذمة على
اعتناق الاسلام وتعلم اللغة العربية . ثم يدرس الفصل أحوال أهل الذمة
فى مصر على مر العصور الاسلامية ، فى عصر الولاة ، وفى العصور
الطولونية والأخشيديّة والفاطمية والأيوبيّة والملوكية .

ويدرس الفصل العاشر حياة أهل الذمة فى بلاد الأندلس وجزيرة
صقلية ، فشهدنا كثيرا من صور تسامح المسلمين مع أهل الذمة بالأندلس،
والحرية الدينية والاجتماعية التى تمتع بها غير المسلمين فى المجتمع
الأندلسي ، كما يدرس الفصل أحوال المسيحيين فى جزيرة صقلية فى
العصر الاسلامي .

والفصل الحادى عشر بعنوان (الحروب الصليبية ليست حروبا
دينية) ، فقد أثبتت الأبحاث التاريخية الحديثة أن هذه الحروب ليست
حروبا بين المسلمين والمسيحيين ، وأن الدين كان ستارا اختفت خلفه
الأغراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية للصليبيين ، فقد كانت هذه
الحروب هى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق

العربي . وذكرنا في هذا الفصل صوراً كثيرة لفظائع ومظاهر تعصب الصليبيين ، وهي مستمدة من كتابات المؤرخين الأوربيين المسيحيين ، ثم أوضحنا مظاهر تسامح المسلمين مع الصليبيين ، وكيف اعترف بذلك المفكرون الغربيون ، ثم تحدثنا عن اقبال بعض الصليبيين على اعتناق الاسلام والتحضر بالحضارة الاسلامية ..

ويدرس الفصل الثاني عشر أحوال (اليهود في الدول الاسلامية) فيبدأ بالمقارنة بين التسامح الاسلامي والعصية اليهودية ، ثم يقارن بين أحوال اليهود في الدول الاسلامية وأحوالهم في الدولتين الفارسية والرومانية . كما يرسم صوراً كثيرة لحياة اليهود في المجتمع الاسلامي حيث ينعمون بالتسامح والحرية ، وتحدثنا عن أحوالهم في بلاد الأندلس وفي مصر الاسلامية ، ثم قارنا بين أحوال يهود مصر وأحوال يهود أوروبا .

أما الفصل الثالث عشر فيتحدث عن اليهود في فلسطين في العصر الاسلامي ، فيبين كيف كانت فلسطين دائماً جزءاً من العالم الاسلامي والوطن العربي ، ثم يتحدث عن موقف العرب المسلمين من اليهود في فلسطين قبل القرن الثامن عشر الميلادي ، ويدرس أحوال اليهود في فلسطين في العصر العثماني .

ويدرس الفصل الرابع عشر أحوال العرب والمسلمين في اسرائيل ، فقد شهدنا في الفصول الماضية صوراً ناصعة البياض تثبت تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود على السواء ، في جميع الدول الاسلامية ويدرس هذا الفصل الأحوال السيئة التي يعيش فيها الآن العرب والمسلمون في اسرائيل ، حتى يستطيع القارىء أن يرى الفارق الكبير بين الحاليتين والمعاملتين .

والفصل الخامس عشر ، والأخير ، بعنوان (حضارة العرب أرقى من حضارة اليهود) ، فيبين أنه لم يكن لليهود تراث حضاري ، ويصور عقلية اليهود ، وثقافتهم المحدودة ، ويناقد مدى نجاحهم في النواحي

الاقتصادية ، ثم يقارن بين الثقافة العربية والثقافة العبرية ، وينتهي
الفصل بدراسة الحضارة والثقافة في اسرائيل .

وبعد ، فهذه صفحات مجيدة ، تشرف كل مسلم ، وكل عربي ،
وتبرز تسامح الاسلام والمسلمين مع أهل الذمة ، وتوضح جوانب حياة
أهل الذمة على مر العصور الاسلامية . ونرجو أن يكون التوفيق قد
حالفنا في هذه الدراسة الجديدة ، والله سبحانه وتعالى دائما ولي
التوفيق .

دكتور على حسنى الخربوطلى

استاذ التاريخ الاسلامى المساعد

بجامعة عين شمس بالقاهرة

الفصل الأدرك اليهود والمسيحيون في الجزيرة العربية قبل الإسلام

اضطهاد الرومان لليهود وهجرتهم الى الجزيرة العربية :

استمر اليهود يحرفون البقية الباقية من العقائد الموسوية ، ويوجهونها الوجهة التي أرادوها لها ، وكانت الوسيلة التي اتبعوها للوصول الى هذه النتيجة هي التأويل التي استغلوها في التزييف والتشويه ، وسموها بطريق « التفسير الرمزي » حيث ادعوا أن الكتاب المقدس لايعنى معناها الحرفي ، بل ما يكمن وراء هذا المعنى من دلالات باطنية لا يستطيع الجهال معرفتها الا عن طريقها . وعلى هذا النحو استطاعوا أن يقنعوا عامة اليهود بأن ما ردد في التوراة مثلا من وصايا تأمر بحب الغريب واحترام حقوقه لاتعنى الا الغريب من اليهود ، وأن يوحوا لهم بعاطفة بغض فطري لكل ما هو غير يهودي .

وكان المنافقون قد وصلوا الى ما أرادوا من تسييم أفكار غيرهم من اليهود وتشويه عقولهم حينما ظهر المسيح الذي كشف عن نفاقهم في كثير من آيات الانجيل . ولكن المسيح ومن بعده أتباعه قد دفعوا ثمن كشفهم عن هذا الخداع غاليا ، اذ راح اليهود الذين كانوا منبئين في أنحاء الأرض يعملون على تشويه سمعة المسيح وأتباعه برميهم بأفطع التهم وتأليب الحكومات والهيئات عليهم . (١)

تكرر الصراع بين اليهود والمسيحيين ، فقام اليهود بثورة على الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد ، وذبحوا فيها كل من وقع تحت أيديهم من غير اليهود ، ثم انتهت بهزيمتهم وتشيت شملهم وهدم معبدهم على يد « تيتوس » ولكنهم عادوا بعدها الى جمع شملهم ونصبوا لهم حاخاما

(١) القصاص : الاسرائيليون وروح العدوان ص ٨٩ .

عاما جديدا ، وأعادوا تكوين مجلس حكمهم « السانهدرين » ومجمعهم العلمى ، ووثقوا الروابط بينهم وبين جالياتهم المنبثة فى أنحاء الأرض ، ونظفوا جمع الضرائب من أفرادها ، وقاموا بمحاولة أخرى سنة ١١٥ فى عهد الجاخام « أكيا » يسمونه « أبا السنة التلمودية » ، وفيها ذبحوا مائتى ألف من المسيحيين فى ليبيا وحدها ، ومائتين وأربعين ألفا فى قبرص ما بين مسيحيين ووثنيين . وفى سنة ١٣٤ قاموا بمحاولة أخرى كانت من أشنع المحاولات التى قاموا بها اذ اغتالوا فيها مئات الآلاف من غير اليهود بقسوة معدومة النظير ولكنها أيضا باءت بالاخفاق ، وبعد ذلك تتابعت ثوراتهم وتتابع معها اخفاقهم وتبدد شملهم .

أخذ يهود فلسطين يذوبون شيئا فشيئا فاندمج بعضهم فى الحضارتين اليونانية والرومانية ، وقد تخلوا على الأقل عن تحجرهم الفكرى ، بيد أن فريقا منهم استبقى ايسانه بالديانة اليهودية كرمز للكيان اليهودى فلم يستسغ التفريط فى أحدهما ، فكان لايفتأ يثور على الاحتلال الأجنبى ، وكان قيام الثورات المسلحة ضد الحضارة الهلينية أكبر دليل على جسود الفكر اليهودى . وما لبثت ثورات اليهود أن استنفدت صبر الامبراطورية الرومانية فدمرت اورشليم سنة ٧٠ بعد الميلاد وذبحت عددا كبيرا ، وبيعت النساء والأطفال فى أسواق الرقيق ، وتسكن البعض من الفرار ، فخرجوا الى الأقطار المجاورة ، وكانت الجزيرة العربية مقصد عدد كبير منهم .

اليهود فى الجزيرة العربية قبل الاسلام :

تناثرت الجماعات اليهودية فى أنحاء المعسورة حاملة معها تفكيرها البدائى الذى يذهب الى أن بنى اسرائيل خير الأمم لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض اسرائيل أحسن البلاد لأنها موطن يهوه .

توارث اليهود هذا التفكير فأوجد فيهم الغرور والتخريب والانزواء وكان الزمن كفيلا بحل هذه العقدة النفسية واعادتهم الى حظيرة الانسجام البشرى لولا أن تولى مقاليد المسيحية أناس لم يتشبعوا بجوهرها

الخالد (المحبة) وما تعنيه من تسامح ، وانتشر التفكير الذي لم يكن من المسيحية فى شىء وهو الانتقام من القوم الذين أنكروا المسيح واضطهدوه ، ونما عداً متبادل بين اليهود والنصارى وتغلغل فى القلوب وعم معظم أرجاء العالم ، اليهود يؤمنون أنهم مضطهدون مكروهون محسودون ، ولا خلاص لهم الا بالتمسك بدينهم كما أوجدوه ، وربهم كما تصوروه ، وهيكلمهم الذى يجب أن يعبدوه ، وغير اليهود يرونهم قوماً مغرورين منبوذين مجردين من الانسانية .

كان نصيب الجزيرة العربية من اليهود النازحين عن فلسطين بعد اضطهاد الرومان لهم كبيراً ، فقد كان من هاجر من بنى اسرائيل الى جزيرة العرب فى العهد الأولى التى قاربت عهد موسى لا يزالون واقعين تحت تأثير بيئتها ، لذلك ما كادوا يشعرون بنتائج المسئوليات والتبعات حتى فضلوا عيشة بلاد عرفوها واختبروا لقاءها وعرفوا رحابة صدرها فتسرب عدد منهم اليها .

وأصبحت الجزيرة العربية بعد ذلك مهبطاً مرغوباً لليهود يسارعون الى الهجرة اليها كلما شعروا بخطر يهددهم فينزلون فى رحاب اخوانهم الذين سبقوهم اليها آمنين شر أعدائهم وقد فصلت بينهم مفاوز الصحراء (١)

اليهودية فى اليمن :

انتشرت اليهودية فى اليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية ، وكان ذلك نتيجة لغزو فلسطين وتحطيم بيت المقدس على يد (قيطس) فى سنة ٧٠ م . واذا حكمنا من واقع الأسماء التى وصلت اليها نستطيع أن نقرر أن معظم اليهود فى بلاد العرب كانوا من الآراميين والعرب المتهودين لا من سلالة ابراهيم . (٢)

كان أول من اعتنق اليهودية من ملوك الدولة الحميرية باليمن هو

(١) برانق والمحبوب : محمد واليهود ص ١٩ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧٤ .

أسعد بن كرب (٣٨٥ - ٤٢٠ م) وتروى المصادر العربية القديمة أنه غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس كما هزم سمرقند وقتله ودخلت جيوشه بلاد الصين ، وعادت محملة بالغنائم . كما حاصرت جيوشه روما ، وأدت له القسطنطينية الجزية . كذلك تذهب الروايات العربية الى أن أسعد هذا غزا يثرب وكسا الكعبة وأنه كان أول من تهود من العرب (١)

وتروى الروايات العربية قصة اعتناق أسعد بن كرب اليهودية ، فتروى أن أسعد حين قفل من الشرق الى اليمن مر بالمدينة ، وكان قد خلف هناك ابنا له ، فقتل غيلة ، فلما علم بذلك قرر الانتقام بضربها واستنصاف أهلها ، وأخذ في محاربتهم ، وبينما هو في قتالهم اذ جاءه حبران من قريظة فتكلما معه ، وأعجب بهما ورأى أن لهما علما فترك المدينة وانصرف عنها وعاد الى اليمن مصطحبا معه الحبرين ، ودعا قومه الى اعتناق اليهودية كما اعتنقها هو (٢)

المسيحية في الجزيرة العربية قبل الاسلام :

نجت بلاد الحجاز ونجد من الغزو والاستعمار الأجنبي ، فلم تكن لهذه البلاد خيرات أو مميزات تجذب الفاتح وتشجعه على تحمل وعورة السطح وقسوة المناخ ، بل ان هذه البلاد لاتجود حتى لسكانها مايمكنهم من حياة رغيدة .

تحدث المؤرخ (واشنجتون أرفنج) (٣) عن مدى تعرض الجزيرة العربية للغزو فقال : ربما تدلنا دراسة أخلاق وطبائع العرب على الأسباب التي جعلت أحوال العرب ثابتة على مر الزمن . فقد كان وضعهم الجغرافى وصحاريهم القاحلة الواسعة تحسيهم من الغزو ، كما أدى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهم فى الاستقلال الدينى والسياسى الى أن صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار .

(١) ابن همام : كتاب السجستان فى ملوك حمير ص ٢٩٤ وما بعدها .
(٢) النيجان ص ٩٥ : الطبرى ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها .
(٣) أرفنج : حياة محمد ص ١٩ (من ترجمة مؤلف هذا الكتاب) .

كانت كل من الدولتين الفارسية والرومانية تتمنى لو أنها نجحت في بسط سلطانها على اقليم الحجاز ، فقد كانت الدولتان قبل ظهور الاسلام تتنافسان على مناطق النفوذ ، ولكن وعورة الطرق الموصلة الى الحجاز ، وطول خطوط الامدادات والتموين ، وجذب الصحراء ، وعدم وجود جيش عربى مركزى توجه اليه الدولة الفارسية أو الدولة الرومانية جيوشها وجهودها ، أدى الى بقاء الحجاز فى أيدي أصحابه من العرب بعيدا عن السيطرة الأجنبية .

حتى اذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوذهم السياسى على بلاد الحجاز ، اتجهوا الى بلاد اليمن ، حيث كانت تحكمها الدولة الحيرية العربية . وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط السيادة الرومانية وأدرك الفرس حقيقة أهداف الرومان فعملوا على الوقوف فى وجه السياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية فى الخليج الفارسى .

بدأت المسيحية تجد طريقها الى اليمن عن طريق الشام وقد أخذت البعثات السورية الفارة من الاضطهاد تدخل اليمن فى أوقات غير معروفة لنا ، ولكن أول سفارة مسيحية الى جنوب بلاد العرب وصلت اليها أخبارها هى تلك التى أرسلها الامبراطور (كونستاسيوس) فى سنة ٣٥٦ بزعامة (تيوفيلوس أندوين أليوس) . وكان الباعث الحقيقى لارسال هذه البعثة ، ظروف السياسة الدولية فى تلك الفترة نتيجة للتنافس بين امبراطوريتى الفرس والروم فى سبيل الحصول على مناطق نفوذ فى جنوب بلاد العرب ، وكانت لهذه البلاد أهمية اقتصادية كبرى ، فقد كانت تنتج كميات كبيرة من البخور والتوابل والأعشاب الطبية ، كما كانت تقع على طرق التجارة الرئيسية فى العالم القديم . ونجح توفيلوس فى انشاء كنيسة فى عدن وكنيستين أخريين فى مملكة الحميريين . وقد اعتنقت نجران الدين الجديد حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية . وأصبحت أهم معقل للمسيحية فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

أدى التنافس فى بلاد العرب الجنوبية بين معتقى الدينين الجديدين

الى العداة والصراع . وتسابق اليهود والنصارى فى اليمن لتهويد أو تنصير أهل اليمن الذين ظلوا على دين آباءهم وأجدادهم من عبادة الأصنام ، وحاول كل فريق أن يتغلب على منافسه ويسحقه من غير رحمة ولا شفقة . فوقع بين أتباع الديانتين صراع مؤلم سالت فيه الدماء . وكانت (اللاسامية) فى جملة العوامل التى زادت فى شدتها ، ولا شك اذ سارت الحكومة البيزنطية بعد تنصرها على السياسة القديمة فى مقاومة اليهود باضطهادهم والضغط عليهم . وهذا مما حملهم على توجيه أنظارهم الى خصوم الروم وأعدائهم من الفرس (١) .

وكان الفرس على الغالب باستثناء فترات من الزمن متساهلين مع اليهود ، كما كان من مصلحتهم تأييد كل جبهة معادية للروم ، واليهود كانت جبهة من هذه الجبهات .

صراع اليهود والنصارى حول السيادة فى اليمن :

أحرز اليهود انتصارات كبيرة على النصرانية فى اليمن ، حين اعتنق ملك حمير اليهودية وبدأ اضطهاده العنيف للمسيحيين ، وتعصب لليهود فأفرط فى التعصب ، فقد حنق لما كان يلاقيه اخوانه اليهود من اضطهاد فى الدولة الرومانية البيزنطية ، وطفق يسوم نصارى مملكته سوء العذاب . (٢)

هاجم الملك الحميرى معقل الجالية المسيحية ، وخير أهلها بين الارتداد عن المسيحية أو القتل ، فاختراروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم ، فقتلهم حرقا فى الخنادق . وصور القرآن الكريم هذه الحادثة فى هذه الآيات الكريمة (٣) : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود .. اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) . ويعلل المؤرخ العربى المسيحى المعاصر الدكتور فيليب حتى (٤) هذه الواقعة بأن الملك

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام - ج ٣ ص ١٨١ .
(٢) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٤٥ .
(٣) سورة البروج ٨٥ آيات ٤ - ٥ .
(٤) حتى : تاريخ العرب ص ٧٥ .

الحميري كان يمثل الروح القومية ، فكان يرى في مواطنيه المسيحيين ما يذكره بحكم الحبشة المسيحية البغيض .

غضب (جستنيان) امبراطور الدولة البيزنطية لما لحق بمسيحيي نجران ، باعتباره حاميا للمسيحيين في كل مكان ، وطلب من نجاشي الحبشة المسيحي غزو هذه البلاد وانقاذ المسيحيين . وكان جستنيان يرمى من وراء ذلك الى غرضين : أحدهما سياسي ، وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقا لتجارته الى الشرق اذا وقعت في يد حلفائه الأحباش ، ليقضى على تجارة منافسيه الفرس ، والآخر ديني ، وهو جعل السيادة للدين المسيحي هناك (١) .

كانت الحبشة حينئذ في ذروة مجدها ، تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة ، ويسخر لها العباب أسطول يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذها من البلاد ، وكانت حليفة الامبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بيزنطة رافعة علمها على البحر المتوسط (٢) .

تظاهر الأحباش بأنهم قدموا للانتقام مما حل بالمسيحيين في نجران ، ولكنهم كانوا يتخذون هذه الحجة ستارا يخفون وراءه أغراضهم الاستعمارية . أرسل النجاشي الى اليمن عبر البحر الأحمر ، جيشا يتألف من سبعين ألف رجل بقيادة (أرياط) . وانتصر الأحباش على الحميريين سنة ٥٢٣ م .

أصبح أرياط حاكما على بلاد اليمن ، وظل يتولى أمور هذه البلاد حتى أخذ عليه قواده انحيازه الى فريق منهم في توزيع العطاء والغنائم ، فاجتسعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه ، وبذلك خلا الجو لأبرهة ، فبولى الحكم في اليمن بدلا من أرباط . (٣)

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام - ج ١ ص ٢٩ .
(٢) هيكل : حياة محمد ص ٣٦ .
(٣) سيرة ابن هشام - ج ١ ص ٤١ .

أقام الأحباش في اليمن كهاتحين ، واقلبوا كمستعمرين ، وظلوا من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥ م يهيمنون على بلاد اليمن واستثمروا مواردها الاقتصادية لمصلحتهم .

محاولات الأحباش لنشر المسيحية في الجزيرة العربية :

اتخذ أبرهة من صنعاء عاصمة للمستعمرة الحبشية الجديدة في بلاد اليمن ، وبنى فيها واحدة من أعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة وهي التي يسميها كتاب العرب (القليس) ، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية (اكليزيا Ckkleisia) ومعناها كنيسة . وقد أراد الأحباش أن تكون هذه الكنيسة الكبرى نواة لدولة مسيحية كبرى في بلاد اليمن ، ثم تمد هذه الدولة نفوذها فيما بعد على أرجاء شبه الجزيرة العربية ، فيصلون بذلك بين دولة الأحباش والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) التي تمتد الى مشارف الجزيرة العربية حيث تقوم امارة الفساسنة .

تميزت كنيسة صنعاء بالضخامة والفخامة ، ويرى الدكتور (حتى) (٢) أن الأحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد ، وخلق منافس لمكة الوثنية التي كانت مركز الحج في الشمال لأن الحج كان مورد دخل عظيم لأولئك الذين يسكنون في تلك المدينة ، التي كان يسافر اليها الحجاج ، أو على مقربة من الطرق التي كانت تؤدي اليها . وقد نجح الأحباش بتأسيس ذلك المعبد الديني في الجنوب في اجتذاب الجماهير ، وأصبح التنافس الاقتصادي عظيما . ويذكر الأستاذ الدكتور طه حسين (٢) أن أبرهة رغم أنه بذل جهدا كبيرا في ترغيب الناس في أن يتخذوا من كنيسته بصنعاء كعبة لهم ، الا أن العرب كانوا أهل وثنية ولجاج في الوثنية ، فكانوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويتغنون عنده المعروف ، ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له ، وكان الذين يختلفون الى كنيسته قليلين مها كثروا ..

(١) تاريخ العرب ص ٧٦ .

(٢) على هامش السيرة ص ١٤١ .

سميت هذه الكنيسة (القليس) لارتفاع بنائها وعلوها ، وقد استدل أبرهة أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها ألوانا من السخرة ، وكان ينقل اليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ومن شدته على العمال كان العامل اذا طلعت عليه الشمس قبل أن يبدأ عمله قطعت يده .

كتب أبرهة الى النجاشي أنه يريد أن يصرف حجاج العرب الى كنيسته ، ويحول تجارة قريش الى صنعاء ، وجاء في رسالته : « بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبني العرب ولا العجم مثله ، ولن أتتهى حتى أصرف حاج العرب اليه ويتركوا الحج الى بيتهم » .

أثار مشروع أبرهة حفيظة العرب ، فخرج رجل من بني مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ، ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهاك حرمتها . وغضب أبرهة لذلك أشد الغضب ، وأقسم ليهدم الكعبة وليحسب العرب على أن يحجوا الى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . وتحدث ابن هشام (١) عن أثر قسم أبرهة في العرب فقال : « وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام » .

ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء الى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذي أرسله اليهم ملكا ، فزادت ثورته ، وأمر بالاستعداد في الحال للقتال والرحيل الى مكة ، وبعث برسالة الى النجاشي ينبئه باستعداده للحرب ، ويطلب منه أن يمدده بالجنود والقبيلة ، واستجاب النجاشي لطلبه ، ونجح أبرهة في تكوين جيش كثيف العدد وكامل العتاد .

ثم جاءت خاتمة المأساة ، ويروي المؤرخون القدامى أن الله قد أرسل من البحر طيورا أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر في منقاره وحجران في رجليه ، أمثال الحمص

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥ .

والعدس ، لاتصيب أحدا منهم الا هلك (١) ووصف المؤرخ المسعودى (٢) مصير الجيش الحبشى فقال : « فأرسل الله عليهم الطير الأبايل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » .

وخلد القرآن الكريم هذا الحدث التاريخى الكبير ، فى سورة الفيل : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) . وهلك معظم جند أبرهة ، ونجت القلة القليلة . اما أبرهة فقد مسه حجر فصرع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط حتى مات .

يعتبر المؤرخ (براون) عام الفيل فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية ، ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة حتى أنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم . فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الاسلامية ، اذ لو أتيح للجيش الحبشى الانتصار لتغير وجه التاريخ وانتشرت المسيحية فى بلاد العرب ، وانصرف العرب عن مكة الى صنعاء (٣) .

حدث بعد الهزيمة الماحقة التى نزلت بأبرهة وجيشه أن قامت حركة وطنية فى دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش ، وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميرى الذى سعى لانقاذ قومه ، فسار الى ملك الحيرة العربى ليتوسط له لدى كسرى أنوشروان ليمده بقوة يستعين بها فى اخراج الأحباش من بلاد اليمن .

وكان العرب المسيحيون فى تلك البلاد يتطلعون الى الحماية والرعاية من الروم ، كما كان اليهود والوثنيون يتطلعون الى الحماية والرعاية . كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥١ .

فلما استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى فارس ، أمدته بحملة سنة ٥٧٥م بقيادة وهرز . وقد تغلب هذا القائد على الأحباش فى اليمن ، وأنقذ هذه البلاد من حكمهم البغيض (١) .

قامت على اثر ذلك فى بلاد اليمن حكومة مشتركة ، تقلد سيف ابن ذى يزن فيها ولاية اسمية ، وانتحل (وهرز) وظيفة نائب ملك فى تلك البلاد ، حتى اعتنق (باذان) ، آخر ولاية الفرس على اليمن ، الاسلام ودخل فى طاعة الرسول ، وبذلك أسدل الستار على صراع اليهود والمسيحيين فى اليمن ، أو بعبارة أخرى صراع الفرس والروم .

اليهود فى الحجاز :

كان اليهود قبل ظهور الاسلام قد احتلوا أخصب بقاع الحجاز واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة . وقد أدى استعمارهم تلك البقاع واعتزازهم بأنفسهم ودينهم الى كراهة العرب لهم ورغبتهم فى اخراجهم من بلاد الحجاز . ونلاحظ ذلك بصفة خاصة فى يثرب حيث كان الأوس والخزرج يبذلون جهودهم للحلول محل اليهود فى أراضيهم الخصبة (٢) .

عاش اليهود فى يثرب وخيبر واليمن وجاور اليهود أهل يثرب ، أما مكة والطائف فلم يكن بها غير الوثنية لبعدها عن موطن اليهود . (٣)

كانت يثرب (المدينة المنورة بعد هجرة الرسول) أكثر مدن الحجاز التى قصدتها اليهود ، وكان سكانها الأوائل (العمالقة) ، وما لبثت أن تابعت موجات هجرات اليهود فتغلبوا على العمالقة واستقروا فى يثرب . وصف أبو الفرج الأصفهاني تغلب اليهود على يثرب فقال : « كان يسكن المدينة فى أول الأمر قبل بنى اسرائيل قوم من الأمم

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٨ .
(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٤ .
(٣) ولغنتسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧ .

الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد وكانوا أهل غزو
وبغض شديد .

ولم تظهر هجرة اليهود الى يثرب بشكل واضح الا فى القرنين الأول
والثانى الميلاديين على أثر الحروب التى شنها الرومان ضد اليهود فى
فلسطين والتى انتهت بطردهم منها وتشتيتهم فى أرجاء متفرقة ، فهاجر
منهم بنو النضير وبنو قريظة الى شمال الجزيرة العربية ، واستقر بهم
المقام فى يثرب .

اضطر اليهود الى الاندماج فى الحياة العربية ، ليحافظوا على
مصالحهم المادية واقتبسوا بعض نظم العرب الاجتماعية ، فانقسم اليهود
مثلا انقسم العرب ، الى قبائل واتخذ معظم اليهود أسماء عربية ، وحاولوا
اجادة اللغة العربية ، حتى أنه ظهر بعض الشعراء اليهود مثل السموءل بن
عاديا .

كانت لغة اليهود فى بلاد العرب هى اللغة العربية ، ولكنها لم تكن
عربية خالصة ، بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال
اللغة العبرية تراكا تاما . بل كانوا يستعملونها فى صلواتهم ودراساتهم ،
فكان من الضرورى أن يدخل فى لغتهم العربية بعض الكلمات العبرية .

كما ساهم اليهود فى الحياة الاقتصادية فى يثرب وسيطروا على
معظم الموارد الاقتصادية فاحتكروا التجارة وجابت قوافلهم بلاد العرب
طولا وعرضا وامتلكوا ضياعا واسعة واهتموا بزراعتها وزيادة الاتجاج
الزراعى ، كما برعوا فى الفنون الميكانيكية وصناعة الأسلحة والمصنوعات
الذهبية وآلات الزراعة .

لم تهدأ الأحوال للقبائل اليهودية (وأشهرها بنو قينقاع وبنو قريظة
وبنو النضير) فى يثرب ، فقد وفد عليها قبائل عربية يمنية ، قدمت من
اليمن بعد خراب سد مأرب وتخریب السيول للأراضى الزراعية ، اذ
هاجرت القبائل اليمنية الى مناطق مختلفة ، واستقرت اثنتان منها هما
الأوس والخزرج فى يثرب .

خضع اليهود للأمر الواقع ، فهادنوا القبيلتين العرييتين (الأوس والخزرج) ، فسمحوا لهم بالاستقرار والنشاط الاقتصادي ، في التجارة والزراعة ، ولكن الأوس والخزرج أرادوا ضمنا ضمن لهم حسن معاملة اليهود باستمرار فطلبوا أن يعقدوا معهم تحالفا يبدلون فيه الأمان ويضمنون لهم حسن الجوار ، فتحالفوا وتعاقدوا معهم ، واستطاعوا أن يتفرغوا لنشاطهم الاقتصادي وحازوا ثروات كبيرة . وسرعان ما انقلب اليهود على العرب ، فقد حقدوا عليهم مشاركتهم لهم في استغلال الموارد الاقتصادية في يثرب ، وحسدوهم على ماألوا من ثراء ، فأعلنوا نقضهم لما بينهم وبين العرب من تحالف وتعاهد .

بدأ اليهود اضطهادهم للعرب (الأوس والخزرج) ، وكانت قبيلتنا قريظة وبنى النضير أكثر القبائل اليهودية عداا للعرب مما اضطر العرب للاستنجاد بأخوتهم في العروبة وهم العرب الغساسنة المستقرون في امارة لهم بالشام على أطراف الدوالة البيزنطية ، ولبي الغساسنة النداء وهرعوا يقفون الى جانب اخوانهم عرب يثرب في صراعهم مع اليهود .

كان النصر مضمونا لعرب يثرب على اليهود ، طالما يقفون - أى الأوس والخزرج - معا صفا واحدا أمام عدوهم المشترك . ولكن للأسف ما لبث الشقاق أن دب بين صفوف العرب فانقسموا على أنفسهم وبدأ عداا قبيلة الأوس لقبيلة الخزرج . انتصرت الخزرج على الأوس ، وقصدت الأوس قبيلة قريش تطلب منها أن تعاونها ، ولكن قريشا كانت قبيلة تجارية فحرصت على تركيز جهودها في الأغراض التجارية فامتنعت عن مساعدة الأوس ، فاضطروا الى محالفة أعداء الأوس ، اليهود ، وتحالفوا مع بنى قريظة وبنى النضير .

ودارت حرب عنيفة تسمى (فجار يثرب) أو (فجار الأوس والخزرج) ، انتهت بانتصار الأوس ، ثم اتفق الفريقان على الصلح ، واقامة حكومة مشتركة تنظم العلاقات بين أهل يثرب واختاروا عبد الله بن أبى

سلول ملكا عليهم جميعا . ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح ، فقد هاجر الرسول الكريم في ذلك الوقت . (١)

لماذا لم يقبل العرب على اعتناق اليهودية ؟ :

لم يقبل العرب على اعتناق الديانة اليهودية ، ويرجع ذلك الى عدة أسباب :

أولا : لم يهتم اليهود قديما وحديثا ، بالتبشير بدينهم ، فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن سائر الشعوب غير جديرة بالدخول فيما دخرا فيه ، ولذا وضعوا العراقيل أمام كل من يريد أن يتهود . ويقول (اسرائيل ولفنسون) (٢) : الذي يقرأ تاريخ اليهود يعلم أن الأمة لم ترغب في ارغام الأمم على اعتناق دينها ، وكان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظورا على اليهود . وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية في الحجاز ، فاليهودية ، كما نفهمها هي خلاصة القانون التلمودي بعقائده وتقاليده وطقوسه . وهكذا صمم اليهود ، الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد ، على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعنقها ، الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها .

ثانيا : كانت التوراة والتلمود تكلف الانسان تكاليف صعبة ، وتربطه بتقاليد كثيرة لم يألّفها فلم يستطع العربي الذي لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة ، وكان من العسير على نفسه أن تقبل التقيّد بأغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهي المطبوعة على حب الاستقلال والحرية .

ثالثا : ضايق العرب احتكار اليهود لموارد البلاد الاقتصادية ، وخاصة أن العرب كانوا ينظرون الى هؤلاء اليهود باعتبارهم غرباء دخلاء

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٩٥ وما بعدها ، والسهمودي : وفاء الوفا ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها .
(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦٧ .

نرحوا الى بلادهم العربية فأقاموا فيها بالقوة ، وزاحموهم فى أرزاقهم ، وسيطروا على اقتصاديات الجزيرة العربية يذكر (هاريمان) أن اليهود تسكنوا بما كان لهم من مال ، وخبرة فى جمعه ، وفى أعمال الصيرفة والاحتكار واكثر المال من تولى الوظائف المالية فى حكومة حمير ، ومن تنظيم ميزانيتها ، وبذلك سيطروا على المواضع الحساسة فى جسم الدولة وعلى الملوك حتى ادخلوا فى نفوسهم بغض ديانتهم القديمة وحب ديانة اليهود .

رابعا : كان العرب ، وخاصة فى اليمن ، ينظرون الى اليهود على أنهم عملاء للنفوذ الفارسى الأجنبى . فقد اعتمد الفرس على اليهود كعملاء لهم . ولذا اعتبر بعض العرب انتشار اليهودية يعنى اتساع النفوذ الفارسى فى بلاد العرب .

خامسا : كان اليهود لا يتصفون بصفات طيبة تجعل العرب يعجبون بأشخاصهم فيقبلون على اعتناق دينهم ، فقد تكرر نقضهم للعهود ، وتكررت خيانتهم وغدرهم الى جانب التجائهم الى أساليب ملتوية فى معاملاتهم المادية والاقتصادية .

الفصل الثاني الرسول والمسيحيون

حاجة العالم الى الاسلام :

الدين بمعناه اللغوي هو الطاعة والالتقياد ، والتدين هو الرضوخ والدينوية لعقيدة ، والدين بمعناه العام هو ناموس أبدى مطلق ، كامن بذوره في كل نفس حية واعية ، وأساسه وحدة الخالق وخلود النفس وانحب ، وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، والايمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب .

والانسان لا يمكنه أن يعيش بدون عقيدة سامية ، فالعقيدة من مقومات انسانيته وارتفاعه عن مستوى الفرائز الحيوانية ، والحضارة في كل عصر منبعها الأول الدين ، ولا يمكن أن تقوم نهضة اجتماعية الا على أسس دينية .

والاسلام دين يتجه الى العقل ، ويوافق الميول الطبيعية في الانسان وهو أول دعوة عالمية ، توفر المقومات لتعاون انساني عالمي ، وتحقق الانسجام البشري ، والاسلام هو صمام الأمن والسلام لحياة الانسان الروحية والمادية . ويجد الانسان في الاسلام من المرونة ومجابهة الواقع ومن الوعي الحقيقي الكامل للطبيعة البشرية ومطالب الحياة ، ما لا يجده في غيره من الأديان أو النظريات الوضعية .

وأثبت النظام الاسلامي الاجتماعي أنه النظام العالمي الوحيد الثابت .. وفي التعاليم الاسلامية نجد أسس علاج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعاني البشرية . والتعاليم الاسلامية ، وحضارتها ونظمها ، تقوم على أساسين رئيسيين ، أساس روحي أو عاطفي وأساس عقلي أو منطقي . وقد جعل الاسلام العقل حكما في كل شيء ،

والنظم الاسلامية تستند الى العقل . ويكفل الاسلام للجميع السعادة في حياتهم ، ويضمن لهم التكافؤ الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية .

تحدث المؤرخ (فاليرى) عما امتاز به الاسلام عن غيره من الاديان مما أدى الى سرعة انتشاره فقال : فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها بعدها عن مدى الافهام ، على حين كان الاسلام عجيبا في سهولته صريحا في فروضه ، وهذا كان سببا في سرعة انتشاره بين الشعوب التي اضطرت نتيجة ما أصابها من الشك المضمنى في عقائدها الدينية ، وهذا أيضا كان ولا يزال السبب في انتشاره المتواصل بين الأمم في آسيا وافريقية لنفوذها الى أرواحهم ، دون الحاجة الى التطويل في شرحه ، والتلطف في الدعاية له .

وقال (ليودوروش) : ان الاسلام دين انسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الطبيعية الوضعية الا وجدته مشروعاً فيه وبحثت عن تأثير الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف . وقال (جان مليا) : الاسلام دين سماوى ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وأكثر الأديان تساهلا (١) .

كانت أحوال الدوائين الفارسية والرومانية البيزنطية وقت ظهور الاسلام سيئة للغاية .

أما الفرس ، فقد ظهرت دولة الفرس الساسانية سنة ٢٢٦ م على يد أردشير بن بابك الذى اتخذ المدائن عاصمة له ، وقد عظمت دولته فشملت العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع بلاد العجم ، ومازالوا يتوارثون ملكه حتى تولى كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) وفى أيامه ولد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد اشتبك مع الرومان فى حروب طويلة انتصر فى نهايتها ، لانشغال خصمه جستينيان فى فتوحاته فى ايطاليا

(١) انظر كتاب الاسلام والحضارة العربية لكردي على .

وشمال افريقية . وقد استمرت الحرب متقطعة بين الدولتين أيام خليفته
هرمز ، ثم كسرى أبرويز الذى اكتسح سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى
حتى وصل الى البسفور سنة ٦٠٨ م ، فعجز ملك الروم عن صده فخلعه
الاهانى واستدعوا هرقل حاكم افريقية وولوه مكانه . ورغم حنكته
استمرت انتصارات أبرويز الساحقة ، فاحتل دمشق سنة ٦١٣ م والقدس
سنة ٦١٤ م واحتل مصر سنة ٦١٦ م وصل ثانية
قرب القسطنطينية سنة ٦٧١ م ، فاضطر هرقل الى طلب الصلح فرفض
ابرويز ، وأثار هرقل حساسة رجال الدين فأزروه بأموال الكنيسة ، فجهز
جيشا كثيفا صد الفرس واسترد ما فقده . وأدت هزائم الفرس الى ثورة
شبيويه على أبيه أبرويز ثم اغتاله وعقد الصلح مع هرقل . وسادت الفوضى
الدولة الفارسية ، نتيجة ضعفها وحروبها المستمرة مع الروم ، لاختلافهم
فى الدين وحاجة الفرس الى ميناء على ساحل البحر المتوسط ، ومن جراء
النزاع على الملك ، وبسبب ظهور البدع الدينية الهدامة مثل المانوية
والمزدكية الاباحية التى أدت الى تدهور الاحوال الاجتماعية والخلقية

كانت عاصمة الروم القسطنطينية ، وشملت الدولة الرومانية
الشرقية (البيزنطية) الى جانب أملاكها فى أوروبا : آسيا الصغرى ،
وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، وشمال افريقية . ومن أشهر أباطرتهم
جستيان الذى اشتبك مع كسرى أنوشروان ، والذى أمر نجاشى الحبشة
بعزو اليمن واسقاط الدولة الحميرية العربية . وقد أصاب الدولة الرومانية
بعد موته ضعف شديد ناتج عن كثرة حروبه فى الغرب لاستعادة أملاك
الامبراطورية الرومانية ، وكثرة ما أنفقته على المباني ، فكانت خزانة البلاد
خاوية ، وجيشها منهكا .

وتوالى على عرش الروم بعده أباطرة ضعاف اشتد فى أيامهم النزاع
على الملك ، وتسررت الجند المرتزقة مما أدى الى انتصار الفرس وظلت
الحال كذلك حتى أسند العرش الى هرقل (٦١٠-٦٤١ م) فاسترد هيبه
الدولة وقهر الفرس ولكن كانت هناك عوامل تؤدى الى استمرار ضعف
الدولة . فقد كانت الحروب المستمرة قد أدت الى فراغ الخزانة وتأخر

الزراعة والصناعة ، كما كانت هناك خلافات دينية حامية نشبت بين المذاهب الدينية المختلفة ، وهي مذهب الآريين ، ومذهب النساطرة ، ومذهب اليعاقبة ، ومذهب الملكانيين . وكان مذهب الدولة هو المذهب الملكاني ، واضطهدت الدولة اليعاقبة والنساطرة ، وحاولت اجبارهم على اعتناق المذهب الملكاني مما أدى الى تفور السكان في مصر والشام من الروم واستعدادهم لمساعدة أى فاتح يخلصهم من هذا الاضطهاد الديني لم يقبل العرب في أرجاء شبه الجزيرة العربية على اعتناق المسيحية رغم أنها دين سماوي أفضل من الوثنية ويرجع هذا الى أن المسيحية ارتبطت بالنفوذ السياسى الاستعماري ، الروماني والحبشى . فقد قضى الأحباش المسيحيون على الدولة العربية الحميرية في اليمن ، وبنوا كنيستهم في صنعاء ، وأرادوا هدم الكعبة وتحويل الحجاج العرب الى كنيسة صنعاء ، كما كان البدوى العربى يسيل الى الحرية الدينية ، الى جانب تمتعه بالحرية السياسية والاجتماعية والمكانية ، ولذا لم يرض عن القيود والأوامر والنواهي التي تفرضها المسيحية .

الرسول والراهب بحيرى :

استعد أبو طائب ، عم الرسول ، للرحيل بقافلته الى بلاد الشام . وكان محمد قد أصبح في الثانية عشرة من عمره المبارك ، وتقدم الى عمه يطلب منه أن يصحبه في رحلته . وكان قلب أبى طالب زاخرا بالحُب والعطف ، وفكر مليا ، فرأى أن محمدا قد بلغ من العمر ما يسمح له بأن يمارس نواحي النشاط فى الحياة العربية ، وأن يتمرن على خدمات وواجبات القافلة ، ولذا وافق على اصطحابه معه الى الشام وقال : والله لأخرجن به معى ، ولأ يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا (١) .

وصلت القافلة الى (بصرى) على حدود سوريا قرب الأردن ، ويسكنها الآن النساطرة المسيحيون ، وكانت سوقا عظيمة ترتادها القوافل

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩١ .

وفي هذه المدينة توقفت القافلة ونصبت خيامها قرب دير من أديرة الرهبان
النساطرة .

وقف العالم الراهب (بحيرى) على مقدمة دير يعلو جبل حوران
يسرح الطرف في اتباه الى سهول سوريا الشاسعة المنبسطة نحو جزيرة
العرب . وفجأة استرعى نظره قطعة من الغيم بيضاء مستطيلة ، تعترض
على خلاف العادة ، زرقة السماء الصافية ، وكان هذا الغيم - الذى يشبه
طائرا أبيض هائلا - يحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال ، يغيرها
بظله الأزرق ، ويسير معها أنى سارت .

تحدث ابن هشام (١) عن بحيرى فقال : « وكان اليه علم أهل
النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهبا ، اليه بصر علمهم
عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابرا عن كابر . »

كانت قوافل العرب كثيرا ما تمر بهذا المكان ، فلا يهتم بحيرى
بمرورها ، ولا يعرض لهم أو يتكلم معهم ، حتى كان ذلك العام . فلما
استقرت قافلة أبى طالب على مقربة من صومعته استلفت نظره شيء جديد .
فروى ابن هشام (٢) : « أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو
فى صومعته ، فى الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا
فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه . فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ،
وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
استظل تحتها . »

غادر بحيرى صومعته ، ثم بعث فى طلب أهل القافلة وقال لهم : انى
فد صنعت لكم طعاما يامعشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ،
صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرکم . وأبدي رجل من قريش تعجبه ،
فقال لبحيرى : والله يا بحيرى ان لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع هذا
بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم؟! فأجاب بحيرى : صدقت ،

(١) المصدر السابق .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٤ .

قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأضع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

وقبل القرشيون ضيافة بحيرى ، واجتمعوا حول مائدة بحيرى ، وتخلف الرسول صلى الله عليه وسلم عن المشاركة في الطعام ، ومكث في رحال القوم تحت الشجرة ، فقد كان حدث السن فلم يشأ أن يشارك شيوخ قريش مجلسهم . وجالت عيني بحيرى بين الجالسين حول مائدته ، فافتقد محمدا الذي استضاف القافلة كلها من أجله ، فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . فقالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنا ، فتخلف في رحالهم . وأبدي بحيرى غضبه فقال : لاتفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . فقال رجل من قريش : واللوات والعزى ، ان كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام هذا الرجل الى محمد ، فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

وتفرس بحيرى بنظره في محمد ، وأخذ ينظر الى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته . حتى اذا انتهى القرشيون من تناول الطعام وتفرقوا ، قام بحيرى الى الرسول ، وتوجه اليه بالحديث فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

ويصر ابن هشام (١) حلف بحيرى باللات والعزى فيقول : « وانما قال له بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما » . وكان محمد منذ حدثه نابذا للاوثان ، مؤمنا بالتوحيد والدين الحنيف ، فقال من فوره لبحيرى : لاتسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال محمد : سئلتني عما بدا لك .

فجعل بحيرى يسأل محمدا عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، وأشبع محمد حب استطلاع ، فأجابه على أسئلته بالصدق

(١) سيرة ابن هشام - ج ١ ص ١٩٢ .

والحق، فكان بحيرى يبدى سروره لهذه الاجابات اذ كانت توافق «ماعند بحيرى من صفته» (١) . ونظر بحيرى الى ظهر الرسول فرأى خاتم النبوة بين كتفيه .

حتى اذا انتهى بحيرى من أسئلته وفحصه ، أقبل على أبى طالب ، وقال له : ما هو ابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا . فقال أبو طالب : فانه ابن أخى . فسأله بحيرى : فما فعل أبوه ؟ وأجاب أبو طالب : مات وأمه حبلى به ، فقال بحيرى : صدقت ، فارجع بابن أخيك الى بلده . واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغنه سرا ، فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده .

تقبل أبو طالب نصائح بحيرى ، فخرج بابن أخيه سريعا حتى قدم مكة بعد أن فرغ من تجارته بالشام ، وتروى بعض المصادر أن أبا طالب بعث بسحمد على عجل مع بعض غلمانه الى مكة ، كما تروى أن الراهب زوده بكعك وزيت هدية ومؤونة للطريق .

ويروى ابن هشام (٢) « أن زريرا وتساما ودريسا ، وهم نفر من أهل الكتاب ، قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رآه بحيرى فى ذلك السفر ، الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه فردهم عنه بحيرى ، وذكرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به ولم يخلصوا اليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه » .

المسيحيون والتبشير بنبوة محمد :

لم يخل كتاب من الكتب السماوية قبل مبعث الرسول من التبشير بظهور النبي محمد . وكانت الأخبار مستفيضة فى الأمم ، ولعلها من الأسباب التى دعت اليهود والنصارى الى استيطان أرض الجزيرة العربية ، التى وصفتها الأسفار المنزلة بأنها أرض النبي المنتظر .

(١) المصدر السابق .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٤ .

قال المؤرخ الهندى المسلم مولاي محمد على (١) : ذكر القرآن الكريم أن مجيء النبی أخبر به جميع من سبقه من الأنبياء ، وأنهم قطعوا العهد والميثاق على شعوبهم بقبول دعوته لمجرد ظهوره . وقد أبلغوا أقوامهم أن آية صدق النبی المرتقب شهادته واقرارہ برسالتہ من سبقه من الأنبياء . واقتضت ارادة الله أن تكون الرسائل الأولى على يد نبي أرسل لهداية شعب معين ، وقتما كانت شعوب الأرض في حياة معزولة ، لم تعرف بعد وسائل الاتصال الحديثة ، ولكي يستخلص من الأديان دينا واحدا ، ويجمع العالم في اخاء عالمي واحد ، بعث الله محمدا رسولا ، وجعل رسالته عامة للبشر كافة .

كان في مكة راهب مسيحي يدعى (عيص) يترقب مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يقول : « تدين له العرب ، ويملك العجم ، أرضها وبلادها ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن خالفه أخطأ حاجته ، وان نجمة طلع البارحة » حتى اذا ولد محمد قال الراهب لعبد المطاب جد الرسول : احفظ لسانك فانه لن يحسد حسده ، ولن يبغى على أحد كما يبغى عليه ، وان طال عمره لا يبلغ السبعين ، يموت في احدى وستين أو ثلاث وستين .

وروى ابن هشام (٢) أن حليلة السعدية ردت الرسول الى أمه وأخبرتها أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامته ، فنظروا اليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لناخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ، فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره . وأسرعت حليلة تهرب بالطفل الصغير العظيم .

جاء في كتاب (الانجيل والصليب) تأليف الأب عبد الأحد داود الآشوري العراقى ، مئران الموصل في عهد السلطان عبد الحميد ، في صفحة ٣٣ في الباب الثانى : « أن المبشر لوقا يبشر بالاسلام وبأحمد ، فقد جاء في لوقا أنه ظهر في الليلة التى ولد فيها المسيح عليه السلام جمهور

(١) محمد رسول الله ص ٣٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ .

من الجنود السماوية للرعاة الذين كانوا في البرية يترنمون بهذا النشيد
(لوقا ٢ : ١٤) « الحمد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وللناس
أحمد » .

وفي الترجمة العربية لهذه الآية « المجد لله في الأعالي وعلى الأرض
السلام وبالناس المسرة » . والمؤلف يعلم هذا وقد نقله ، ولكن يقول أن
الأصل الصحيح هو ما قاله : اسلام وأحمد .

واستطرد المؤلف المطران عبد الأحد داود في الفصل الثالث وما بعده
(ص ٤٥) الى ترجمة كلمة (ايادوكيا) التي معناها أحمد ، وقد ساعده
عليه باللغات السريانية والعبرية واليونانية القديمة .

ومعلوم أن اسم أحمد هو صفة تفضيل من الحمد ، وهو الذي
يقع منه الحمد أكثر مما يقع من غيره ، واسم محمد صفة مبالغة من
التحميد ، ومعناه الذي يحمده غيره كثيرا . واسم محمود صفة مفعول من
الحمد ، والثلاثة من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم .

وجاء في صفحة ٨٦ من الكتاب نفسه : « يقول يوحنا ١٦ : ٢٩ ان
المسيح الى آخر ليلة كان يكلم تلاميذه بالأمثال وواعد أن البارقليط
المرسل من طرف الله والذي سيأتي بعده سيفسر ويبين كلامه وانجيله
الحقيقي » . وكلمة (بارقليط) أو (فارقليط) يونانية قديمة ومعناها
المعين ، والمدافع والنصير ، والمواسى .

وبديهى أن المسيح لم ينطق بهذه الألفاظ بنصها لأنها عربية ، وهو
كان يتكلم بالعبرية ، أضف الى هذا أن الألفاظ التي نطق بها المسيح
ضاعت وكل اعتمادنا على ترجمة يونانية للانجيل . وقد ذكرت كلمة
(بارقليط) و (ايفادوكيا) التي يراد بها اسم فى حين أن الترجمة
الحرفية لكلمة براقليط هي كما أسلفنا النصير أو المواسى والثانية تدل
دلالة صراحة على معنى الحمد عن طريقى الحقيقة والمجاز ، ولأن النصير
والمواسى يستحق الحمد والثناء .

غير أن الذى يدعم التفسير ويدل على أن المقصود بالباراقليط هو

محمد رسول الله استقراء الصفات التي وردت في انجيل يوحنا ١٤ : ١٦ و١٦
فانها تنطبق على صفات النبي العربي ، ويؤيد هذا الرأي أن المسيح كان
يخاطب حواريه بالرموز والأمثال ، فقد جاء في وصف الباراقليط أنه
سيبقى الى الأبد ، وهذا هو المشاهد في رسالة محمد وشريعته ، فانه خاتم
الأنبياء ، ولم يأت ولن يأتي بعده رسول بتشريع عالمي . وموصوف بأنه
يعلم أمته كل شيء ، وقد جاء محمد بدين كامل وتشريع تام .

وأوضح من هذا ، كلمات يوحنا ١٦ : ١٢ - ١٤ على لسان المسيح
نفسه : « لاتزال عندي أشياء كثيرة أقولها ، ولكنكم لاتحتمونها
أو تطيقونها . عندما يجيء روح الحق فانه سوف يرشدكم الى الحق
ويدلكم عليه ، لأنه لن يتكلم عن نفسه ، ولكنه سوف يسجدني (١) .

عدد المؤرخ الهندي المسلم مولاي محمد علي (٢) كثيرا من آيات
الانجيل ، وكلها تبشر بظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء في
انجيل يوحنا ، الاصحاح الرابع عشر ١٣ - ١٥ : (ان كنتم تحبونني
فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا آخر ، ليملك
معكم الى الأبد : روح الحق) وجاء في انجيل يوحنا الاصحاح ١٦ : ٧
(لكني أقول لكم الحق ، انه خير عليكم أن أنطلق ، لأنه ان لم أنطلق
لا يأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم) . وجاء في انجيل يوحنا
أيضا الاصحاح ١٤ - ٢٦ (أما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب
باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء) . ثم يقول المؤرخ مولاي محمد علي :
وجميع هذه النبوءات تشير بوضوح لا ريب فيه الى مجيء نبي بعد
المسيح .

الرسول وورقة بن نوفل :

ورقة بن نوفل شيخ وقور ، ارتبط تاريخه بظهور الاسلام ، ونزول
الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم . وينتمي الى بيت من أشرف

(١) انظر كتاب نورة الاسلام للطنى جمعة ص ٢١٧ .

(٢) محمد رسول الله ص ٢٥ .

بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد ، أول من آمنت من النساء ، وشريكة الرسول في الجهاد قبل ظهور الاسلام ، ظهر من بين العرب جماعة مستتيرة نبذت الوثنية ، فاعتنق بعضهم المسيحية أو اليهودية ، واعتنق البعض الآخر الحنيفة فعملوا على احياء دين ابراهيم الحنيف وهو دين التوحيد . وكان ورقه ممن اعتنقوا المسيحية ، وقرأ التوراة والانجيل ، وكتب العبرانية ، وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة وشاركته أخته (قتيلة بنت نوفل) ميوله الأدبية والدينية واطلعت على الكتب القديمة .

آثر الرسول صلى الله عليه وسلم العزلة ، وألف النسك والعبادة ، فكان يذهب قبل نزول الوحي الى غار حراء ، يتحنث فيه ويتأمل عجائب الكون ، ويفكر في البعث والحساب والجنة والنار . وفي غار حراء نزل الوحي على الرسول ، وعاد الى خديجة وهو يرتجف ، وأخبرها بما كان من نزول جبريل عليه السلام ، وأسرت خديجة تزملة وتدثره ، وتطمئنه وتبث السكينة في نفسه ، ثم رأت أن تخرج لتقص ما سمعته من الرسول على ابن عمها ورقة ، وكانت تعلم مدى علمه واطلاعه ، وما يتحدث به عن قرب ظهور نبي مرتجى .

وقصدت خديجة بيت ورقة ، وكان حينئذ شيخا طاعنا في السن ، ضعيف الحركة ، أعشى البصر ، حتى اذا انتهت خديجة من حديثها ، شعر ورقة بالفرح والسرور وصاح : قدوس ، قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة فلقد جاء الناموس الذي كان يأتي موسى ، وانه لنبي هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

وبينما الرسول يطوف بالكعبة ، سارع ورقة اليه ، رغم شيخوخته وضعفه ، وطلب منه أن يقص عليه قصته بنفسه وقص الرسول عليه ما حدث ، وتبين ورقة صحة كلامه ، فأعاد على سمعه التنبؤات التي أخبر بها خديجة من قبل وأضاف : ياليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال الرسول : أو مخرجى هم ؟ فأجاب ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما أتيت

به الا عودى ، ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا . ولكن المنايا
لم تسهل ورقة حتى تتحقق أميته .

هجرة المسلمين الى الحبشة المسيحية :

اشتد عذاب قريش للمسلمين ، فكانوا يضربونهم ويضعون الصخور
العظيمة على صدورهم فى شدة الحر ، فلم يزددهم ذلك الا ايمانًا . هذا
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله ليلا ونهارا ، سرا وجهرا ،
لا يصده عن ذلك صناد . ولما رأى الرسول ما نزل بأصحابه من تعذيب
واضطهاد ، سمح لهم بالهجرة الى الحبشة ، فقد كان ملكها يشتهر
بالتسامح والعدل .

لم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين الى احدى القبائل العربية ، لأنها
كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها
الوثنى . وكذلك لم يفكر فى الهجرة الى مواطن أهل الكتاب من اليهود
والمسيحيين من العرب ، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت
تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه
لا تقبلان منافسا ثالثا . أما اليمن - وكانت مستعمرة للفرس الذين لم
يدينوا بدين سماوى - فلم يطمئن الرسول الى الالتجاء اليها . أما الحيرة
وببلاد الشام فكانت بعيدة غاية البعد عن مكة ، كما أن كلا من الشام
واليمن والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قريش . وكانت لقريش بكل
منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة ، فاذا علمت
قريش أن المسلمين فى بلد منها ، طلبت الى أهل ذلك البلد أن يردوهم
اليهم ويخرجوهم منها ، كما حاولت ذلك مع النجاشى لولا تسامحه
وعمله (١) .

هاجر المسلمون الى الحبشة مرتين ، وكان لهذه الهجرة أثر كبير فى
نشر الاسلام وترغيب الناس فيه ، فقد ذاع بين العرب أن فريقا من
القرشيين هاجروا الى الحبشة فرارا بدين تلقوه عن نبي بمكة ، وبذلك

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام - ج ١ ص ٨٧ - ٨٨ .

سرع عن الدين الاسلامى ما لم يسع به من قبل ، كما أنه كان لخروج هذه الجماعة أثر فى تخفيف حدة عداة قومهم ، اذ رأوا فرقا يشترك معهم فى العروبة قد أصبح مضطهدا ، أودى فى دينه حتى اضطر أن يهاجر الى مكان بعيد (١) .

غضبت قريش لهجرة المسلمين الى الحبشة ، فبعثت وفدا محملا بالهدايا الفاخرة يطلب من نجاشى الحبشة رد المهاجرين الى مكة ، ولكن اننجاشى كان بعيد النظر ، فطلب من المهاجرين أن يحدثوه عن حقيقة دينهم ، فشرحوا له تعاليم الاسلام ، فبكى النجاشى وقال : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما ورجع وفد قريش يجر أذيال الخيبة (٢) . وظل المهاجرون فى الحبشة حتى هاجر الرسول الى المدينة فعاد معظمهم .

موقف الرسول من المسيحيين :

كان فى الدولة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أديان أربعة : (١) الاسلام ، وهو دين الدولة الحنيف ، وعقيدة الغالبية العظمى من أهالى الدولة (٢) اليهودية وكانت دين بعض أهالى اليمن فى الجنوب وبعض أهالى الشام فى الشمال (٣) النصرانية ، واعتنقها بعض أهالى اليمن وخاصة فى مدينة نجران . وبعض أهالى الشام (٤) المجوسية ، وقد اعتنقها بعض أهالى البحرين .

ورغم اختلاف هؤلاء عن معظم رعايا الدولة فى الدين ، فقد كانت الدولة تعاملهم معاملة عادلة ، فتمتعوا بالحقوق الوطنية التى تمتع بها المسلمون ، فكان لهم فيها ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات . وجعل الاسلام أهل هذه الأديان أخوة للمسلمين فى الوطن العربى ، فقد كان نظام الدولة يقضى بأن يعاملوا فيها مثلهم ليشعروا بأن لهم دولة واحدة تجمعهم ، ووطنا واحدا يؤلف بينهم ، وقانونا واحدا يخضع له الجميع

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٠ .

ويذكر المؤرخ (توماس أرنولد) أن محمدا قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم وتفوذهم القديم في أمن وطمأنينة . وقد وحد حلف كهذا بين أتباع النبي ومواطنيهم ، مما جعل هؤلاء المواطنين يظهرون ولاءهم للحكومة الجديدة .

أثبتت معاملة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأهل الذمة أن الاسلام دين التسامح ، الذي يحرص على حقوق الانسان . وكانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الى رهبان دير سانت كاترين في جبل سيناء دليلا ناصعا على تسامح الحكومة الاسلامية الوليدة في معاملة رعاياها من غير المسلمين ، مهما كان دينهم . وقد حرص الرسول على أن يمازى رسالاته على مسع من صحابته ليعلم الجميع ما يحض الاسلام عليه من تسامح . وهذه هي بعض فقرات هذه الرسالة الكريمة :

(هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله بشير ونذير وأمين الخلق أجمعين لوديعه الله في خلقه ، كي لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما . كتبه لمن هم على دينه عهدا لأولئك القوم الذين هم على دين النصرانية من مشارق الأرض الى مغاربها ، بعيدهم وقريبهم ، عريبيهم وعجميهم ، معلومهم ومجهولهم .. فمتى كان راهب أو سائح مجتمعا في جبل أو واد أو مغارة أو معسورة أو سهل أو كنيسة أو معبد ، فنحن من ورائهم وانى لأذب عنهم بنفسى والموالى وأنصارى وشعبى ، هم وأموالهم وأثوابهم ، اذ أنهم من رعيتى وأهل ذمتى ، وأدفع عنهم كل ما يكدرهم من تلك الأثقال التى نعطيها أهل العهد ، فلا يعطون الا ما طابت لهم نفوسهم من الأشياء خراجا ، ولا يكدرون ولا يكون عليهم جبر ولا اكراه ، ولا يتغير من كان عليهم قضاة منهم عن وظيفتهم ، ولا رهبانهم عن رهبانيتهم ، ولا أرباب الخلوات عن الإقامة في صوامعهم . ولا يسلب أحد سياحهم ، ولا يهدم بيتا من بيوت كنائسهم ولا يتلفه ، ولا يدخل شئ منها الى بيوت المسلمين . وكل ما أخذ شيئا من ذلك فيكون قد أفسد عهد الله وخالف رسوله حقيقة » .

« ولا يطرح خراج على قضاتهم ورهبانهم ، ولا من كان مشغولا في العبادة منهم ، ولا شيء آخر غرامة كان أو خراجا أو مظلمة أخرى . فاني أنا احفظ ذمتهم في البحر والبر ، والمشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أينما كانوا ، وهم في ذمتي وميثاق أمانى من جميع الأشياء التي يكرهونها . »

« فلا يؤخذ خراج أو أعشار ممن يتعبد في خلوة في الجبال ولا ممن يزرع في تلك الأراضي المباركة ، ولا أحد يشاركهم في طريقهم ولا يشترك معهم بدعواه أن ذلك لغيرهم . ويعطى لهم من أوقات المواسم من كل أردب قدحا لأجل ماكولهم فلا يقال لهم ان هذا كثير . ولا يطالبون بخراج ، ولا يؤخذ من ذوى الخراجات أيضا ، ولا من الأغنياء وأرباب التجارة زيادة عن الحد المعين . ولا يكلفهم أحد الى سفر ، ولا يلزمهم الى حرب أو قتل سلاح . »

« انما المسلمون يحاربون عنهم ، ويجادلونهم على أحسن وجه اتباعا للآية (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) فيعيشون مرحومين ، ويمنع عنهم ما يكدرهم أو يضيق عليهم من كل راع أينما كانوا أو في أى محل نزلوا . واذا تزوجت نصرانية فلا يكون ذلك الا برضا تلك المرأة ، ولا تمنع من الذهاب الى كنيسة لأجل الصلاة . وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها ، ولا من حرمة أديرتهم ، ولا يلتزمون بنقل سلاح أو حمل حجارة ، وانما المسلمون يذبون عنهم ، ولا أخذ من الأمة يخالف هذا العهد الى يوم القيامة وانقضاء الدنيا . »

كانت هذه الرسالة دستورا محكما ، وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبعه سائر الخلفاء والأمراء والولاة في الدولة الاسلامية ، فعاش أهل الذمة ترفرف عليهم رايات التسامح والعدل والحرية والاخاء .

الرسول والدولة الرومانية المسيحية :

كان المسلمون يعطفون على أهل الكتاب من يهود ونصارى ، وكانوا يتمنون انتصارهم على الوثنيين والمجوس . فلما كانت جحافل الفرس

المجوس تكتسح ممتلكات الدولة الرومانية المسيحية ، في آسيا ومصر ،
ولما وقعت تدق أبواب بيزنطة ، عاصمة الامبراطورية ، ولما لاحت الساعة
الترهيبية ، ساعة انهيار الدولة الرومانية ، نزل الوحي مؤكدا انتصار الرومان
في النهاية : (الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون . في بضع سنين) (١) . وقد تحققت النبوءة ، ففي عام بدر اقتصر
المسلمون ، واستعاد الروم ما فقدوه من ممالك ، بل اجتاحت بلاد الفرس

لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل ان للعالم كله
نصيبا منه . ولما لم يكن هناك غير اله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير
دين واحد يدعى اليه الناس كافة . ولكي تكون هذه الدعوة عامة ،
وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب ، تراها تتخذ
صورة عملية في الكتب التي بعث محمد بها في السنة السادسة من الهجرة
(٦٢٨ م) الى عظماء وملوك هذا العصر . في هذه السنة بعث الرسول كتبا
الى هرقل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) ، والى كسرى
فارس ، والى حاكم اليمن ، والى حاكم مصر المقوقس ، والى نجاشي
الحبشة ، وغيرهم . وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة
على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبه الناس جميعا بقبول الاسلام ؟ »

لم يضع انتشار المسيحية بين الرومان حدا للخلاف الديني ، فظهر
الاختلاف المذهبي نتيجة العدا بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة ،
والخلاف حول طبيعة المسيح وصفته من جهة أخرى ، وخاصة أن الأباطرة
تدخلوا في هذا الخلاف المذهبي ، فعقد الامبراطور البيزنطي مجمعا في
خلفيدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م وقرر أن للمسيح طبيعتين ، وأن
مذهب الكنيسة القائل بأن المسيح طبيعة واحدة كهر ، ولذا قرر حرمان
بطريرك الاسكندرية . وعارض المصريون المسيحيون هذا القرار وأطلقوا
على أنفسهم اسم الأرثوذكسين ومعناها في اللغة اليونانية اتباع الدين
الصحيح ، بينما اتباع الكنيسة الرومانية البيزنطية يسمون باسم الملكانيين
لأنهم يتبعون مذهب الملك أي الامبراطور ، وكان يطلق أحيانا على

(١) سورة الروم آية ٤١ .

الأرثوذكسيين المصريين اسم اليعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعي أسقف
الرها ، كما كان اليعاقبة يسمون أيضا (المونوفيزيت Monophgsite
أى أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، بينما كان الملكانيون ينادون بأن
للمسيح طبيعتين

كانت هذه الاضطهادات التي قاسى المصريون الكثير منهم ، سببا
مباشرا للتمهيد للدولة الفارسية للاستيلاء على مصر سنة ٦١٦ م ، واستمر
الاختلال الفارسي لمصر الى سنة ٦٢٩ م حينما غزا الامبراطور البيزنطي
هرقل الدولة الفارسية فاضطر الفارس للجلاء عن مصر .

حاول هرقل بعد تغلبه على الفرس أن يعيد الى الدولة البيزنطية
وحدتها ، فأصدر (صورة توفيق Monothema) ومنع الناس من
الحديث في طبيعة المسيح ، ورأى أن يعترف الجميع بأن للمسيح ارادة
واحدة ، وحاول هرقل أن ينشر هذا المذهب الجديد في مصر ، فولى على
حكما (المقوقس) وأسند له السلطة السياسية والرئاسة الدينية معا سنة
٦٣١ م . وخير المقوقس المصريين بين أمرين : اما اعتناق مذهب هرقل
الجديد ، أو الاضطهاد . وأبى المصريون الأمر الأول ، فبدأ المقوقس
سياسة الاضطهاد ، وهرب البطريك القبطي بنيامين .

كان هرقل امبراطور الدولة الرومانية في مقدمة من وجه الرسول
صلى الله عليه وسلم دعوته اليهم لاعتناق الاسلام ، باعتباره امبراطورا
لدولة من الدولتين العظيبتين في العالم القديم . فبعث الرسول اليه برسالة
دعاه فيها الى الاسلام ووعدته بثواب الله وحذره من نضاعف الاثم عليه في
حالة الرفض .

جاء في كتاب الرسول الى هرقل : « بسم الله الرحمن الرحيم - من
محمد رسول الله ، الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .
أما بعد أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فان تتول فانما عليك آثم
اليريسين (١) . ويأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد

(١) ثنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٨ .

الا الله ولا نشارك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (١) .

بعث الرسول هذه الرسالة مع دحية بن خليفة الكلبي الى عامل هرقل في بصرى الحارث بن أبي شمر الغساني ، وعندما وصل اليه أرسله بخطابه الى هرقل ليسلمه له بيده ، وكان قد خرج من حمص في طريقه الى القدس فوافاه دحية في مدينة ايليا (بيت المقدس) وسلم اليه الخطاب وترجم له فلم يجد فيه غير دعوة الله خالصة ، فأكرم الرسول ورد عليه ردا حسنا ، ثم أخذ يستقصي عن أمره ويسأل عن خصومه حتى اهتدى الى أبي سفيان وكان اذ ذاك في تلك المدينة في تجارة له فجاء به وسأله أن يقول الصدق وتوجه اليه ببعض الأسئلة .

هرقل : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ؟

أبو سفيان : ايها الملك ما يهمك من أمره ؟
أن شأنه دون ما يبلغك .

هرقل : أنبئني عما أسألك من شأنه ولا تزدد .

أبو سفيان : سل ما بدالك

هرقل : كيف كان نسبه فيكم ؟

أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

أبو سفيان لا .

هرقل : فهل كان من آباءه ملك ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

أبو سفيان : ضعفاؤهم

(١) آل عمران : ٦٤ .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟

أبو سفيان : بل يزيدون .

هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا و نحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها (قال أبو

سفيان : ولم أتمكن من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة)

هرقل : فهل قاتلتموه ؟

أبو سفيان : نعم .

هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟

أبو سفيان : الحرب بيننا سجال ينال منا وتنال منه .

هرقل : فماذا يأمركم به ؟

أبو سفيان : يقولوا اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول

آبائكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

هرقل (للترجمان) : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو

نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم

هذا القول قبله فلو قلت نعم لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك

هل كان من آباءه من ملك فذكرت أن لا ، فلو كان من آباءه من ملك

قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس

ويكذب على الله ، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفأؤهم فذكرت

أنهم ضعفأؤهم وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة

لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته

القلوب ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر
ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع
قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو انى
اعلم انى اخلص اليه انتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه ، انطلق
لسألك !

قال أبوسفيان : فخرجت من عنده وأنا أضرب احدى يدي بالأخرى
وأقول لقد بلغ من أمر هذا الرجل حتى أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه
فى سلطانهم بالشام وما زلت مرعوبا من محمد حتى أسلمت .

ثم كتب هرقل الى صاحب له فى رومية ، وكان نظيره فى العلم يخبره
بأمر الكتاب الذى جاءه من محمد ، وسار هو الى حصص وهناك وافاه الرد
من صاحبه يوافقه فيه على رأيه . فجمع عظماء الروم فى مقصورة له وقال
لهم : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد أن يثبت ملككم فتبايعوا
هذا النبى ففروا منه وهرعوا الى الأبواب فدعاهم أن يفصحوا بالجواب
فقالوا له : أتدعوننا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ؟ فلما رأى
فقرتهم وأيس من ايمانهم قال : انى قلت مقالتي أختبر بها شدتكم
على دينكم . فسجدوا له ورضوا عنه . فبقى على دينه . وان لم يقف
موقفا معاديا للاسلام . ويدلل بعض الكتاب على ذلك بحادثتين : أوامها
حينما كتب اليه الحارث بن أبى شمر الغسانى عامه بدمشق بعد ذلك
يستأذنه بحرب رسول الله لم يأذن له بذلك وأمره أن يتعافل عنه .

والحادثة الثانية عندما بلغ هرقل ان النجاشى قد أسلم ورفض أن
يدفع له ما كان يدفعه له من الخراج لم يفضبه حتى قال البتاق ، أتدع
عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ فأجاب هرقل :
رجل رغب فى دين فاختره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى
لصنعت كما صنع .

(1) عبد الحميد الخطيب : أسنى الرسائل ص ١٢٩ .

وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانية خلال حروبها مع الفرس ، فما كانت هذه الدولة لتستطيع السكوت على اطراد انتشار الاسلام ، وقد وقعت بينها معركة فى مؤتة (١) . ولما بلغ الدولة الرومانية أن جزيرة العرب كلها قد دانت للاسلام ، ثارت الغيرة الدينية ، فقد كانوا يمنون النفس بتنصير شبه جزيرة العرب كلها ، فعمدوا العزم على وقف الاسلام الزاحف واقتضاء على الدولة العربية الاسلامية . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الدولة الرومانية تهيب جيوشا لغزو حدود العرب لتتسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين ، فعسل النبي على تجهيز حملة لسيورها الى حدود سورية ، واستنفر النبي جميع القبائل العربية للذود عن ديارهم ، فقد كان خطر الغزو يهدد بلاد العرب جميعا (٢) .

بين الرسول والمقوقس :

وجه الرسول برسالة الى المقوقس حاكم مصر الرومانى ، واسمه (جريج بن ميناء) ، وكان هرقل قد بعثه الى مصر لجمع الجزية ليستعين بها على الحروب المستمرة بين الفرس والرومان (٣) .

جاء فى كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله ورسوله محمد الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فانى أدعوك بدعوة الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم كل القبط (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٣) » .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة مع حاطب بن أبى بلتعة : فالتقى بالمقوقس فى الاسكندرية ، حيث أكرمه وأحسن استقباله ، وقال المقوقس له . قد كنت أعلم أن نيا قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه

(١) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) مولاي محمد على : محمد رسول الله ص ١٦٩ .

(٣) أرفنج ، حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢٠٧ .

الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمحاورتي ايدك .

كتب المقوقس ردا جاء فيه : « لمحمد بن عبد الله ، من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقي ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . »

وبعث المقوقس بهدايا الى الرسول ، منها جارتان شقيقتان ، هما مارية وسيرين ، وقد دخل الرسول بمارية وأتجب منها ابراهيم ، وأعطى أختها سيرين الى حساني بن ثابت فولدت له عبد الرحمن . وتذكر بعض الروايات أن هذه الهدايا ضمت بعض المنسوجات ، والعسل ، وبغلة شهباء تسمى دلل ، وبغل أشهب يسمى يعفور ، وتضيف رواية طيباً رده الرسول وقال : ارجع الى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع .

ع

الفصل الثالث الرسول واليهود

اليهود والتبشير بنبوّة محمد :

كان اليهود والنصارى قبل ظهور الاسلام يتنازعون النفوذ الأدبي في الجزيرة العربية ، ويتنافسون في كسب احترام العرب ، واعتز كل فريق بدينه ، وكان اليهود يستنصرون على المشركين في الجاهلية ويقولون : اللهم أنصرنا بنبي آخر الزمان ، ولما سألهم العرب عنه قالوا : ان نبيا قد قرب زمانه سيكون لمن اتبعه العز والنصر الى يوم القيامة ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم (١) .

وكان اليهود - وبخاصة أحبارهم - يعلمون من كتابهم أن نبيا سيبعث في آخر الزمان تكون الجزيرة العربية داره وقراره ، ويحدثنا التاريخ عن (أسعد بن كرب) ملك اليمن الذي قدم الى يثرب (المدينة المنورة بعد هجرة الرسول) ينتقم من أهلها لأنهم قتلوا ابنه غيلة . وبينما ابن كرب ماض في القتال والانتقام اذ جاءه حبران من أحبار اليهود - من بنى قريظة - عالمان راسخان في العلم ، فقالا له : أيها الملك ، لاتفضل فانك ان أبيت الا ماتريد حيل بينك وبينها ولم تأمن عليك عاجل العقوبة . ودهش الملك وسأل الحبرين : ولم ذلك؟! فقالا: ان المدينة - أيها الملك - ستكون مقر هجرة نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان ، تكون داره وقراره . وتأثر الملك بعبارات الحبرين فانصرف عن المدينة .

وتذكر الروايات العربية أن عبد المطلب ، جد الرسول ، رحل الى اليمن ، وهناك رآه أحد أحبار اليهود ، وفحص هذا منخرجه ، ثم قال : أنا أشهد أن في احدي يديك ملكا وفي الأخرى نبوة ، وانما نجد كلا من

(١) انظر كتاب (عبد المطلب جد الرسول) ص ١١٧ .

الملك والنبوة في بنى زهرة فكيف ذاك؟ وأشار هذا اليهودي على عبد المطلب بالزواج من بنى زهرة، ولذا تزوج عبد المطلب من هالة، وزوج ابنه عبد الله من آمنة، وكان زواج الأب والابن في مجلس واحد، والعروسان من بنى زهرة (١).

كما تذكر هذه الروايات أيضا أنه عند مولد محمد صلى الله عليه وسلم، كان في مكة يهودي يدعى (يوسف)، فقال لبعض وجوه قريش: هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلم. قال: احفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبي الأمة الأخيرة، وهو منكم على كتفيه شامة فيها شعيرات متواترات كأنهن عرف فرس، وتلك هي خاتم النبوة. وتوجه الجميع الى بيت آمنة وقالوا لها: أخرجي إلينا ابنك، فأخرجته، وكشفوا عن ظهره، فرأى تلك الشامة، فخر مغشيا عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك مالك؟! قال: ذهبت النبوة من بنى إسرائيل!!

وتروى الروايات أن عبد المطلب كان قد توجه الى اليمن على رأس وفد لتهنئة سيف بن ذي يزن الحسيري لنجاحه في اجلاء الأحباش عن بلاد اليمن، فقال سيف لعبد المطلب: ولد ولد اسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، يخمد النيران (أي عنيران المجوس)، ويكسر الأوثان، فاحتفظ بابنك، واحذر عليه من اليهود فأنهم أعداؤه، واطو ما ذكرته لك عن قريش لئلا تدخلهم النفاسة فينصبون له الجبال. وهم فاعلون ذلك وأبناءؤهم، ويشرب دار ملكه، واستحكام أمره، وموضع قبره.

كان اليهود العرب يتوقعون ظهور نبي، وكانوا يتوعدون به الوثنيين، ولكنهم كانوا يظنون أن النبي يظهر من بين بنى إسرائيل. وحينما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة الى يثرب قال لليهود بنى قينقاع: «يامعشر يهود، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم»

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦، القرظي: امتناع الاسماع ج ١ ص ١٠٤.

ونحن نجد في القرآن الكريم آيات مباركة تؤيد فكرة التبشير بنبي جديد ومن هذه الآيات الكريمة : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

عداء اليهود للرسول والاسلام :

كان اليهود مؤمنين بصدق رسالة محمد ، فقد كانوا دائما يتنبأون بنبي جديد ودين جديد . بل كانت نبوءاتهم هذه عاملا ساعدا على انتشار الاسلام ، فقال عاصم بن عمر بن نقادة : (ان مما دعانا الى الاسلام ، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، أنا كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه تقارب الزمان بنبي يبعث الآن تقتلكم معه قتل عاد وارم ، فكنا كثيرا ما نسمع منهم ذلك ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فأما به وكفروا .

صور القرآن الكريم تنبىء اليهود بالرسول ثم تكذيبهم له في هذه الآيات المباركة : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) (١) .

عارض اليهود الاسلام ومحمدا منذ اللحظة الأولى ، فقد رأوا في محمد ودينه منافسا جديدا يوشك أن يقضى على نفوذهم وعلى نفوذ النصارى جميعا ، وأن ينزع من الفريقين لواء الزعامة الدينية الذي يتجاذبونه ، فقد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش ، فهو لذلك أقرب الى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعا

(١) سورة البقرة آية ٨٩ .

بافتخارهم عليهم بالعلم وبالتوراة . وكتب بنى اسرائيل ، لذلك كان أهل المدينة أسرع الى قبول الاسلام (١) .

صار اليهود في عداوة مع الرسول على غير هدى ، وأخذوا يصرحون بالشك في رسالته لا لشيء سوى أنه عربى ، والنبوة في نظرهم مقصورة عليهم ، ولأنه أيضا بعث في الحجاز ، والنبوة في رأيهم انما تكون في الشام موطن الأنبياء (٢) .

لما رأى اليهود ازدياد عدد المسلمين وانتشار الاسلام يوما بعد يوم وأن العرب يقبلون على محمد والاسلام ، وأن جميع مصالح اليهود القائمة على أرستقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه ، أصبحت مهددة باستقرار الأمر لهؤلاء العرب الأمين . لما رأوا ذلك أيقنوا أن لاسبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم فى الجزيرة العربية الا بالقضاء على محمد وأتباعه (٣) .

وهكذا كان اليهود ينظرون الى الرسول والى الاسلام بعين الخوف منذ اللحظة الأولى من هجرته من مكة الى يثرب (المدينة) . ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فأخذوا يكيّدون للاسلام والمسلمين بالدس والارجاف ، ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون وما لا يعلمون . واذا سئلوا عن شيء مما فى كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق الباطل ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الاسلام ، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة (٤) .

صور الله سبحانه وتعالى موقف اليهود فى آياته الكريمة ، فمنها :
(بثسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) (٥) . ومن هذه الآيات المباركة أيضا :

(١) انظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٢٢ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٤ .

(٣) انظر كتابنا (محمد والقومية العربية) ص ١٠٧ .

(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام - ج ١ ص ١٢٢ .

(٥) سورة البقرة ٩٠ .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شيء قدير) (١) .

موقف الرسول من اليهود :

لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة حرص على تحقيق أحد أمرين : اما أن يجتذب اليهود المقيمين بها الى الاسلام ، أو أن يكتسب صداقتهم واخلصهم مع بقائهم على دينهم ، وتحقيقا لهذه الغاية ، كتب كتابا بين فيه ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

جاء في هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لا يتحجر على ثأر جرح (٤) . وانه من فتك وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .. وان من تبعنا من يهود فان له النصرة والأسوة (٢) غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن يهود بنى عوف آمنة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأنفسهم لا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع (٣) الا نفسه وأهل بيته ، وأن يهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى بطانة يهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يتحجر على ثأر جرح (٤) وأنه من فتك فينفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم .. الخ » (٥) .

وهذا الكتاب أبطل ما كان بين أهل المدينة قبل الاسلام من المعاهدات الظالمة التي تبث روح الفرقة بين أهلها . فقد أراد الرسول أن يجعل من المدينة (يثرب) وطنا واحدا للعرب واليهود ، وأن يجعل من الفريقين أمة واحدة تجتمعها جامعة الوطن ولا يفرق بينها اختلاف في الدين فيزول ما كان بينهم من شرور وآثام وتبطل حروبهم ومنازعاتهم ويرفرف علم الاخاء

(١) سورة البقرة ١٠٩ .

(٢) الاسوة : المساواة .

(٣) لا يوقع : لا يهلك .

(٤) أى لا يبلثكم جرح على نار .

(٥) انظر نص الكتاب في سيرة ابن هشام .

بينهم جميعا ، فلا ينظر العرب الا الى هذا الوطن ، وينسون فيه أنهم عرب ، ولا ينظر اليهود الى هذا الوطن ، وينسون فيه أنهم يهود (١) .

فتحت هذه المعاهدة فتحا جديدا في السياسة الدينية ، فأقرت حرية العقيدة وحرية الرأي ، وحرمة الوطن ، وحرمة الحياة ، وحرمة النفس ، وحرمة المال ، ولم يحدث كل هذا قبلها فيما بين أهل الأديان ، بل كان هناك الاضطهاد والظلم والتفرقة في الحقوق ، والتفاوت بين الأفراد والطبقات .

حاول الرسول أن يجذب اليهود الى الاسلام ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التامة في اقامة شعائرهم الدينية وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية ، ولكنهم قابلوا صنيعه وكرمه بالجحود والعدو ، وشعر الرسول بأنه لاجدوى من جذب اليهود الى الاسلام .

لم يخلص اليهود قط للمعاهدة التي وقعوها مع الرسول ، ولم يفوا بوعودهم مطلقا ، فما أبرموا هذه المعاهدة الا ليخدعوا المسلمين ويدبروا في السر ما يفسدون به أمرهم ، وقد عاشوا بين العرب في الجاهلية ما عاشوا بينهم ولقوا من حسن جوارهم ما لم يلقوه من غيرهم فلم ينسهم هذا بغضائهم . فكيف يخلصون لهم ، وقد صاروا الى دين جديد ينهض بهم ، وكيف يرتفعون الى هذه السياسة التي تسمو على الفوارق الكنسية ، وهم لا يعرفون الا جنسهم ودينهم ، وجبلوا على الجشع والطمع ، فلا يهمهم الا أمر المادة ، ولا يهمهم أمر الروح وفضائلها .

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام كريما في معاملة اليهود ، الى أبعد حدود الكرم ، فكان يصابرهم ويصبر عليهم ، ويفض الطرف عن كيدهم ويحترم دينهم ، ويساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات ، وكان لا يعاتبهم الا بمقدار ما يكف أيديهم عنه ، وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم وصفوة القول أن معاملة الرسول اياهم كانت أيسر وأخف من معاملته لقريش وغيرها (٢) .

(١) الصمدي : السياسة الاسلامية ص ٥٦ .

(٢) انظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٢٥ .

الصراع السلبي بين المسلمين واليهود :

بدأ يهود المدينة ببث بذور العداة والخصام بين المسلمين في المدينة، فكانوا يثيرون البغضاء والأحقاد بين المهاجرين والأنصار ، ويوقعون بين فريقى الأنصار والأوس والخزرج فيذكرونهم بما كان بين القبيلتين من معارك ، وخاصة يوم بعث الذى انتصرت فيه الأوس على الخزرج . كما أعلن اليهود تأييدهم لقريش وحرصوهم على قتال الرسول ، وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش في غزوة بدر ، وكان اليهود اذا سئلوا عن شيء مسا فى كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق الباطل لينالوا رضا المشركين بالكيد للإسلام ، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة ، وأنزل الله عز وجل فى الآية الكريمة : (بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) (١) .

استمر اليهود فى حربهم السافرة حينا والخفية أحيانا ، ضد محمد والمسلمين . وانضم اليهم رجال من الأوس والخزرج ممن بقوا على جاهليتهم وكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، رجال امتلأت نفوسهم حقدا على محمد ، فتظاهروا بالإسلام وقلوبهم مليئة بالكفر والنفاق ، وكان هواهم مع اليهود ، لأن اليهود يكذبون محمدا وينكرون رسالته ، واذن فان الفرصة مواتية لليهود أن يجدوا فى هؤلاء المنافقين المطايا التى يصلون بها الى أغراضهم ويعكرون الجو على محمد والمسلمين (٢) .

على أن كيد اليهود لمحمد والمسلمين لم يقتصر على تحريض أحبارهم المنافقين ، وبث روح الكراهية فى المدينة ضد الرسول ودينه ورسالته بل لقد سلكوا طرقا أخرى خبيثة ملتوية ، فأرأينا بعض أحبارهم يتظاهرون بالإسلام نفاقا ورياء . وصور الله عز وجل موقفهم فى آيات كريمة : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله

(١) سورة البقرة آية ٩٠ .

(٢) برانق والمحبوب : محمد واليهود ص ٢٩ .

والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (١) .

حذر الله سبحانه وتعالى اليهود أن ينقضوا المعاهدة التي عقدوها مع الرسول فقال عز وجل : (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون) (٢) .

اكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة من الصراع السلبي برد كيد أولئك اليهود وافساد محاولاتهم التفريق بين المسلمين ، وتشكيكهم فى دين الاسلام ، وقد جرى فى هذا على السياسة التى استتها فى مطاولة أعدائه الى أن ينقطع عذرهم ولا يكون هناك شئ فى أخذهم بالحزم والشدة ، ويكونوا هم الذين جنوا على أنفسهم .

لاشك أن هؤلاء اليهود كانوا خطرا عظيما على الدعوة الاسلامية ، اذ كانوا يعملون على اشاعة الفوضى بين المسلمين ، ولذا أنزل الله عز وجل الآية الكريمة : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ، فهم ان أخفقوا فى شق عصا الطاعة على الرسول فان تخطئهم الوسيلة الى زعزعة العقيدة فى قلوب المؤمنين بتحنيهم الفرصة ، فان لم تحن اختلقوها ، كما صنعوا عند تحويل قبلة المسلمين من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم الى مقام ابراهيم مرة أخرى ، فقد زعم اليهود أن عقيدة المسلمين غير ثابتة (٣) ، وعبر القرآن الكريم عن هذا الأمر فقال : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) .

(١) سورة البقرة آية ٨ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة آيات ٤٠ - ٤٤ .

(٣) محمد عطا : الدعوة التحريرية الكبرى ص ١١٩

شن اليهود حربا عنيفة على المسلمين ، فقد حاولوا قتل الرسول وحرصوا الكفار على قتال المسلمين وحزبوا الأحزاب عليهم ، وتقضوا عهد المسلمين ، فرأى محمد والمسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم كيد اليهود ، واضطروا الى مقاومتهم ومحاربتهم ، لأن فرديتهم العدوانية كانت تعارض انسانيته ، كما كانت هذه الفردية تقف حائلا أمام الوحدة الاسلامية والعربية (١) .

الصراع الايجابي بين اليهود والمسلمين :

لم يكن اليهود في الحجاز متحدين ، ولم تكن بينهم رابطة سياسية تجمعهم ، بل كانوا قبائل متفرقة ، فلما أظهروا عداوتهم للمسلمين لم يكونوا جبهة واحدة تقف أمامهم ، فحاصرهم الرسول قبيلة بعد قبيلة وأجلاهم عن المدينة ، ثم أخذ يتتبع حركاتهم بعد أن اجتمع شملهم في خيبر ، فسار اليهم وأضعف من شوكتهم (٢) .

غيرت موقعة بدر وضع محمد تماما ، فقد أصبح القائد المظفر لجماعة تزداد يوما بعد يوم . وسرعان ما تحولت كثير من القبائل العربية الوثنية الى الاسلام ، وأصبح محمد الآن حاكم المدينة ، كما أصبح مشرعا للقوانين ، وكان من أهم المشكلات التي واجهها الرسول تحديد موقفه من اليهود وكانوا يؤلفون ثلاث قبائل قوية (٣) .

لم تشر معاملة محمد الطيبة لليهود ، فقد ظلوا غير مؤمنين بالاسلام كما عاملوا الرسول والمسلمين بقسوة وجفاء . ونظمت أسماء بنت مروان، الشاعرة اليهودية ، كثيرا من القصائد في هجاء الرسول ، كما أنشد الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف عدة قصائد في مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم في تلك المعركة . بل يبلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته الى المدينة وفي حضور بعض المسلمين ،

(١) أنظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٢٥ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٥ .

(٣) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٥٧ .

مما أثار غضب الرسول . فقال يوما ، من لى من ابن الأشرف ؟ وبعد عدة أيام دفع كعب حياته ثمنا لقصائده فقد قتله بعض الأنصار من قبيلة الأوس .

اولا : بنو قينقاع :

كانت قبيلة بنى قينقاع أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع الإيجابي . وكانت هذه القبيلة تسيطر على شمال الحجاز ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل بينه وبينهم أمانا ، وشرط عليهم شروطا منها ألا يظاهروا عليه عدوا . فلما قدم الرسول من بدر ، أظهر بنو قينقاع البغى والحسد وقضوا العهد الذى عقده معهم (١) . فنزلت الآيات الكريمة تخاطب الرسول (واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين) ، فجمعهم الرسول بسوق بنى قينقاع وقال : « يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل موقعة قريش فوالله انكم لتعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم » ، فقالوا « يامحمد ، لايفرنك من لقيت ، انك قهرت قوما أغمارا وانا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا » (٢) .

وهكذا أبدى بنو قينقاع عداوتهم ، واستعدادهم للقتال ، ثم حدث ما أثار غضب الرسول على بنى قينقاع ، فكان هذا البحث شرارة الحرب فقد حدث أن فتاة عربية من قبيلة عربية تجاور المدينة كانت قد اعتادت أن تجلب اللبن الى المدينة ، وكانت يوما فى الحى الذى يسلكه بنو قينقاع وقد ضربت خمارها فوق وجهها كما أمرتها تعاليم الاسلام ، وباعت الفتاة بضاعتها ، ثم اتجهت الى أحد الصاغة اليهود تشتري حلية ، فتعرض لها بعض فتيان اليهود ، فمضوا يتغامزون عليها ويسخرون بخمارها ويهزءون من الاسلام وتعاليمه . وحاول بعض شباب المسلمين فى السوق أن يكفوا شباب اليهود عن الفتاة وعن الهزء بالاسلام ، ولكنهم لم يحفلوا . وفى هذه الأثناء كان الصائغ اليهودى قد أثبت طرف الثوب الى مقعدها بمسار صغير ، وعندما حاولت الفتاة أن تنصرف تعرى ظهرها ثم تعثرت

(١) ابن سعد : كتب الطبقات الكبير ح ٢ ص ٦٨ .

(٢) ابن هشام ح ٢ ص ٤٢٦ .

ووقعت على الأرض وقد انحسر ثوبها عن وجهها وتعرت . وتعمالت
ضحكات الشباب اليهود . ووقفت الفتاة وسطهم حائرة مضطربة . وشاهد
أحد المسلمين موقف الفتاة الحرج ، فتقدم شاهرا سيفه وأغمده في صدر
الصائغ اليهودي ، فهجم الشباب اليهودي على المسلم وقتلوه ، واندفع
المسلمون بأسلحتهم كما تزود بنو قينقاع بسلاحهم ، ورأى الرسول أن
يقاتل هؤلاء اليهود ، فقد نقضوا العهد الذي عقد معهم (١) .

لم يكن لبني قينقاع حصون ولا معقل ، وإنما كانوا تجارا وصاغة ،
وهم حفاة لعبد الله بن أبي بن سلول ، زعيم المنافقين ، فسار اليهم الرسول
وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا الى النزول على حكمه الذي
تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له ، وتكون النساء والذرية لهم ثم أخلى
سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبي ، وأمرهم بالجلء عن المدينة
فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات (٢) .

ثانيا : بنو النضير :

ثم جاء دور قبيلة بنى النضير ، فقد فرحت القبائل اليهودية لما نال
المسلمين في موقعة أحد من قريش مما شجعهم على الغدر بالمسلمين . قدم
على الرسول وفد من مدينتي (عضل) و (القارة) يعلنون اسلامهم
ويطلبون من الرسول أن يبعث معهم نفرا من الصحابة يفقهونهم في الدين
ويعلمونهم شرائع الاسلام . فبعث الرسول معهم ستة من المسلمين ، ولكن
خلال الرحلة ، عند مرورهم بمنطقة الرجيع (٣) غدروا بالمسلمين وقتلوا
أربعة منهم ، وأسروا اثنين وحملوهما الى مكة حيث سلموها الى القرشيين
فقتلوهما .

وتكررت هذه الخيانة ، فقد قدم بعض أهل نجد على الرسول
وتظاهروا برغبتهم في الاسلام ، وطلبوا من الرسول أن يمد لهم ببعض
المسلمين ليحموهم من أعدائهم ، فبعث الرسول بجماعة من المسلمين

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٧ .

(٢) أذرعات : مدينة بإطراف الشام قبل الحجاز .

(٣) القريزي : امتاع الاسماع ج ١ ص ١٠٥ .

يبلغ عددهم أربعين مسلما من الأنصار وكانوا يعرفون بالقراء لحفظهم القرآن الكريم .

وعند بئر مؤتة ، على مسيرة أربعة أيام من المدينة ، هاجم بنو سليم المسلمين وقتلواهم عن آخرهم سوى رجل واحد وهو عمرو بن أمية الذي استطاع الفرار وهرع الى المدينة وفي طريقه اليها التقى برجلين يهوديين من بنى عامر ، غير مسلحين فظن أنهما ينتميان الى أعدائه وأراد أن يأخذ بشأراخوانه المسلمين القتلى ، فقتل هذين اليهوديين وطالب بنو عامر بالدية . ورأى الرسول أن يقوم بنو النضير ، وهم يهود أيضا . بدفع الدية لبنى عامر ، فقد كانوا على جانب كبير من الثراء ، ويمتلكون حصنا يسمى (زهرة) على بعد ثلاثة أميال من المدينة . وكان بنو النضير قد عقدوا مع الرسول حلفا عند قدومه الى المدينة . يقضى بالتعاون على أداء الدية ، ودعا الرسول الى عقد اجتماع للتباحث في هذا الامر ، وتوجه الرسول الى هذا الاجتماع يصحبه أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وبعض المسلمين الآخرين ، وجلس الرسول الى جنب جدار من بيوت النضير في انتظار أن يأتوه بالمال . ولكن بنى النضير كانوا قد تأمروا على الرسول واتفقوا على أن يقوم أحدهم بالقاء حصرا من سطح هذا البيت على الرسول فيقتله ولكن الله سبحانه وتعالى أعلم رسول الله بالمؤامرة فعاد الى المدينة دون أن يعلم أحد بذلك ، ثم لحق به أصحابه (١) .

أثارت هذه المؤامرة غضب الرسول وسخط المسلمين ، فطلب الرسول من بنى النضير الجلاء عن المدينة وأمهلم عشرة أيام يحاربهم بعدها اذا لم يخرجوا ، ولكن عبد الله بن أبى الخزرجى أرسل اليهم سرا يعدهم بمساعدته لهم . ولكنه لم يستطع أن يبر بوعده ، كما أن بنى قريظة لم تساعدهم . وحاصر الرسول بنى النضير ، وألقى الله الرعب في قلوبهم ، ورأى بنو النضير عجزهم عن الصمود في قتال المسلمين ، فطلبوا الصلح بعد حصار دام خمسة عشر يوما .

(١) سيرة ابن هشام - ٢ ص ١٩١ .

وصالحهم الرسول على ألا يتعرض لأحد منهم بسوء ، وأن يجلووا
عن المدينة ، ولهم ما حملت الأبل من أموالهم ومتاعهم ، ورسول الله
أرضهم ونخلهم وأسلحتهم (١) .

وغادر بنو النضير المدينة ، يصحبهم ستمائة بعير نقلوا عليها أحسن
ما في بيوتهم ثم خربوا ديارهم بأيديهم ، ورحل بعضهم إلى الشام ، ونزل
معظمهم بمدينة خيبر وهي مدينة يهودية حصينة على مسيرة أيام قليلة من
المدينة (٢) .

صور الله سبحانه وتعالى خروج بنى النضير من المدينة وتخریبهم
أيوتهم في هذه الآيات الكريمة : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض
وهو العزيز الحكيم ، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من
ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم
من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ،
يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ، ولولا
أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار ،
ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب
ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي
الفاسقين) .

كان بنو النضير على جانب كبير من الثراء ، فقد غنم المسلمون كثيرا
من الغنائم . وكانت هذه الغنائم مما أفاء الله على رسوله أي أنها خالصة
له يضعها حيث يشاء (٣) كما جاء في القرآن الكريم : (ما أفاء الله على
رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (٤) . فدعا الرسول
الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وانزلهم إياهم في منازلهم ، ثم قال

- (١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠ - ٢١ .
(٢) اليعقوبي ح ٢ ص ٢٨ .
(٣) سيرة ابن هشام ح ٣ ص ١٩٤ .
(٤) سورة الحشر آية ٧ .

لهم : « ليس لاخوانكم من المهاجرين أموال ، فان شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وان شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » فقالوا : بل قسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت . فقسم الرسول ما آفاه الله عليه من أموال بنى النضير على المهاجرين دون الأنصار (١) .

ثالثا : بنو قريظة:

بعد اجلاء بنى النضير ، لم يبق فى المدينة من القبائل اليهودية سوى بنى قريظة ، وكانوا يملكون حصنا منيعا قرب المدينة . وقد تقضوا عهدهم للرسول ، اذ تحالفوا مع أعدائه من المشركين الذين قدموا لغزو المدينة فى غزوة الأحزاب (أو الخندق) (٢) . وأدرك الرسول حرج الموقف ، فكان عليه أن يصد القرشيين وحلفاءهم عن عبور الخندق ، وكان عليه فى الوقت نفسه أن يعمل على تجنب هجوم بنى قريظة وعلى حفظ الأمن داخل المدينة .

وفى ذلك الحين ، جاء الى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض عليه أن يكلفه بأى عمل يقوم به فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة . فقال الرسول له : خذل عنا فان الحرب خدعة . فذهب نعيم الى بنى قريظة وحذرهم ان هزمت قريش نجت بنفسها وتركتهم تحت رحمة محمد ، ثم نصحهم ألا يطمئئوا الا اذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرفهم . ثم ذهب نعيم الى كل من قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد ، واتفقوا معه على أن يخذعوا له قريشا وغطفان فيأخذون بعض أبناء القبيلتين كرهائن ثم يقدمونهم الى محمد ليضرب أعناقهم . واستعجبت قريش وعد قريظة لها ، فكان جوابهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

وقد فعلت هذه الواقعة فعلها فى الأحزاب ، وتأكدت قريش وغطفان من غدر بنى قريظة بهم ، فعزموا على الرحيل . وبعد جلاء المشركين ، تفرغ

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤ .

(٢) اليعقوبى ح ٢ ص ٢٩ .

الرسول لعقاب بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم ، وحاصروهم الرسول خمسة وعشرين يوماً ، حتى نزلوا على حكمه .

وتم للرسول بالقضاء على بنى قريظة السيطرة على المدينة ، وأصبح يأمن فيها على نفسه بعد أن تخلص من العناصر المناوئة ، كما انتفع فقراء المسلمين بصفة خاصة من أنصار ومهاجرين بتلك الأراضى والمنقولات التي كان يمتلكها اليهود .

رابعاً : يهود خيبر

على مسيرة خمسة أيام من المدينة تقوم مدينة خيبر ، حيث يسكن اليهود الذين تميزوا بالثراء نتيجة اشتغالهم بالتجارة والزراعة . فقد كانوا يزرعون أرضهم بالحبوب وأشجار النخيل ويمتلكون كثيراً من قطعان الأغنام وعدداً من الحصون ، وبلغ تاريخ تلك المدينة من القدم بحيث أكد أبو الفدا ، المؤرخ العربى ، أن موسى بعد عبوره للبحر الأحمر أرسل جيشاً لقتال العمالقة فى يثرب وخيبر .

أصبحت خيبر ملجأ لليهود بعد أن أجلاهم الرسول عن المدينة ، واستقروا هناك يتطلعون الى الانتقام ، وأدرك الرسول أهدافهم . وكان الرسول قد بدأ يقاتل أعداء الاسلام فرأى أن يهاجم مدينة خيبر .

وفى مطلع السنة السابعة من الهجرة ، خرج الرسول من المدينة على رأس جيش من المسلمين بلغ ألفاً ومائتين من الرجال ومائتين من الخيالة . وصحبه أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وغيرهم من كبار الصحابة (١) .

كان يهود خيبر اذ ذاك يقيمون فى حصون على نحو ما كان يفعل بنو جلدتهم يثرب ، ولم يدر بخاطرهم أن الرسول سيفزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم . لكن الرسول ما لبث أن نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم ، بحيث لم يستطيعوا أن يضموا اليهم حلفاءهم .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٢ .

فلما أصبح الصباح وشرعوا يتأهبون لأداء أعمالهم فوجئوا بمشاهدة المسلمين أمامهم فذعروا وولوا هاربين الى حصونهم . ثم دار القتال بين الفريقين وهاجم المسلمون حصون اليهود حصنا بعد حصن ، وتمكنوا من فتح بعضها عنوة ، كما أخذوا البعض الآخر صلحا .

أصبحت الحصون التي فتحت عنوة ملكا للمسلمين . أما ما أخذت صلحا فقد اتفق الرسول مع أصحابها على أن يبقوا بالأرض يزرعونها مناصفة ، النصف للمسلمين والنصف الآخر لليهود (١) .

لما سمع أهل فدك ، وهي مدينة قرب المدينة بتلك المعاملة الحسنة التي عامل بها اليهود أهالي حصون خيبر ، أرسلوا اليه يطلبون الصلح ، فصالحهم وصاروا يعطونه نصف غلة أرضهم (٢) وأصبحت فدك خالصة له لأن المسلمين لم يوقفوا عليها بخيل ولا ركاب ، أما مغنم خيبر فقسمت على أهل الحديبية . قال الله تعالى (٣) : (وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه) (٤) .

كان الاستيلاء على مدينة خيبر من أعظم انتصارات المسلمين ، وحينما تقدم الرسول الى خيبر وشاهد أسوارها العالية الحصينة والتلال الصخرية التي تحميها ، توجه بصلاته لله بالشكر (٥) .

وكان لانتصار المسلمين في خيبر أهمية خاصة ، فقد ترتب عليه أن أصبحت لدولتهم الناشئة أراض مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج كما أدى الى وجود جماعة من اليهود يضمها السلطان السياسي للدولة الاسلامية . وهكذا وحدت تلك الدولة لأول مرة (أهل ذمة) . وقد سمح لهؤلاء الذميين بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضهم وفق الشروط التي تؤخذ عليهم (٦) .

- (١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٢ .
- (٢) القرظي : امتناع الاسماع ح ١ ص ٢١٢ - ٢٢٨ .
- (٣) سورة الفتح آية ٢٠ .
- (٤) بقصد عز وجل بهذه (خيبر) .
- (٥) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٦٩ .
- (٦) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١٢٠ .

وفوق ذلك ، فقد استطاع الرسول أن يقضى على فردية اليهود ،
وأن يجعلهم رعايا في الدولة العربية الاسلامية الناهضة ، يدينون بالطاعة
لها ولرئيسها العربي ، ترفرف عليهم جميعا راية تسامح الاسلام .

النصل الرابع

أحكام أهل الذمة في الإسلام

تعريف أهل الذمة :

الذمة في اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، وأصبحوا في ذمة المسلمين . وكانت تقاليد الاسلام تقضى بأنه اذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام ، فمن استجاب منهم طبقت عليه أحكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، كقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملك المعترف بها وهي : المسيحية ، واليهودية ، والمجوسية ، والسامرية ، والصائبة .

يوضح معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام للمسيحيين عمده لأمير (أبله) المسيحي ، فقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وهذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد والنبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » (١) .

ولما تم للعرب من المسلمين فتح الأمصار رحب بهم أهل الذمة ، فقد أملوا في الخلاص من الانقسامات الدينية والمذهبية ، والخلاص من ظلم

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨١ .

حكامهم ، والاعفاء من الخدمة العسكرية ، والتمتع بالحرية الدينية التي يسمح بها الاسلام مقابل دفع الجزية .. فقد دعا العرب المسلمون أهل الذمة الى الاسلام ، وأعلنوا أن المحارب اذا أسلم يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ولذا دخل في الاسلام جموع هائلة من أهل الذمة ، وآمن بعضهم أن توفيق العرب المسلمين في الفتوحات هو مظهر من مظاهر رضاء الله عليهم ودليل على صدق دينهم (١) . وأما من بقى من أهل الذمة على دينه ، فقد عاملهم العرب بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب ، وكانت كتب الصلح مرآة صافية انعكست عليها صور كثيرة لتسامح المسلمين .

حقوق وواجبات أهل الذمة :

كان على أهل الذمة في الدولة الاسلامية واجبات ولهم في مقابلها حقوق . أما الواجبات : فكان على أهل الذمة ان يدفعوا الجزية ، مع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين .. وكان يشترط على أهل الذمة في عقد الجزية شرطان ، أحدهما مستحق والآخر مستحب . ويشمل الشرط المستحب ستة أمور يجب على أهل الذمة تحقيقها ، فيجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القدح في الاسلام ، وألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا بنكاح ، وألا يحولوا مسلما عن دينه ، وألا يعينوا أهل الحرب .. أما الشرط المستحب فيشمل أيضا أموراً ستة ، فعليهم لبس الغيار وشد الزنار ، وأن تكوز مبانيهم أقل ارتفاعاً من مباني المسلمين ، وألا يسمعوا المسلمين أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو اظهار الصلبان والخنازير ، واخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم ، وعدم ركوب الخيل مع السماح بركوب البغال والحمير (٢) . وكان على أهل الذمة ألا يحدثوا بيعة أو كنيسة ، ولكن يجوز بناء ما تهدم من بيعة وكنائسهم القديمة (٣) . كما كان على فلاحى أهل الذمة العناية بالطرق والجسور والأسواق والارشاد وضيافة أبناء السبيل (٤) .

(١) زنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٧٥ .

(٢) لياوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٤) الطبرى ح ٤ ص ١٨٤ .

أما حقوق أهل الذمة ، فهي الكف عنهم والحماية لهم ، ولأهل العهد الأمان على نفوسهم وأموالهم (١) . وفي الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تتم عن تسامح وعطف وكرم . فقد كان أهل الذمة لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية ، بينما هم معفون من الصدقات (٢) وكانت الجزية تقابل ما يدفعه المسلم من صدقة (٣) . وأعفى الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان (٤) .

وكثيرا ما نقض بعض أهل الذمة ما شرطه المسلمون عليهم ، فكان المسلمون لا يقتلونهم أو يغنموا أموالهم أو يسبوا ذراريهم ، بل كانوا يكتفوا بطردهم من بلاد المسلمين (٥) . وعاش المسلمون مع أهل الذمة جنبا الى جنب ، فقد اشتركوا مع المسلمين في تخطيط المدن الاسلامية الجديدة وعاشوا جميعا في سلام .

الجزية : أسباب فرضها ، ومقدارها :

فرضت الشريعة الاسلامية على أهل الذمة دفع الجزية ، ولم يكن ذلك - كما يذكر بعض المستشرقين - عقابا لهم على عدم اعتناقهم الاسلام . بل كانت الجزية ضريبة عادلة تماما في كل صورها . والحياة في كل مجتمع في كل عصر تقوم على أساس الحقوق والواجبات ، وقد تمتع أهل الذمة بكثير من الحقوق وعاشوا في ظل التسامح الاسلامي ، فكان عليهم أن يقوموا ، مقابل هذه الحقوق العديدة ، ببعض الواجبات . كما أن كل فرد في أي دولة في أي عصر ، لا بد أن يساهم بجزء من المال ، تقوم الحكومة بجمعه للقيام بما يحتاجه المجتمع من خدمات ومرافق . وكان المسلم عليه كثير من الواجبات ، فهو يدفع الزكاة ، ويقوم بالخدمة العسكرية . ولذا كان على الذمي أن يؤدي ضريبة أخرى اذا كان معفى من تأدية الزكاة لأنه

- (١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٢٧ .
- (٢) ابن آدم : الخراج ح ١ ص ١٠ .
- (٣) الطبري ح ٤ ص ١٩٨ .
- (٤) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ - ٧٠ .
- (٥) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٠ .

غير مسلم ، كما كان الذمی معنی أيضا من أداء الخدمة العسكرية ، ويتمتع بحماية المسلمين وتسامحهم ، ويمارس سائر الأعمال والوظائف في حرية .

واعترف أحد المستشرقين بهذه الحقيقة ، وهو المؤرخ (توماس أرنولد (۱) فقال : لم يكن الغرض من فرض الجزية على أهل الذمة : كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام ، وانما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة ، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول دياتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش : في مقابل الحماية التي كفلتها لهم الدولة الاسلامية .

ويرى الماوردي (۲) ، في كتابه الأحكام السلطانية ، أن دفع غير المسلمين الجزية كان مقابل الكف عنهم وحمايتهم ، وما تمتعوا به من حقوق كثيرة .

لم يكن مقدار الجزية ثابتا أو محددًا ، فقد اختلف باختلاف الزمان والمكان . فقد كانت معاهدات الصلح بين العرب والمسلمين وأهل الذمة تحدد هذا المقدار ، فان لم تحدد هذه المعاهدات فكانت العادة المتبعة فرض الجزية تبعا لمقدار دخل كل فرد .

حددت شروط الصلح في معظم بلاد الشام ومصر مقدار الجزية . جاء في كتاب (الأموال) لأبي عبيد (۳) : « ... عن نافع عن أسلم عن عمر : أنه ضرب الجزية على أهل الشام ، على أهل الذهب أربعة دنائير ، وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين ، وثلاثة أقساط زيت ، لكل انسان كل شهر . وعلى أهل الورق أربعين درهما ، وخمسة عشر صاعا لكل انسان ... ومن كان من أهل مصر فاردب كل شهر لكل انسان » .

جاء في معاهدة الصلح التي عقدها عمرو بن العاص مع الروم بعد نجاحه في فتح الاسكندرية ، أن لأهل الذمة في مصر حرية ممارسة شعائرهم

(۱) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ۷۹ .

(۲) الاحكام السلطانية ص ۱۳۷ .

(۳) الاموال ص ۲۹ .

الدينية مقابل دفع دينارين سنويا ، وأعفى من الجزية النساء والأطفال والشيخ ورجال الدين ، وكتب عمرو للأقباط عهدا بحماية كنيستهم .

بعد استقرار المسلمين في الأمصار المفتوحة ، فكر عمر بن الخطاب في وضع نظام ثابت موحد للجزية يتبعه العمال في سائر الأمصار ، وليمنع اجتهاد الولاة (١) ، فجعل عمر الجزية على الرجال ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما ، وعلى الفقير اثنا عشر درهما (٢) . أما الموسر فهو صاحب الحرفة المريحة مثل الصيرفي والبزار وصاحب الضيعة والتاجر والطبيب ، أما المتوسط الحال فهو الأقل كسبا ، أما الفقير فهو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والاسكافي وما شابههم (٣) .

واتبعت هذه القاعدة في بلاد العراق وبعض مدن الشام وغيرها من الأمصار . قال أبو عبيدة في كتابه (الأموال) (٤) : « وهذا عندنا مذهب الجزية والخراج ، انما هما على قدر الطاقة من أهل الذمة ، بل حمل عليهم ، ولا ضرار بفيء المسلمين ، ليس فيه حد مؤقت .. ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان فرضه على أهل اليمن دينارا على كل حال ، وقيمة الدينار يومئذ انما كانت عشرة دراهم أو اثني عشر درهما . فهذا دون ما فرض عمر رحمه الله على أهل الشام وأهل العراق ، وانما يوجه هذا منه أنه زاد عليهم بقدر يسارهم وطاقتهم » .. أي أن مقدار الجزية اختلف باختلاف ظروف المكان ، وأحوال الزمان ، ومقدار ثراء الفرد ودخله ، والقيمة الشرائية للدينار أو الدرهم . فيذكر أبو عبيدة أيضا :

« عن ابن أبي نجيح قال : سألت مجاهدا : لم وضع عمر على أهل الشام من الجزية أكثر مما وضع على اليمن ، فقال : لليسار » ..

حدد أبو يوسف في كتابه الخراج من تؤخذ منهم الجزية ومقدارها

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٢٨ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٤) الاموال ص ٤١ .

فقال : « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن فى السواد (١) وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبىان . وعلى الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما ، يؤخذ ذلك منهم فى كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيسة ، ولا يؤخذ منهم فى الجزية مئة ولا خنزير ولا خمر » . وهذا النص لأبى يوسف ، يدل على عدالة الجزية ، وعلى تسامح المسلمين ، فقد كانت الجزية على قدر دخل الفرد وكسبه ، كما كان يدفعها الرجل البالغ القادر على العمل والكسب ، وأعفى منها الشيوخ والأطفال والنساء والمعجزة ورجال الدين ، فكان الرجل إنما يؤدي الجزية عن نفسه وسائر أفراد أسرته التى يعولهم . كما كان يسمح بدفع الجزية عينا ، فكان بعض أهل الذمة يؤدون جزءا من انتاجهم الزراعى أو الحيوانى .

وأعفى المسلمون من الجزية كل من عجز عن تأديتها ، بل كانت الدولة تعول كل ذمى عجز عن كسب رزقه بكده . فقال أبو عبيد فى كتابه (الأموال) (٢) : « ولو عجز أحدهم لحظة عن دينار لحطه من ذلك ، حتى لقد روى عنه أنه — أى عمر بن الخطاب — أجرى على شيخ منهم من بيت المال . وذلك أنه مر به شيخ وهو يسأل على الأبواب »

طريقة جمع الجزية وموعدها :

كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية (٣) . وكان يسمح بدفع الجزية نقدا أو عينا ، لكن لا يسمح بتقديم الميتة أو الخنزير أو الخمر بدلا من الجزية . وأمر عمر بن الخطاب بالتخفيف عن أهل الذمة فقال : « من لم يطق الجزية خففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه ، فانا لا نريدكم

(١) السواد : أراضي العراق الخصبة السوداء اللون .

(٢) الأموال ص ٤١ .

(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٨ .

لعام أو لعامين» (١) وكانت الدولة الإسلامية كثيراً ما تؤخر موعد تأدية الجزية حتى تنضج المحصولات الزراعية ، فيستطيع أهل الذمة تأديتها دون أن يرهقهم ذلك ، فقال أبو عبيدة (٢) : «وانما وجه التأخير الى الغلة للرفق بهم» .

واتبعت الدولة الإسلامية الرفق والرحمة في جمع الجزية ، فقد قدم أحد عمال عمر بن الخطاب عليه بأموال الجزية ، فوجدها عمر كثيرة ، فقال لعامله : انى لأظنكم قد أهلكتم الناس ؟ فقال : لا ، والله ، ما أخذنا الا عفوا صفوا . فقال عمر : بلا سوط ، ولا نوط ؟ فقال : نعم . فقال عمر : الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا فى سلطانى (٣) .

تناول المستشرقون بالحديث مسألة ختم رقاب أهل الذمة ، مما يجعلنا ندرس هذه المسألة دراسة علمية منهجية ، حتى تبين حقيقة الأمر . ويستند هؤلاء المستشرقون فيما يقولون على ما جاء فى المصادر العربية القديمة من أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف الى سواد العراق لجمع الجزية ، وأنها قالا : «ومن لم يأتنا فنختم فى رقبته فقد برئت منه الذمة» (٤) .

وهذا يجعلنا تتساءل : هل كان هذا الختم وقت جمع الجزية فحسب ، أم كان يتخذ صفة الاستمرار والدوام ؟

وذكر المؤرخ اليعقوبى (٥) أنه كانت تختم رقاب أهل الذمة وقت جباية جزية الرءوس ثم تكسر الخواتيم ، وتستبدل بشارة تعلق حول الرقبة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية .

وناقش المؤرخ (ترتون) (٦) هذه المسألة فقال : أما ما أشرنا اليه من ختم رقاب الذميين على الدوام فأمر مبالغ فيه تمام المبالغة . والحقيقة

(١) ابن عساکر : تاريخ مدينة دمشق ج ١ ص ١٧٨ .

(٢) الاموال ص ٤٤ .

(٣) أبو عبيدة : الاموال ص ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٥) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٠ .

(٦) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٣٢ .

تتلخص في أن عمر بن الخطاب كان قد أتخذ لجمع خراج العراق فختما أعناق جميع الذميين (وهم مائة ألف وخمسون) ، وليس من الثابت تماما أن الختم كان يتعلق بدفع الخراج ، ولا يمكن للمرء أن يتصور دوام بقاء ختم الأعناق ، إذ ليس بين أيدينا شاهد على استمراره ، ويشير أبو يوسف الى أن ختم الأعناق لم يكن يستعمل الا عند جمع الجزية فحسب ، وهذا نص ما يقوله : « ينبغي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رءوسهم حتى يفرغ من عرضهم ، ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سأله كسرهما » (١) .

ويمضي (ترتون) في الدفاع عن العرب المسلمين فيقول : ومن الحق ألا تحمل العرب وزر هذا العيب ، إذ لم يكونوا فيه بالبادئين والمبتدعين ، بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم -

وهكذا يتضح الموقف ، فقد كان المسلمون يتبعون نفس السياسة التي اتبعها الرومان البيزنطيون في ختم الرقاب وقت تأدية الجزية ، وهي ليست صورة لاضطهاد أو اذلال ، ولكنها وسيلة لمعرفة وتمييز من أدى الضريبة ومن لم يؤدها ، وخاصة أن الطباعة لم تكن قد ظهرت بعد وكان من العسير تدوين ايصالات واضحة ثابتة تثبت تأدية الجزية ولا يمكن تزيفها . وما زالت بعض الدول في افريقية وآسيا في القرن العشرين تتبع هذه السياسة في الانتخابات ، فيقومون بختم أيدي الناخبين بنوع من الأختام لا تزول الا بعد يومين أو أكثر ، حتى لا يعطى الناخب صوته أكثر من مرة .

أحوال الاعفاء من الجزية :

كانت الجزية لا تجبى الا من الذكور القادرين على العمل والكسب ، ولا تجبى من النساء والصبيان ، ويستثنى من أداء الجزية الذي يتصدق عليه ، والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل ، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذي لا يرجى شفاؤه ، والمغلوب على عقله الا اذا كان من أصحاب اليسار ، كما أعفى المترهبون الذين في الديارات ، وأهل

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ .

الصوامع اذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين ، أما اذا كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى أو يسار أخذت منهم الجزية .

وأعفت الدولة الاسلامية كبار السن أو الضعفاء ، بل كانت تعولهم نرى هذا واضحا في رسالة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الى عدى بن أرطاة عامله بالبصرة : « أما بعد ، فإن الله سبحانه انما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الاسلام واختار الكفر عتيا وخسرانا مينا .. فضع الجزية على من أطاق حملها ، وخل بينهم وبين عمارة الأرض ، فإن في ذلك صلاحا لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم . وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه . فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كل من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عنق . وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر -- يقصد عمر بن الخطاب -- مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال : ما أنصفناك ، ان كنا أخذنا منك الجزية في شبابك ثم ضيعناك في كبرك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه » (١) .

كان كل من اعتنق الاسلام يعفى من دفع الجزية . فقال قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس على مسلم جزية » .. ويذكر (أبو عبيد) (٢) هذا الحديث الشريف ثم يقول : « تأويل هذا الحديث أن رجلا لو أسلم في آخر السنة ، وقد وجبت عليه الجزية أن اسلامه يسقطها عنه فلا تؤخذ منه ، وان كانت قد لزمته قبل ذلك . لأن المسلم لا يؤدي الجزية ولا تكون دينا عليه ، كما لا تؤخذ منه فيما يستأنف بعد الاسلام . وقد روى عن عمر ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز ما يقوى هذا المعنى » .

أسلم رجل غير عربى ، ولكن الوالى كان يأخذ منه الجزية ، فقدم على عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، انى أسلمت ، والجزية تؤخذ منى . فقال عمر : املك أسلمت متعوذا . فقال : أما فى الاسلام ما يعيدنى ؟ فقال

(١) الاموال ص ٤٧ .

(٢) أبو عبيد : الاموال ص ٤٦ .

عمر : بلى . فكتب عمر أن لا تؤخذ منه الجزية . وكتب عمر بن عبد العزيز الى ولاته : « من شهد شهادتنا ، واستقبل قبلتنا ، واختن ، فلا تأخذوا منه الجزية » (١) .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس على من مات ، ولا على من أبق جزية . ويفسر (أبو عبيدة) (٢) هذا القول فيقول : لا تؤخذ من ورثته بعدموته ، ولا يجعلها بمنزلة الدين ، ولا من أهله اذا هرب عنهم منها ، لأنهم لم يكونوا ضامنين لذلك .

كان كل من يعتنق الاسلام من أهل الجزية طوال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين حتى فترة حكم الحجاج ترفع عنه الجزية . وسار الخلفاء على سيرة عمر بن الخطاب ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي أول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولذا أمر بعدم اغنائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة (٣) .

أما الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز فقد أمر برفع الجزية عن أسلم . واختلف المؤرخون المحدثون في تقدير ما فعله عمر . فيرى المؤرخ العربي المسيحي المعاصر الدكتور فيليب حتى (٤) أن سياسة عمر قد أضرت بيت المال ضرا كبيرا . ويرى (فان فلوتن) (٥) أن اصلاحات عمر ناقصة ، فقد أيقظت آمالا لم تستطع الحكومة تنفيذها ، بل أدت الى الفوضى المالية بعد موت عمر ويرى (فلهوزن) (٦) أن عمر لم ينجح في سياسته المالية ، بل أدت هذه السياسة الى الانحطاط المالي . أما (دوزي) (٧) فانه يتهم عمر ويدافع عنه في نفس الوقت ، فيرى أن سياسة عمر أدت الى ارهاق بيت المال ، كما دفعت بكثير من أهل الذمة الى التظاهر باعتناق

- (١) أبو عبيد : الاموال ص ٤٨ .
- (٢) المصدر السابق ص ٤٩ .
- (٣) الطبري ح ٢ ص ٢٥ .
- (٤) حتى : تاريخ العرب ح ٢ ص ٢٨٥ .
- (٥) السادة العربية ص ٥٨ .
- (٧) نظرات في تاريخ الاسلام ص ١٢١ .

الاسلام دون ايمان حقيقى به فرارا من الجزية ، ثم يدافع (دوزى) عن عمر فيقول انه كان مسلما ورعا تقيا وآثر نصرة الاسلام على أى شىء آخر .

هذه هى نماذج لآراء بعض المستشرقين ، ذكرناها لنرى أساليب معالجتهم للتاريخ الاسلامى ، ولنستطيع الرد عليها . والحقيقة أن عمر ابن عبد العزيز كان يتبع تعاليم الاسلام وأحكامه حرفيا ، وكان يساوى فى المعاملة بين جميع رعاياه ، مسلمين وغير مسلمين ، فقد كتب الى عامله بالكوفة : « قو أهل الذمة فاننا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين » (١) .

ولم يرض كثير من المسلمين عن سياسة بعض الأمويين فى أخذ الجزية ممن أسلم ، وعبر أحدهم ، وهو يزيد بن حبيب عن رأيهم فقال : أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيا صلى الله عليه وسلم ، ثلاث خصائل : قتالهم عثمان ، واحراقهم الكعبة ، وأخذهم الجزية من المسلمين (٢) .

فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ، ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء الجزية اذا ما دخلت فى خدمة الجيش الاسلامى وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة ، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية ، سالت المسلمين وتعهدت أن تكون عوننا لهم وأن تقاتل معهم فى مغازيهم ، على شريطة أن تؤخذ بالجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم . ولما اندفعت الفتوح الاسلامية الى شمال فارس فى سنة ٢٢ هـ ، أبرم مثل هذا الحلف مع احدى القبائل التى تقيم على حدود هذه البلاد ، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية (٣) .

المجوس وأداء الجزية :

اختلف المؤرخون والفقهاء الأقدمون فى اعتبار المجوس من أهل

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .

(٢) ابوعبيد : الاموال ص ٤٩ .

(٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨٠ .

الذمة. فالماوردي (١) يذكر أن « أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابتهم التوراة والانجيل ، ويجرى المجوس مجراهم في أخذ الجزية منهم وان حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصائبة والسامرة اذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدتهم » . ويؤكد البلاذري (٢) أن المجوس من أهل الكتاب ، فيروي أن عمر بن الخطاب جلس الى بعض صحابة الرسول فقال : ما أدري كيف أصنع بالمجوس ؟ فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال : أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (سنوا بهم سنة أهل الكتاب . أما الشهرستاني (٣) فذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب ، ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية (٤) فذكر أبو عبيد (٥) : « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مجوس هجر ، يدعوهم الى الاسلام ، فمن أسلم قبل منه ومن لا ضربت عليه الجزية ، على أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تسكح له امرأة . كما صالح الرسول أهل البحرين ومعظمهم من المجوس ، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي ، وبعث أبا عبيدة بن الجراح ليجمع الجزية منهم » .

روى أبو يوسف : « عن علي بن طالب كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس . قال علي كرم الله وجهه : وأنا أعلم الناس بهم ، كانوا أهل كتاب يقرأونه ، وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم » .

وكان أخذ الجزية من المجوس واعتبارهم من أهل الكتاب سببا لاثارة كثير من الجدل والنقاش ، فروى أبو يوسف (٦) : أن فروة بن نوفل الأشجعي قال : ان هذا لأمر عظيم ، يؤخذ من المجوس الجزية وليسوا بأهل كتاب ؟ فقام اليه المستور بن الأحنف فقال ، طعنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتب والا قتلتك والله . وقال : قد أخذ

- (١) الاحكام السلطانية ص ١٢٧ .
- (٢) فتوح البلدان ص ٢٧٦ .
- (٣) الملل والنحل ج ١ ص ٨٤ .
- (٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٤ .
- (٥) الاموال ص ٢١ .
- (٦) الخراج ص ١٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجوس أهل هجر الجزية ، قال: فارتفعنا الى على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، فقال : سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعا عن المجوس : ان المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه ، وأن ملكا نهم شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط فوقع عليها وهم ينظرون اليه ، فلما أفاق من سكره قالت له أخته اتك صنعت كذا وكذا وفلان وفلان وفلان وفلان ينظرون اليك . فقال : ما علمت بذلك . فقالت : فانك مقتول ولانجاة لك الا أن تطيعني . قال : فاني أطيعك . قالت : فاجعل هذا دينا وقل هذا دين آدم ، وقل حواء من آدم ، وادع الناس اليه واعرضهم على السيف فمن تابعتك فدعه ومن أبى فاقتله ففعل ، فلم يتابعه أحد فقاتلهم يومئذ حتى الليل . فقالت له : اني أرى الناس قد اجترءوا على السيف وهم على النار لكع فأوقد لهم نارا ثم اعرضهم عليها ، ففعل ، فهاب الناس النار فتابعوه . قال على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخراج لاجل كتابهم وحرمة مناكحتهم وذبائحهم لشركهم) .

وكان هناك من المسلمين من يرى أن المجوس ليسوا من أهل الذمة فلا يجوز أخذ الجزية منهم . فروى أبو عبيد (١) أن أبا موسى الأشعري قال : لولا أني رأيت أصحابي يأخذون من المجوس الجزية ما أخذتها . وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله : ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقروا المجوس على فكاح الأمهات والبنات ؟ وذكر أشياء من أمرهم قد سماها . فكتب اليه الحسن : أما بعد ، فانما أنت متبع ولست بمبتدع وكتب عمرو بن الحرث الى ربيعة بن عبد الرحمن يسأله عن المجوس : وكيف يثبت عليهم الجزية ؟ وكيف تركوا مشركي العرب ؟ فكتب ربيعة : قد كان لك في أمر من قد مضى ما يغنيك عن المسألة عن مثل هذا .

ظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة ، وقد حفظ أبو يوسف (٢) لنا خبر أخذ عدى بن أرطاة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز في العراق الجزية من المجوس .

(١) الاموال ص ٢٦ .

(٢) الخراج ص ١٢١ .

تحدث ترتون (١) عن معاملة المسلمين للمجوس فقال : كان المسلمون في حيرة شديدة بشأن الطريقة التي يتبعونها في معاملة المجوس ، رغم أن النبي قد حسم الموضوع بما قال وبما رواه عنه عبد الرحمن بن عوف . والواقع أن المجوس كان عددهم كبيرا ، وكانوا يعاملون معاملة الشعوب المعاهدة ، وذلك أن العهود التي أعطيت لهم أباحت لهم مطلق الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية ، ولم يكن ذلك مجرد حبر على ورق . والواقع أن معابد المجوس لم تلق في بداية الأمر أكثر مما كانت تلقاه الكنائس ، وإن نظر الناس إلى المجوس على أنهم دون بقية الذميين مكانة ، فكانت دية القتل المجوسى النقدية أقل بكثير من دية سواه من الذميين ، كما حرم على المسلم الزواج فيهم أو أكل لحم حيوان ذبحته أيديهم .

والحقيقة أن الدولة الإسلامية كانت في سياستها تخطط لأعوام كثيرة مديدة ، وهى وإن تركت المجوس بعد الفتوحات الإسلامية على دينهم ، فقد كانت تعلم أن الجيل الثانى أو الثالث من المجوس سيقبل على اعتناق الإسلام ، وقد حدث هذا فعلا ، فقد تناقص عدد المجوس على مر السنين تناقصا ملحوظا ، واعتنقت الغالبية العظمى منهم العقيدة الإسلامية .

عهود عمر وأهل الذمة :

صالح عمر بن الخطاب أهالى حمص على أن « يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنيستهم وأرجائهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا المسجد ، واشترط الخراج على من أقام منهم » (٢) وجاء فى عهد عمر لأهل القدس أنه « أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بائلياء معهم أحد من اليهود .. ومن أحب من أهل ايلياء يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى

(١) أهل الذمة فى الإسلام ص ١٠٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢١ .

يباغوا مآمنهم ... ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم » (١) .

دارت مفاوضات بين عمر بن الخطاب وقائده أبي عبيده بن الجراح من جانب ، وبين البطريرك قسطنطين من جانب آخر ، وتم الاتفاق على أن يدفع الموسر ثمانية وأربعين درهما ، ويدفع متوسط المال أربعة وعشرين درهما ، ويدفع فقير الحال اثني عشر درهما ، واشترط عمر على المسيحيين « ألا يحدثوا كنيسة ، ولا يرفعوا صليبا بين ظهرائي المسلمين ، ولا يضربوا ناقوسا الا في جوف كنيسة ، وعلى أن تشاطرهم منازلهم فيسكن فيها المسلمون ، وعلى أن آخذ الحد القبلي من كنائسكم لمساجد المسلمين فانها أواسط في المدائن ، وعلى أن لا يعبر أحدكم بخنزير بين ظهرائي المسلمين ، وعلى أن يقرأوا ضيوفهم ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وعلى أن يحملوا راجلهم من رستاق الى رستاق ، وعلى أن يناصحوهم وألا يغشوهم ، وعلى أن لا يتسالوا مع عدو لهم ، والا استحللنا سفك دمائهم وسبى أبنائهم ونسائهم ، لهم بذلك عهد الله وعقده وذمة المسلمين » .

وبعث المسيحيون برسالة الى عمر بن الخطاب يتعهدون فيها ببعض الأمور مقابل الأمان والحماية وأن يصبحوا في ذمة العرب المسلمين ، وجاء في هذه الرسالة : « انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا ، على أن تؤدى الجزية عن يد ونحن صاغرون ، وعلى ألا نمنع أحدا من المسلمين أن ينزل كنائسنا في الليل والنهار ، وأن نضيفهم فيها ثلاثا ، ونطعمهم الطعام ، ونوسع لهم أبوابها ، ولا نضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيفا ، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة ، ولا تؤوى فيها ولا في شيء من منازلنا جاسوسا لعدوكم ، ولا نحدث كنيسة ولا ديرا ولا صومعة ولا قلاية ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها في خطط المسلمين وبين ظهرائهم ، ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه ، ولا نظهر صليبا على كنائسنا ولا في شيء من طرق المسلمين

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢١٠ .

وأسواقهم ، ولا تتعلم القرآن ، ولا نعلمه أولادنا ، ولا نمنع أحدا من ذوى قربانا من الدخول فى الاسلام اذا أراد ذلك ، وأن نجز مقاديرنا وسنا ونشد الزناير فى أوساطنا ، ونلزم ديننا ، ولا تشبه بالمسلمين فى لباسهم ولا فى هيئتهم ولا فى سلوكهم ولا فى نقش خواتيمهم فننقشها نقشا عربيا ، ولا نكتى بكناهم ، وعلينا أن نعظمهم ونوقرهم ، ونقوم لهم من مجالسنا ، ونرشدهم فى سبلهم وطرقاتهم ، ولا نطلع فى منازلهم ، ولا نتخذ سلاحا ولا سيفا ، ولا نحمله فى حضر ولا سفر فى أرض المسلمين ، ولا نرفع أصواتنا فى جنائزهم ، ولا نجاور المسلمين بهم ، ولا نضرب أحدا من المسلمين ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم ، اشترطنا ذلك كله على أنفسنا وأهل ملتنا ، فان خالفنا فلا ذمة لنا ولا عهد ، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والمعاندة » (١) .

وحدد الخليفة عمر بن الخطاب الأمور التى تفقد أهل الذمة ما تعهد المسلمون به لهم من حرية وتسامح وحماية وأمان ، فكتب عمر لأحد بطارقة المسيحيين : « لك ولهم على وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقامت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم ، وذلك أن يجرى عليكم حكم الاسلام ، ولا حكم خلافه بحال ما يلزمكم ، ولاء يكون لكم أن تمتنعوا منه فى شىء رأيناه نلزمكم به ، وعلى أن أحدا منكم ان ذكر محمدا صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله عز وجل أو دينه بسا لا ينبغى أن يذكره به فقد برئت منه ذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين وذمة جميع المسلمين ، ونقض ما أعطى عليه الأمان ، وحل لأمر المؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال الحرب ودمائهم ، وعلى أن أحدا من رجالهم ان أصاب مسلمة بزنا ، أو قطع الطريق على مسلم ، أو فتن مسلما عن دينه ، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال ، أو بدلالة على عبوة المسلمين وايواء لعيونهم ، فقد نقض عهده ، وأحل دمه وماله ، وان نال مسلما بما دون هنا فى ماله أو عرضه ، أو نال به من مسلم فمنعه من كافر له عهد أو أمان لزمه فيه الحكم » .

ومضى الخليفة عمر فى تحديد الحقوق والواجبات ، وأصبحت هذه

(١) ابن عساکر : تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٨ .

الرسالة دستورا صريحا واضحا محددًا يتبعه كل من الولاة المسلمين وأهل الذمة ، فكتب عمر : « وعلى أن تتبّع أفعالكم في كل ما جرى بينكم وبين المسلم ، فما كان لا يحل لمسلم مما لكم فيه فعل رددناه وعاقبناكم عليه ، وذلك أن تبيعوا مسلما يبع حراما ما عندكم من خمر أو خنزير أو دم ميتة أو غيره . ونبطل البيع بينكم فيه ، ونأخذ ثمنه منكم ان أعطاكموه ، ولا نرده عليكم ان كان قائما ، وفريقه ان كان خمرًا أو دما ، ونحرقه ان كان ميتة ، وان استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئا ونعاقبكم عليه ، وعلى ألا تسقوه أو تطعموه محرما ، أو تزوجوه منكم أو ينكح فاسد عندنا ، وما بايعتم به كافرا منكم أو من غيركم لم تتبعكم فيه ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به ، واذا أراد البائع منكم أو المبتاع نقض البيع وأتانا طالبا له فان كان منتقضا عندنا نقضناه ، وان كان جائزا أجزناه ، الا أنه اذا قبض المبيع لم يرده لأنه يبيع بين مشركين . »

وبعد أن انتهى عمر في هذه الرسالة من تحديد المعاملات الاقتصادية، تعرض للمسائل القضائية فقال : « ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر ويحاكمكم أجريناكم على حكم الاسلام ، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه ، واذا قتلتم مسلما أو معاهدا منكم أو من غيركم خطأ فالدية على عواقبكم كما تكون على عواقب المسلمين ، وان قتل منكم رجل بلا قرابة فالدية عليه في ماله ، واذا قتله عبدا فعليه القصاص ، الا أن تشاء ورثته دية فيأخذونها ، ومن سرق منكم فرفعه المسروق الى الحاكم قطعه ، اذا سرق ما يجب فيه القطع وغرم ، ومن قذف وكان للمقذوف حد حداه ، وان لم يكن له حد عزر ، حتى تكون أحكام الاسلام جارية عليكم بهذه المعاني فيما سمينا وما لم نسم . »

ثم انتقل عمر الى تحديد المظاهر الاجتماعية وسلوك أهل الذمة في المجتمع ، وأراد عمر أن يحتفظ العرب المسلمون بطابعهم الاجتماعي ، كما يكون لأهل الذمة صفتهم الاجتماعية، فكتب عمر : « ليس لكم أن تظهروا الصليب في شيء من أمصار المسلمين ، وألا تعلنوا الشرك ، ولا تبنيوا كنيسة ولا موضع مجتمع لصلاتكم ، ولا تضربوا بناقوس ، ولا تظهروا

لأحد من المسلمين قولكم بالشرك في عيسى ابن مريم ولا في غيره ، وعلیکم أن تلبسوا الزنابير من فوق جميع الثياب والأردية وغيرها حتى لا تخفى الزنابير ، وتخالفوا المسلمين بسروجكم وركوبكم ، وتباينوا قلانسكم وقلانسهم بعلم تجعلونه بقلانسكم ، وألا تأخذوا على المسلمين سروات الطريق ولا المجالس في الأسواق . »

ثم تحدث عمر في رسالته هذه عن الواجبات المادية ، وما يدفعه أهل الذمة من جزية ، كما ترك لأهل الذمة حرية التنقل بين مدن الدولة الإسلامية ، عدا مدينة مكة باعتبارها المدينة المقدسة ، ولهم أن يقيموا في أي مدينة إسلامية ، ما عدا مدن الحجاز فلا يقيموا فيها أكثر من ثلاث ليال ، فكتب عمر : « وأن يؤدي كل بالغ من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله جزية رأسه ، ديناراً مثقالاً جيداً في رأس كل سنة ، ولا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤديه أو يقيم به من يؤديه عنه ، وإن افتقر منكم فجزيته عليه حتى تؤدي ، وليس الفقير بدافع عنكم شيئاً ، ولا ناقض لذمتكم عما بها ، فستى وجدنا عندكم شيئاً أخذتم به ، ولا شيء عليكم في أموالكم سوى جزيتكم ما أقستم في بلادكم واختلقتم ببلاد المسلمين غير تجار . وليس لكم دخول مكة بحال ما ، وإن اختلقتم بتجارة - على أن تؤدوا من جميع تجاراتكم العشر إلى المسلمين - فلکم دخول جميع بلاد المسلمين إلا مكة ، والمقام بجميع بلاد المسلمين كما شئتم إلا الحجاز ، فليس لكم المقام ببلد منها إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه . »

وحدد عمر في رسالته من يعفيهم المسلمون من دفع الجزية فقال : « ومن نبت الشعر منكم تحت ثيابه أو احتلم أو استكسل خمس عشرة سنة قبل ذلك ، فهذه الشروط لازمة إن رضيها ، فإن لم يرضها فلا عقد له . ولا جزية على أبنائكم الصغار ، ولا على صبي غير بالغ ، ولا على مغلوب على عقله ولا مملوك ، فإذا أفاق المغلوب على عقله وبلغ الصبي وعشق المملوك منكم فدان دينكم فعليهم مثل جزيتكم . والشرط عليكم وعلى من رضيه ، ومن سخطه منكم نبذنا إليه . »

ثم تحدث عمر عن حقوق أهل الذمة ، وما يتعهد به المسلمون نحوهم

فقال : « ولكم أن نمنعكم - وما يحل ملكه عندنا لكم - ممن أرادكم من مسلم أو غيره بظلم بما نمنع به أنفسنا وأموالنا ونحكم لكم فيه على ما جرى حكمنا عليه بما نحكم به في أموالنا ، وما يلزم المحكوم في أنفسكم فليس علينا أن نمنع لكم شيئاً ملكتموه محرماً من دم ولا ميتة ولا خسر ولا خنزير ، كما نمنع ما يحل ملكه ، ولا نعرض لكم فيه إلا أنا لاندعكم تظهرونه في أمصار المسلمين ، فما ناله منه مسلم أو غيره لم نغرمه ثمنه لأنه محرم ولا ثمن لمحرّم ، ونزجره عن العرض لكم فيه ، فإن أعاد أدب بغير غرامة في شيء منه » .

وختم عمر رسالته بقوله : « وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه عليكم ، وألا تغشوا مسلماً ، ولا تظاهروا عدوهم عليهم بقول ولا فعل ، ولكم عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة المسلمين بالوفاء لكم ، وعلى من بلغ من أبنائكم : ما عليكم بما أعطيناكم ما وفيتم بجميع ما شرطنا عليكم ، فإن غبتم أو بدلتهم فذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين والمسلمين بريئة منكم ، ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضيه إذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنا فيه ، ومن لم يرض نبذنا إليه » (١) .

علق المؤرخ (ترتون) على هذه الشروط التي وردت في عهدود عمر ، ومدى وضعها موضع التنفيذ على مر العصور الإسلامية ، فقال : مفروض على الذمي - من الناحية النظرية - مراعاة جميع شروط العهد إذا أراد الحماية ، أما الواقع فثمة مسائل قليلة تصرف عنه حماية القانون الإسلامي ، وإن لم يتفق الفقهاء اتفاقاً تاماً على ماهية تلك المسائل وموضوعاتها . إذ يذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل للقول بأن امتناع الذمي عن دفع الجزية يسع المسؤولين من حمايته ، ويخالفهم في ذلك الرأي أبو حنيفة ، ويرى أحمد ومالك أن هناك أربعة أمور تجعل الذمي بريئاً من ذمة الشرع ، هي الكفر بالله وذكره بما لا يليق بجلاله ، أو ذكر كتابه أو دينه أو رسوله بما لا ينبغي ، وإذا ذلك ينتقض عهده ، سواء اشترط ذلك أو لم يشترط ،

(١) انظر نص هذه الرسالة في كتاب الام للشافعي ج ٤ ص ١١٨ .

على حين أن ابن القاسم (١) قال ثمانية تنقض عهد الذميين هي أن يجمعوا على قتال المسلمين ، أو يزفي أحدهم بمسلة ، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه ، أو يقطع على المسلم الطريق ، أو يؤوى للمشركين جاسوسا ، أو يعين على المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين ، أو يقتل مسلما أو مسلمة عمدا . وبنصح أبو حنيفة بعدم المبالغة في القسوة على الذميين الذين ينالون من الرسول ، ويقول الشافعي ان العفو جائز على النادم وحينذاك يرد له اعتباره ، وان يكن ابن تيمية قد ذهب الى وجوب قتل مثل هذا الشخص .

ملابس أهل الذمة :

من المسائل التي تناولها المستشرقون بالنقد ، ما فرضه كل من الخليفين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قيود تتناول ملابس أهل الذمة وبعض المسائل الشكلية . وهم يعتمدون على ما ذكره مؤرخ واحد هو (أبو يوسف) . فأشار المستشرقون الى أن عمر بن الخطاب قد حدد أنواع الملابس وطريقة ركوب أهل الذمة ، فاشتراط عليهم لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم ، وأمرهم أن يجعلوا في أوساطهم الزنارات ، وأن تكون قلائسهم مضربة ، وأمر عمر بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل (٢) .

ويتحامل بعض المستشرقين - كمادتهم - على الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، فيصفه (جولد تسيهر) بالخليفة المتعصب ، ويذهب (وليم ميور) (٣) الى أن غيره عمر على الاسلام هي التي دفعته الى اضطهاد النصارى واليهود ، فكتب عمر الى عدى بن أرطاة عامله على العراق : « مروا من كان على غير الاسلام أن يضعوا العمائم ، ولبسوا الأكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين » . وكتب عمر رسالة أخرى جاء فيها :

(١) انظر كتاب الميزان للشمراني - ح ٢ ص ١٦٢ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد - ح ٤ ص ٤٢٦ .

« لا يركب نصراني سرجا ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمته ، ولا يمشين بعير زنار من جلد ، ولا يمشى الا مفروق الناحية ، ولا يوجد في بيت نصراني سلاح الا أخذ » (١) . وأمر عمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة . كما أمر عمر أهل الذمة بأن يفسحوا المجال للمسلمين في الطرقات وأماكن الاجتماع ، وحتم عليهم أن يحملوا شعارا معيناً على أكتافهم ، يكون لونه أزرق للمسيحيين وأصفر لليهود ، وأسود أو أحمر للمجوس ، ويجب أن تكون بيوتهم أقل ارتفاعاً من بيوت المسلمين ، كما كان عمر يصر على التحاق الذميين بالجيوش الإسلامية .

هذه هي المسائل التي سلط المستشرقون الأضواء عليها للأساءة إلى الخليفين العادلين اللذين اشتهرا بالعدل والتسامح ، بل أن عمر بن عبد العزيز يعتبره المؤرخون الخليفة الراشد الخامس وقد استند المستشرقون في هذه الأمور إلى كتاب واحد ، هو كتاب (الخراج) لأبي يوسف ، ولكننا لانجد مثل هذه الأوامر والنواهي في كتب المؤرخين الأقدمين الموثوق بهم مثل الطبري أو البلاذري أو ابن الأثير واليعقوبي وغيرهم ، ونجد عهد عمر في كتب هؤلاء المؤرخين القدامى خلوا من هذه الشروط وهذا التحديد للملابس ، مما يهدم كل ما ذهب إليه المستشرقون .

وقد ناقش المؤرخ (ترتون) (٢) هذه المسألة فقال : من الشروط التي اشترطها عهد عمر على الذميين لبس الزنار والنهي عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم التي يستعملونها ، وينسب أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) هذه الأوامر إلى عمر بن الخطاب ، على حين أن ابن الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ يقرر أن الخليفة أمر النصارى بلبس (المنطقة) وجز مقدم شعورهم . أما العهد الواردة في الطبري والبلاذري فقد خلت من الإشارة إلى الملابس ، وإذا ذهبنا إلى ما يذهب إليه المستشرق الإيطالي (كائتاني) من أن هذه العهد قد وضعت فيما بعد ، كما هو الحال إزاء العهد لبيت المقدس ، فإن خلوه هذه العهد من الإشارة إلى الملابس يدفع الإنسان للشك القوي في حقيقة إصدار عمر لهذه الأوامر .

(١) ابن الجوزي : سابق عمر بن عبد العزيز ص ٦٢ .

(٢) أهل اللغة في الإسلام ص ١٢٢ .

ونحن نرى أنه لو افترضنا جدلاً حقيقة هذه الأوامر الصادرة عن الخليفتين ، فقد كان هذا لاغبار عليه ، فهو نوع من التحديد للملابس في نطاق الحياة الاجتماعية ، للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة ، وخاصة أتينا في وقت مبكر من التاريخ ، ليس فيه بطاقات ثبت الشخصية ، وما تحمله عادة مثل هذه البطاقات من تحديد الجنسية والدين والعسر وغير ذلك . فقد كانت الملابس المتيزة هي الوسيلة الوحيدة لاثبات دين كل من يرتديها ، وكان للعرب المسلمين ملابسهم ، كما للنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم أيضا ، وإذا كان المستشرقون قد اعتبروا أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد ، فنحن نقول لهم ان الاضطهاد في هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين وأهل الذمة على السواء . وإذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بالألا يتشبهوا بغيرهم ، فمن المنطقي أن يأمرؤا غير العرب وغير المسلمين بالألا يتشبهوا بالعرب المسلمين وناقش المؤرخ (ترتون) (١) هذه المسألة أيضا وأبدى رأيه فيها فقال : كان الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس سهولة التمييز بين النصارى والعرب ، وهذا أمر لا يرقى اليه الشك ، بل نراه مقررا تقريرا أكيدا عند كل من أبى يوسف (٢) وابن عبد الحكم (٣) ، وهما من أقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم الينا ، على أنه يجب أن نلاحظ أنه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو الزام ، على أن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين أخذ العرب بحفظ من التملذ ، اذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم في ملابسهم والتشبه في ثيابهم .

ومهما كان الرأي ، فإن كانت هذه الأوامر التى تحدد أنواع وأشكال الملابس حقيقية ، فإنها لم توضع موضع التنفيذ في معظم العصور التاريخية

(١) المصدر السابق .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ .

وهذا فرق بين وجود القانون ومدى تطبيق هذا القانون ، فقد اتهم معظم الخلفاء والولاة المسلمين سياسة تسامح وأخاء ومساواة ، ولم يتدخلوا كثيرا في تحديد ملابس أهل الذمة ، ولم ترتفع أصوات مطلقا بالشكوى أو الاحتجاج .

وهناك أدلة تاريخية تثبت هذه الحقائق التي ذكرناها ، فقد كان الأخطل الشاعر النصراني (المتوفى سنة ٩٥ هـ) يدخل على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وعليه جبة وحرز من الخز وفي عنقه سلسلة بها صليب من الذهب ، وتتعض لحيته خمر (١) ، ويحسن الخليفة استقباله . كما أن الاتفاقية التي وقعها المسلمون في سنة ٩٨ هـ مع (الجراجمة) المسيحيين الذين يسكنون المناطق الجبلية من بلاد الشام تضمنت النص على أن يلبس الجراجمة لباس المسلمين (٢) .

تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة وزيهم فقال : « لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته » . واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب : « حتى يعرف زيهم من زي المسلمين » . أي أن لا اضطهاد في الأمر ، إنما هي وسيلة اجتماعية للتمييز ، مثلما نرى اليوم في كل مجتمع حديث من تعدد الأزياء ، لكل طائفة أو أصحاب حرفة أو مهنة زي واحد يميزهم .

ويعلق المؤرخ (آدم متز) (٣) على ما يعيبه بعض المستشرقين على المسلمين من أنهم كانوا يختمون على رقاب أهل الذمة عند دفع الجزية فيقول : (ويظهر أن هذا الأمر نادرا ما كان يقع » . كما يذكر (متز) أيضا أن هذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوبا عليها اسم العبد واسم سيده ، وكان اليهود في عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب .

(١) الاصفهاني : الاغانى ح ٧ ص ١٦٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٦١ .

(٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ح ١ ص ٨١ .

قواعد فقهية فى التزاوج والقضاء والارتداد والموارث والتجارة :

لم يكن هناك تزاوج بين المسلمين والكتائيات على نطاق واسع ، وذلك لأن القانون المسيحى لم يكن يجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصرانى ، لئلا تنتقل هى وأولادها الى غير المذهب ، ولا كان يجوز للنصرانى بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير نصرانية الا رجاء ادخالها هى وأولادها فى النصرانية .

أما زواج المسيحى من مسلمة فكان محرما ومستحيلا . وكافت الدولة الاسلامية تضمن ككل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص . فكان لا يجوز للمسيحى أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ، ولا يكون تغيير الدين الا اذا كان ذلك دخولا فى الاسلام ، ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا العكس ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ولا المسلم غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا . وقد أصدر الخليفة العباسى المقتدر فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) يخلف فى الموارث أمر فيه بأن (ترد تركة من مات من أهل الذمة ، ولم يخلف وارثا على أهل ملته) على حين أن تركة المسلم كانت ترد الى بيت المال (١) .

يأمر الاسلام بالرفق بأهل الذمة، فقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » (٢) . وقال أبو بكر : « لا تقتلن أحدا من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته فيكبك الله على وجهك فى النار » (٣) . وحينما توجهت الجيوش الاسلامية الى بلاد الشام خطب أبو بكر فى الجند فقال : « لا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه » ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لماكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شئ فاذكروا اسم الله » .

(١) آدم متر : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٩ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٧ .

يستحيل على المسلمة - كما ذكرنا في الزواج من غير المسلم ، أما الرجل فهناك موانع تمنع زواج المسلم من غير المسلمة ، كأن تكون المرأة المراد الدخول بها مجوسية أو وثنية أو زنديقة لا تنسب الى نبي ولا الى كتاب . ويقول الغزالي ان المرأة المسلمة يجب ألا تكشف جسمها للذمية في الحمام ، وهو يرى أن ذلك قد يحدث في الحمام الذي يغشاه الذميون والمسلمون ، والرجال والنساء على السواء (١) .

خضع أهل الذمة لقضاتهم في المسائل التي تخصهم ، أما المسائل التي يشترك فيها أهل الذمة والمسلمون فقد كان القضاة المسلمون ينظرون فيها .

إذا أسلمت زوجة الذمي وهي ما تزال تحته وكانت حاملا في الوقت ذاته حقت لها النفقة حتى تضع حملها ، فان أرضعته كان لها أجر الرضاع ، وإذا أسلم أحد الوالدين أعتبر الأولاد الذين دون الحلم مسلمين . ولا يوافق الشافعي على ما يذهب اليه البعض من أن الأولاد الذين يولدون قبل اسلام أبويهم يبقون على غير الاسلام حتى يقفوا على أسرار الدين فيعتنقونه من تلقاء ذاتهم ، وإذا أسلمت زوجة الذمي بعد دخوله بها فلها المهر كاملا غير منقوص ، أما اذا كان اسلامها قبل أن يدخل بها الذمي تقاسمته واياه مناصفة . ويحتم الشافعي على الذمية التي تتزوج مسلما أن تراعى بعض شروط الاسلام كالوضوء والا جردت زوجها من حقوقه (٢) .

وإذا طلق المسلم زوجته النصرانية ثلاث مرات ، ثم تزوجت نصرانيا ثم طلقها ذلك النصراني حل للمسلم الزواج منها مرة أخرى بعد انقضاء عدتها ، وإذا أسلمت جارية النصراني حيل بينها وبينه وأعتقت عند موته . أما اذا أسلمت زوجة النصراني وزوجها غائب في سفر طويل ، فلها أن تنتظر عودته ، لعله يسلم هو الآخر ، أو تتزوج غيره ان أحببت (٣) .

(١) احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٢) الشافعي : كتاب الام ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) ترمذ : اهل الذمة في الاسلام ص ٢٠٢ .

ويرى الفقهاء أنه إذا اقترف المسلم الفحشاء أو زنا بامرأة ذميمة وقع عليه الحد ، أما المرأة فترد الى أهل دينها فيحكمون عليها بما يرون ، ولا يحق للحاكم الاسلامي اتخاذ أى اجراء آخر ، اذ أن ذلك يعد تدخلا فى شئون أهل الذمة . أما اذا اقترف النصراني الفحشاء فانه لا يؤخذ بالشدة التى يؤخذ بها المسلم ، فلا يطبق عليه الشرع من حيث الحد .

وإذا أقسم النصراني ألا يقرب زوجته أربعة أشهر ثم احتكما فى نهاية المدة الى القاضى المسلم أجرى القاضى حكم الشرع الاسلامي ، واذ ذاك يكون له أن يقضى بالعودة الى بيت الزوجية أو بالتفرقة بينهما بالطلاق ، ويشير الشرع على الزوج أن يدفع لزوجه تعويضا ، الا أنه لا يملك من القوة ما يرغمه على التزام الحكم بالتعويض . أما اذا قذف النصراني زوجته فرافعه وتحاكما الى القاضى قضى لهما كما يقضى بين المسلمين ، فان رفض الزوج الخضوع للحكم عزر ولم يحد ، اذ ليس ثم حد على قاذف النصرانية (١) واذا ارتكبت جارية الذمى جريمة عرض على صاحبها أن يعتقها بقيمتها اذا كانت الجناية أكثر من قيمتها ، وان كانت أقل لم يكن عليه الا الذى هو أدنى ، فان أبى أسلمها بجنايتها .

تحدث أبو يوسف عن « الحكم فى المرتد عن الاسلام » ، فقال : « وأما المرتد عن الاسلام الى الكفر فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك ، فقال : « وأحسن ما سمعنا فى ذلك والله أعلم أن يستتابوا ، فان تابوا والا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة ، وإما كان عليه من أدركناه من الفقهاء » (٢) .

واتفق الأئمة على قتل المرتد عن الاسلام ، بيد أنهم اختلفوا حول المدة التى ينفذ بعدها الحد فيه ، فيقول أبو حنيفة انه يجب قتله فى الحال ، ولا يتوقف على استتابته ، وان يكن بعض أتباعه يرون أن يسهل ثلاثة أيام ، ويقول مالك : ان المرتد يجب أن يستتاب ، فان تاب فى الحال قبلت توبته وان لم يتب أمهل ثلاثة أيام لعله ينيب ، فان تاب كان بها والا قتل . أما

(١) الشافعى : كتاب الام ح ٤ ص ١٨٤ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٠٩ .

أحمد بن حنبل فله رأيان في هذه المسألة يتفق أولهما مع مذهب الامام مالك ، وثانيهما يقول انه لا تجب الاستتابة ، كذلك اختلفت الروايات عنه في وجوب الامهال .

أما اذا ارتدت المرأة عن الاسلام فيرى أبو حنيفة حبسها ولا يجيز قتلها ، ثم تدعى الى الاسلام وتجبر عليه ، على حين يرى غيره من الفقهاء وجوب معاملتها معاملة الرجل المرتد (١) .

وإذا لحق المرتد - رجلا كان أو امرأة - بدار الحرب أعتبر في عداد الموتى ، وقسم ما خلفه بين ورثته ، وعتق عبيده وأمهات أولاده ، ويفرق بينه وبين امرأته ، ويحق لها الزواج بعد أن تعتد بثلاث حيضات منذ يوم ارتداده عن الاسلام ، وكل شيء يدخل به المرتد من ماله إلى دار الحرب فيصيه المسلمون فهو غنيمة بمنزلة الغنيمة في الحرب (٢) .

ويقول المؤرخ (آدم متز) (٣) حول ذلك : وكان تغيير الدين لا يجوز الا اذا كان دخولا في الاسلام ، فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض ، وكان المسلم اذا ارتد عن الاسلام عوقب بالقتل ، كما أن قانون الدولة البيزنطية كان يقضى بقتل المسيحي اذا هو غير دينه .

وكان تعديل الدين حائلا دون الوراثة ، وتجد الرواية الأصل التاريخي لهذا الحكم في قرار أصدره عمر بن الخطاب ، وذلك أن الأشعث طلب أن يرث أملاك عمته التي تزوجت يهوديا ثم ماتت بلا ولد ، فرفض عمر بن الخطاب طلبه ، ومن هنا جاء الحكم بحرمان ابن الذمي من أملاك أبيه اذا أسلم الابن ، كما تسقط ولاية الذمي على ابنته المسلمة في الزواج .

قال عمر بن عبد العزيز : أيما ذمي أسلم فإن اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فيء الله على المسلمين ، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن منهم أسلم كانت داره وأرضه لبقيتهم .

ومع أن فكرة استرقاق الذمي للمسلم مكروهة ، الا أن الفقهاء لم

(١) الشعراني : الميزان ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١١١ .

(٣) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٧ ، ٥٨ .

يستطيعوا أن ينكروا على الذمي حقه في شراء أى جنس من العبيد يقع عليه اختياره ، فالبيع شرعى ، لكن الشافعى يميل لحمل النصرانى على بيع عبده المسلم لرجل مسلم ، وعلى هذا فان اسلام العبد الذمي يرغم مولاه النصرانى أو قسيمه على بيعه أو بيع نصيبه فيه (١) ، واذا أسلم العبد الذمي وكان مولاه الذمي غائبا باعه السلطان ولم ينتظر عودة صاحبه .

ولا يجوز للمسلم أن يوصى بأى شىء للذمي ، ولكن يحق له أن يقبل ما يوصى به الذمي له ، لأن لم يكن فى تركته خمر أو خنزير أو ما يخاف أن يلتزم به الجزية واذا وهب الذمي مسلما هبة بعهد ثم حاول الرجوع فى هبته حكم عليها بحكم المسلمين وقضى على الذمي بالدفع ، أما اذا كانت الهبة من ذمي لذمي ، وبدا للموهب أن يرجع فيما وهب فلا يقضى بينهما . ولم يكن ينظر بعين الرضا لاستدانة المسلم مالا من نصرانى ، وهذا تطبيق للرأى القائل بأنه لا ينبغى أن تكون للذمي سلطة على المسلم (٢) .

ويسمح بالمشاركة بين ذمي ومسلم فى التجارة ، على أن يكون المسلم حاضرا جميع العمليات التى يقوم بها شريكه . ويرى مالك أن يستتجر المسلم عبده النصرانى ولا يأمره ببيع شىء . ويرى مالك أيضا أن ليس من الصواب للمسلم أن يستأجر بستانا من نصرانى على أساس المناصفة فى الربح ، رغم أنه يرى ألا بأس فى أن يدفع المسلم الى النصرانى كرمه مساقاة اذا لم يكن النصرانى يعصر حصته خمرا . واذا كان نصرانى ومسلم يمتلكان دارا واحدة ورجب المسلم فى بيع نصيبه كان للنصرانى حق الشفعة (٣) . ولا يجوز للذمي أن يجبى أرضا بورا ، فان أحيائها لم تكن له بأحيائها بل أخذ منها عمارتها فقط ، ولا يحل للمسلم أن يرتهن من الذمي خمرا أو خنزيرا . وينص عهد عمر بن الخطاب على أنه لا يجوز للذمي أن يبيع لمسلم خمرا أو يعرضها فى السوق ، ورأى الشافعى أنه اذا

(١) الشافعى : كتاب الام ح ٤ ص ١٢٢ .

(٢) اهل السنة فى الاسلام ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) الشافعى : كتاب الام ح ٤ ص ١٨٨ .

باع الذمي الخمر لمسلم فعلى الحكومة أن تبطل البيع ويبطل ثمنها إذا كان قد دفع ، وتهرق السائل ، وتعاقبت البائع (١) .

كانت ضريبة عشور التجارة تختلف باختلاف أديان التجار ، فكان يفرض على التاجر المسلم ربع العشر أى درهم عن كل أربعين درهما ، وعلى الذمي نصف العشر أى درهم عن كل عشرين درهما ، وعلى من لا ذمة له العشر (٢) . بشرط أن تزيد قيمة التجارة على مائتى درهم (٣) . ولا تؤخذ الضريبة من كل تاجر الا مرة واحدة كل سنة ، ولو تكرر قدومه بالتجارة الى البلدة ، كما لا تؤخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد أخرى ، وهذا ما نسميه اليوم بالضرائب الجمركية .

(١) المصدر السابق ح ٤ ص ١٢١ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٤٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٧ .

الفصل الخامس أهل الذمة في ظل التسامح الإسلامي

التسامح في الإسلام :

نعني بالتسامح الديني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقا ، وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء ، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء .

وينظر الإسلام الى الأديان الأخرى نظرة تسامح ، فقد سمي اليهود والنصارى أهل كتاب ، وسماهم أهل ذمة ، وهما تسميتان رقيقتان . والإسلام يعترف بنبو الأنبياء السابقين ، ونصح الإسلام المسلمين اذا دخلوا في جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين أن يجادلوهم بالحسنى، فقال الله عز وجل : (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم والها والمهم واحد ونحن له مسلمون) . كما قال المولى سبحانه وتعالى أيضا : (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

دعا الإسلام الى التسامح غير الذليل ، فهو يبنى العلاقات الانسانية سواء أكانت بين الأفراد أم كانت بين الجماعات على التسامح . وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - ضرورة دفع العداوة بالتي هي أحسن ، وأن هذا الدفع الكريم هو الذي يجلب المحبة . وأمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أن يصفح المسلم الصفيح الجميل عن يعاديه ، وقد طبق الرسول مبدأ التسامح في علاقاته بالمشركين وغيرهم في معاهداته وفي حروبه .

والصفح الجميل أبرز ما يكون ظهوره عند الانتصار ، فما كانت الحرب
فكثأر والانتقام ، بل لاعلاء الحق ودفع عدوان الباطل .

وبذلك يتبين أن التسامح والصفح الجميل هو السياسة الاسلامية
التي رسمتها النبوة في العلاقة بين الناس بعضهم مع البعض ، وخصوصا
بين المسلمين وغيرهم ، وهي السياسة المطلقة في حال السلم ، والسياسة
الشفافية للقلوب المجروحة في أعقاب الحرب .

ويدعو الاسلام الى أنه لا اكراه في الدين ، ويعترف الاسلام بما قبله
من كتب ساوية صحيحة وينصح الناس بالتعايش الاجتماعي السلمي ، ولا
ينال الاسلام من عقيدة الآخرين ، بل ينظر دائما الى أهل الذمة بعين الرعاية
والتسامح . والاسلام هو آخر أدوار التطور الديني للتسامي والتكامل
بالتطور الديني ، وهو دين يتجاوب مع أرفع النظم وأسمى التقاليد، ويدعو
الى الانسانية ، وهو حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها
من أجناس مختلفة ومن أهل ذمة في حرية وصفاء .

والاسلام يدعو أيضا الى تعاون أبناء المجتمع البشري جميعا دون
تفرقة عنصرية أو عصبية دينية ، ولا تفضيل أمة على أخرى ، الا
بالتقوى ، وما تحقق من منافع للبشرية ، ويدعو الاسلام الى الانسانية
والتعاون العالمي . وحارب الاسلام كل لون من ألوان العصبية ، فالعصبية
تدعو الى الصراع الاجتماعي ، وتفرق بين الناس . ويدعو الاسلام الى أن
يعيش العالم كله بشعوبه وعناصره في مجتمع واحد ، ويكفل الاسلام
الأمن والسلام ، والحرية والاخاء . فقد دعا الاسلام الناس ، مع دعوته
الى تكوين أخوة اسلامية قوية ، الى أخوة انسانية عامة شاملة .

ودعا الاسلام الى السلم في كافة أحواله ، واعتبر الحرب من اغراء
الشیطان ، ومن يسير فيها انما يسير في خطوات الشيطان ، وصرح بأن من
يلقى السلام لا بد من الامتناع عن قتاله ، ولقد صرح فوق ذلك بأن من
يلقى السلام لا يصح أن يقاتل بدعوى أنه غير مؤمن .

ان الهدف الأسمى للاسلام هو خلق مجتمع بشري صالح يعيش في
أمن وسلام . وهذا الهدف ليس نظرية خيالية ، ولكنه حقيقة عملية ، يعمل

الاسلام على تحقيقه ويسوس الناس لايجاده ، والعنصر الهام لضمان صلاح المجتمع وتقدم الانسانية هو طمأنينة الناس فى معاشهم وحياتهم حتى يتفرغوا لعمران الانسانية وتمدن العالم .

والاسلام دين يؤمن بالانسانية العامة الشاملة ، ولا يميل الى استخدام القوة والعنف ، وانما يدعو الى سبيل ربه بالموعظة والحكمة ويجادل الناس بالتى هى أحسن . ولجأت الدولة الاسلامية فى معظم فترات تاريخها الى سياسة التعايش الدينى من أجل تحقيق التعايش السلمى ، ذلك التعايش الذى ينشر المحبة والاخاء والتعاون والسلام ، مما يؤدى الى الانسانية فى أسى صورها ومعانيها .

حقوق الانسان فى الاسلام :

فتح الاسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حافلا ، بأروع جهاد عرفته الانسانية ، وبأعظم دعوة وصلت الى الأرض من السماء ، وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الانسان لأخيه الانسان ، مما اعترف به المفكرون والمؤرخون ودعاة الاصلاح .

لقد كانت رسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أول اعلان عالمى لحقوق الانسان ، وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، واصلاحا عاما شمل جميع ميادين الاصلاح (١) .

كانت حياة محمد مرحلة لها أثرها العميق فى تاريخ البشرية جمعاء ، فقد تكشفت عن دين رشيد ، وشريعة غراء ، وأمة مستعدة لحمل مشعل الحضارة ، وفلسفة فى الحياة تتميز بالنقاء والصفاء . واعترف الاسلام للانسان بحريته ، واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى ، ورفع من كرامة الانسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ، ويمحو منها الظلام والفضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والاخاء ، التى هى دعائم كل حضارة ومدنية .

(١) خفاجى : الاسلام وحقوق الانسان .

والاسلام يصون حقوق الانسان تماما ، فهو يؤكد حرية الرأي ، وحرية العقيدة ، وحرية الفكر ، ويحرر الانسان من الخوف ومن العوز ، ويضع شرائع تبطل الفروق بين الناس وتلغى الامتيازات الطبقية ، وتشر الاخاء والمساواة والمحبة بين الناس . ويصف الرسول عليه الصلاة والسلام الجماعة البشرية في حديث شريف ، فيقول : (الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله) ، ثم يوصى الرسول الكريم البشر بالأخوة فيقول : (كونوا - عباد الله - اخوانا) .

ضمن الاسلام حرية الاقامة لمن يستظلون برأيته ، وضمن حرية تقرير المصير لمن يخالفونه ، فقرر أنه لا يجوز للمسلمين أن يعتدوا على أحد . فالاسلام يدعو الى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، والى التعاون والاتحاد والشورى ، والى الأخوة العامة ، والزمالة البشرية ، والى المدنية والحضارة والرقى والثقافة ، والى روح الانسانية فى الفرد والجماعة والأمة ، والى تطبيق المثل العليا التى دعا الاسلام اليها .

ويعتبر الاسلام الناس جميعا أمة واحدة لا تفرقها الألوان ، ولا الأقاليم ، ولا الجنسية ، واذا اختلفت الأديان فان أهل كل دين لهم أن يدعوا الى دينهم بالحكمة والموعظة ، من غير تعصب أو اكراه . واذا كان الناس أمة واحدة فان أخوة الانسانية ثابتة يجب وصلها ، ولا يصح قطعها ، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب والمودة ، فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم .

والاسلام دين يتجه الى العقل ، ويوافق الميول الطبيعية فى الانسان ، وهو أول دعوة عالمية توفر المقومات لتعاون انساني عالمي ، وتحقيق الانسجام البشرى ، والاسلام هو حمام الأمن والسلام لحياة الانسان الروحية والمادية ، ويجد الانسان فى الاسلام من المرونة ومجابهة الواقع ، ومن النوعى الحقيقى الكامل للطباع البشرية ومطالب الحياة ، مما لا يجده فى غيره من الأديان أو النظم الوضعية .

وأثبت النظام الاسلامى الاجتماعى أنه النظام العالمى الوحيد الثابت . وفى التعاليم الاسلامية نجد أسس علاج المشاكل الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية التي تعاني البشرية منها في كل زمان ومكان .
فالاسلام مؤسس على قواعد عمرانية واجتماعية لا نظير لها في أى مذهب
دنيوى من المذاهب الحديثة . ومن مميزات الشريعة الاسلامية أن تعاليمها
ونصوصها تجمع بين البساطة والتعمق ، يفهمها العامة والخاصة . وهذه
الشريعة الغراء تتمشى مع تطور الحياة الاجتماعية .

والتعاليم الاسلامية ، وحضارتها ونظمها ، تقوم على أساسين
رئيسيين : أساس روحى أو عاطفى ، وأساس عقلى أو منطقى . وقد جعل
الاسلام العقل حكما فى كل شئ ، والنظم الاسلامية تستند الى العقل .
ويكفل الاسلام للمسلمين وغير المسلمين السعادة فى حياتهم ، ويضمن
لهم التكافؤ الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية .

تحدث (ماسينيون) عن مبادئ المساواة فى الاسلام فقال :
يستاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد
الشعب بالعبء فى موارد الجبابة . وللإسلام ماض بديع من تعاون
الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام ، ماض كله
التوفيق فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط
المساواة فى الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الاسلامية
الكبرى فى افريقية والهند والهند الشرقية ، والجماعات الاسلامية فى
الصين واليابان ، على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى
لا سبيل الى التوفيق بينها .

موقف اهل الذمة من الفتوحات الاسلامية :

اختلف المستشرقون فى العوامل التى أدت الى سياسة الفتح التى
اتبعتها الخليفتان الأولان ، أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فبعضهم
يرى أن الرسول كان يسعى الى انشاء امبراطورية اسلامية عالمية ، وكانت
حملة أسامة بن زيد التى أعدها قبل وفاته بقليل أول خطوة لتنفيذ هذه
السياسة التى أتمها أبو بكر وعمر . فيرى (دى غويه) أن هناك ثلاثة أسباب
دفعت أبا بكر الى الفتح ، أولها رغبة محمد فى نشر الاسلام بين كل العرب ،

داخل الجزيرة العربية وخارجها • وثانيهما رغبة محمد في أن يسود الاسلام العالم • وثالثها رفض كسرى الفرس وقيصر الروم قبول الاسلام لما دعاها الرسول الى ذلك في كتبه التي بعثها اليهما • ويردد بعض المستشرقين أن العوامل الاقتصادية هي الأسباب المباشرة للفتوحات العربية الاسلامية •

من اليسير الرد على آراء هؤلاء المؤرخين المستشرقين ، فهناك نصوص صريحة في القرآن الكريم تدل على أن الله بعث رسوله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وفي الحديث ما يدل على ذلك أيضا ، ولو مد الله في عمر رسوله لكان الرسول أول من جهز الجيوش لفتح الأمصار التي حوله • ويؤيد (أرنولد) (١) حقيقة عالمية الدين الاسلامي ، فيقول : لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل ان للعالم أجمع نصيبا فيه ، ولما لم يكن هناك غير اله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة •

قال الله تعالى : (ان هو الا ذكر للعالمين • ولتعلمن نبأه بعد حين) (٢) ، كما قال عز وجل : (ان هو الا ذكر وقرآن مبين • لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) (٣) ، وقال سبحانه وتعالى أيضا : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٤) •

من مميزات الاسلام ملاءمته لجميع الأجناس البشرية ، فلم يكن العرب وحدهم هم الذين أتبعوا الاسلام ، فقد أكد الاسلام منذ الساعة الأولى لظهوره أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، واذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في انسان عن آخر ، وهو لكل ذلك صالح لكل درجة من درجات الحضارة (٥) •

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٤٨ - ٥٠ •
 (٢) سورة ٢٨ آية ٨٧-٨٨ •
 (٣) سورة ٢٦ آية ٦٩-٧٠ •
 (٤) سورة ٢٤ آية ٧ •
 (٥) ايتين دينية : محمد رسول الله ص ٢٤٥ •

يزعم المستشرق المتعصب (وليم ميور) أن الدين الاسلامي لم يهيا
 الا لبلاد العرب ، ولكن هذا يتنافى مع ما نعلمه من أن الرسول كان يهدف
 الى نشر الاسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، فهو مؤمن
 تماما أن الاسلام يصلح لجميع البشر ، فقد تكفل القرآن الكريم بتبيان
 كل شيء ، فقد قال الله عز وجل لرسوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل
 شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (١) ، كما قال سبحانه وتعالى :
 (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (٢) .

لم تكن العوامل الاقتصادية ، كما يزعم بعض المستشرقين ، اذا هي
 دوافع الفتوحات الاسلامية ، فلا شك أن الدافع الأول للفتح هو نشر
 الاسلام ، كما كان غرضها دفاعيا أو لصد هجوم متوقع ، لينفسح الطريق
 أمام الدعوة .

دخل الفاتحون العرب بلاد الشام فوجدوا قوميات مختلفة ، فقد
 تعاقبت على هذه البلاد مدنات مختلفة فأورثتها علمها وحضارتها وقوميتها،
 وأمن العرب الفاتحون أهالي الشام ، على اختلاف قومياتهم ، على أنفسهم
 وأموالهم ، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تماما هذه السياسة . بل
 ان العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم ، وهم الذين جابهوهم
 بالحرب . وقابلوهم بالقوة ، فانهم لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم
 البعيد أن يتألفوهم في دعوتهم ، وأن يضموهم الى قوميتهم ، وأن يطوؤهم
 في دينهم بقدر الامكان ، فلذا فهم لم يخرجوهم من الشام أسرى
 مقيدين (٣) . ولا شك أن هذا اليسر والتسامح قام بدور كبير في
 التقريب بين الفاتحين والأهالي ، فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من
 فوقهم ، مما أدى الى اقتراب القوميات ثم امتزاجها ، كما مهد الطريق أمام
 انتشار الاسلام ، والتقريب الجنسى واللغوي .

وكان للفتح العربي الاسلامي لبلاد العراق أثر كبير في أهالي هذه
 البلاد ، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب ، ووجدوا فيهم المنقذ

(١) سورة النحل ١٦ آية ٨٩ .

(٢) سورة الانعام ٦ آية ٣٨ .

(٣) انظر عهد عمر لاهل بيت المقدس في تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٠٥ .

المنشود الذي يخلصهم من ظلم دولة الأكاسرة الساسانيين (١) . وان كان بعض الفرس قد وقفوا الى جانب كسرى في قتاله للعرب ، الا أن غالبية الفرس كانوا زاهدين في المظاهر القومية ، اذ قد ضعفت معاني الاستقلال في نفوسهم : وهم بما صاروا اليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم في يد كل من يعمل على تيسير سبل المعيشة لهم (٢) . كما وجدوا في الفتح العربي خلاصا من الخدمة العسكرية ، وأملوا في تمتعهم بالحرية الدينية . هذا بجانب المميزات الأخلاقية التي تمتع بها العرب الفاتحون .

رحب أهالي مصر بالفتح الاسلامي ، وأتبع الفاتحون العرب سياسة التسامح حتى يجيبوا سكان مصر في الحكم العربي الاسلامي الجديد . وكان هؤلاء السكان طبقتين : الأقباط والروم . أما الأقباط فقد أتاح لهم العرب المسلمون الحرية والأمان ، بل ان الاسكندرية رغم أنها نقضت الصلح مع المسلمين ، ورغب الجند العرب في جعلها فيئا للمسلمين لأنهم فتحوها عنوة ، لكن عمر بن الخطاب أبى ذلك وأمر عمرو بن العاص ألا يجعل فيئا ولا عبيدا (٣) . أما الروم الذين قاتلوا المسلمين ، فقد خيرهم المسلمون بين أن يدخلوا في ذمتهم وبين أن يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مصر فلا يعودوا اليها (٤) . أما طبقة الروم المسالمة ، فقد عوملوا معاملة الأقباط . وهناك طبقة ثالثة من الروم كان لها النفوذ قبل الفتح ، وعلى رأسهم المقوقس الذي كان يطمع في حكم مصر باسم المسلمين كما حكمها من قبل باسم القسطنطينية ، ومنهم القائد كلاجي والقائد سبنديس اللذان انضموا الى المسلمين ، وقد استعان العرب بهذه الطبقة في الحكم والادارة (٥) .

لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الأردن ، كتب الأهالي المسيحيون الى

- (١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .
- (٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٠٢ .
- (٣) ابن عبد الحكم : فنوح مصر ص ٧٥ .
- (٤) الطبري ج ٣ ص ٩ .
- (٥) بنلر : فتح العرب لمصر ص ٢٣٥ و ٢١٤ .

المسلمين يقولون : « يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » . وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الروم وتعسفهم .

ولما عقدت دمشق الصلح مع العرب المسلمين ، ولمست سائر مدن الشام تسامحهم وعدلهم ، أسرع أهالي هذه المدن إلى طلب الصلح مع العرب ، وكان خوف هؤلاء الأهالي من أن يكرههم الامبراطور الروماني على اتباع مذهبه ، ووعد المسلمين لهم بمنحهم الحرية الدينية من عوامل ترحيبهم بالفتح الاسلامي وعدم الارتباط بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية (١) .

تحدث المستشرق (كاتاني) عن موقف المسيحيين من الفتح الاسلامي ، فقال : قبل السكان عن ارتياح واضح تغيير الحكومة ، وذلك بمجرد أن علموا أن العرب المسلمين سيحترمون حقوقهم الشخصية ، وسيتركون لهم الحرية العامة في إقامة شعائرهم الدينية . وفي الشام أسرع مدن ومقاطعات باكسلها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقع هزيمة الروم النهائية . وفي العراق قبل أهلها الحكم الاسلامي دون قيد أو شرط .

مظاهر التسامح الاسلامي مع أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة بالحرية والتسامح والعدل ، مقابل أداء جزية عادية معقولة ، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لا تمس المسلمين ، أما الشريعة الاسلامية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم . وتعهد المسلمون لأهل الذمة بحمايتهم وتوفير العدل والسلام لهم ، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ، فكانوا لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية ، بينما هم معفون من الزكاة

(١) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٨٨ .

والصدقات • وكانت الجزية تساوى ما يدفعه المسلم من صدقة ، وأعفى من الجزية الصبيان والنساء والمساكين وذوى العاهات والرهبان •

كتب ميخائيل الأكبر بطريق أنطاكية اليعقوبى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر يشيد بمعاملة المسلمين للمسيحيين وقت ألفتوحات الاسلامية ، فتحدث عن اضطهاد هرقل لأهالى الشام ثم قال :

« .. وهذا هو السبب فى أن اله الانتقام الذى تفرد بالقوة وبالجبروت والذى يديل دولة الشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء لما رأى شرور الروم الذين لجأوا الى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء اسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم .. لم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام » •

وقد حوى تاريخ الخلفاء الراشدين أمثلة كثيرة للتسامح الدينى نحو أهل الذمة ، وكثيرا ما كان هؤلاء الخلفاء يوصون الجند الفاتحين بالتعاليم الحكيمة • وهم فى ذلك يحتذون حذو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد منح الرسول أهالى نجران من النصارى عهدا حوى احترام منشآت النصارى ، ثم قال لمعاذ بن جبل عند توجهه الى بلاد اليمن :

« لا يزعج يهودى فى يهوديته » •

ويدخل فى نطاق التسامح ، عهد الصلح التى أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التى اندمجت فى الاسلام ، وبموجبها كانوا فى مقابل دفع الجزية - يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية فى حرية تامة وتسامح كبير • كما أبدى المسلمون تساهلا كبيرا فى المعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الذمة •

وضرب المؤرخ (أرنولد) كثيرا من الأمثلة التى تثبت تسامح المسلمين ، ثم قال : ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون الى العرب المسيحيين فى القرن الأول من

الهجرة ، واستمر في الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام ، انما فعلت ذلك عن اختيار و ارادة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح .

ويصف (أرنولد) موقف المجتمع الاسلامى من المسيحيين فيقول :
ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى ، تمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء .

كانت أهداف الدولة الاسلامية تخالف أهداف غيرها من الدول ، فالدول كانت ولا تزال تهدف الى سيادة شعبها على غيره من الشعوب ، مما يؤدي الى الحروب والصراع . أما الدولة الاسلامية فكانت لا ترمى في أهدافها الا الى تبليغ الدعوة الاسلامية ، ولم يكن يقصد من هذه الدعوة سيادة شعب على شعب ، ولا طمع في ملك أو امارة ، وانما كان يقصد منها الدعوة الى توحيد الله ، والى الحكم بالعدل بين الناس ، وهما غايتان من أشرف الغايات .

ونصح الاسلام المسلمين بأنهم اذا دخلوا في جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين بأن يجادلوهم بالحسنى فقال الله عز وجل (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنأ والهكم واحد ونحن له مسلمون) . ونرى في العهد المدنى فى أول الأمر مثل قوله سبحانه وتعالى : (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن أتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) . كما قال الله عز وجل (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) .

اعتراف المستشرقين بتسامح المسلمين :

الحقيقة التاريخية هي أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية تماما ، فضلا عن حسن المعاملة ، فقد كان التسامح هو شعار الاسلام ، ولم يكن الفتح العربي حربا صليبية مثل الحروب الصليبية التي شهدتها بلاد الشام وبعض بلدان الشرق العربي ويدلل (توماس أرنولد) (١) على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة ، وهو البطريق النسطوري (يشوع ياف الثالث) كان قد بعث بها الى رئيس أساقفة الفرس ، وقد تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التي أتبعها العرب في نشر الاسلام ، فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تفل عما كانوا يدفعونه الى ساداتهم السابقين من الفرس والروم من الضرائب (٢) ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونه على المسلمين من عقوبات لشرب الخمر (٣) .

اعترف معظم المفكرين المسيحيين بأن العرب المسلمين عاملوا دائما غير المسلمين معاملة تنطوي على التسامح ، وقد عاش المسلمون والذميون جنبا الى جنب في مجتمع واحد تربطه صلات المودة والمحبة والتعاون ومن هؤلاء المفكرين (جولد تسيهر) الذي قال : ان ما يشاهد اليوم من تسامح الحكومات الاسلامية يرجع الى ما كان في النصف الأول من القرن السابع الميلادي من مبادئ الحرية الدينية ، التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية . وروح التسامح في الاسلام قديما ، هي تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضا ، كان لها أصلها في القرآن : (لا أكراه في الدين) .

أشاد معظم المستشرقين بحسن معاملة المسلمين لأهل الذمة ، فيقول (أرنولد) (٤) أن المسلمين لم يألوا جهدا في معاملة رعاياهم من المسيحيين كما أكد (باروتولد) (٥) أن النصارى كانوا أحسن حالا تحت حكم

- (١) الدعوة الى الاسلام ص ٧٥ .
- (٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .
- (٣) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٦٦ .
- (٤) الدعوة الى الاسلام ص ٦٥ .
- (٥) الحضارة الاسلامية ص ١٩ - ٢٠ .

المسلمين ، اذ أن المسلمين - كما يذكر جولد تسيهر - اتبعوا في معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل . ويذكر (شد) أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح . ويمتدح (جوزى) (١) بنى أمية لأنهم ساووا بين طبقات الفرس وعاملوا أهل الذمة معاملة حسنة .

لم يكن النظام المالى الذى عومل به أهل الذمة فى العصر العربى الاسلامى قاسيا أو ظالما فذكر (فون كريسر (٢) أنه لم يلاحظ فى نظام الضرائب شيئا مجسعا ، ويرى (فان فلوتن) (٣) أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترعى وتوطيد الأمن وما الى ذلك من ضروب الاصلاح ، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقابا لأهل الذمة ، فهى نظير اعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم ، وقد فرض الاسلام على المسلم الزكاة حتى يتكافأ الذمى والمسلم فى الواجبات . وكان نظام الجزية عادلا ، كان حسب مقدرة الفرد المالية ، ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال ، كما أعفى النساء والصبيان وذوى العاهات والرهبان ، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء .

قال (جان مليا) : الاسلام دين سماوى ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وأكثر الأديان تساهلا . وتحدث الكاتب الانجليزى (برنارد شو) عن الاسلام فقال : ان أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وبدأت تعشق دينه ، كما أنها ستبرىء العقيدة الاسلامية مما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا فى العصور الوسطى ، وسيكون دين محمد هو النظام الذى يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات والمشكلات ، وان كثيرين من مواطنى ومن الأوروبيين الآخرين

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٥ .

(٢) الحضارة الاسلامية ص ٨٢ .

(٣) السيادة العربية ص ٢٠ .

يقدمون تعاليم الاسلام، ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول أن بوادر
العصر الاسلامي الأوروبي قريبة لا محالة .

وخلاصة القول : نادى الاسلام بالحرية والأخاء والمساواة ، ورسم
وسائل تحقيقها ، وأقام موازين الحق والعدل والانصاف ودعا الى التعاون
على البر والخير والاصلاح ، كل ذلك في ظل المحبة والوئام والسلام
العام .

الفصل السادس

أهل الذمة في مجتمع صدر الإسلام

اقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام :

أدى الإسلام الى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخرى في الأمصار المفتوحة . فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التي كانت تسكن الأمصار ما تحتاجه من المثل العليا التي اكتسبوا بها من الحسنة ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله . وقد منحت هذه المثل العليا أهالي الأمصار مشاعر مشتركة وآمالاً مشتركة وإيماناً يندفع به كل واحد من أبنائها في التضحية بنفسه في سبيل نصره . وكانت الدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم الدين والتي اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية (١) .

هل نشر العرب الإسلام بالقوة وخذ السيف ؟ والجواب بالنفي ، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة ، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم واختيارهم (٢) فانه من المستحيل أن يفوز الإسلام بقلوب الناس بالسيف . ويعترف (جوستاف لوبون) (٣) بذلك فيقول : « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم » . ولم يعمل العرب لنشر الإسلام ، ولم يكن عندهم مبشرون ، ولا كانوا يحسنون التبشير ، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الذين أسلموا والذين تعلقوا بالتبشير من المسيحية .

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٧١٨-٧١٩ .

(٢) أرنولد : الدعوة الى الإسلام ص ١٨٢ .

(٣) حضارة العرب ص ٧٢٠ .

ما أسباب الانتشار السريع الذي صادف الاسلام .

يعمل (جوستاف لوبون) (١) هذا الانتشار السريع بسهولة الاسلام التي كانت سر قوته ، فهو يخلو مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ، وكل مسلم يستطيع أن يعرف أصول الاسلام في بضع كلمات سهلة ، على عكس المسيحي الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث وغيره من الغوامض التي لا يعرفها غير علماء اللاهوت .

أما المؤرخ (ستانلي لينبول) فهو يتساءل عن سبب سرعة انتشار الاسلام بين أهل الذمة : هل هو القانون الأخلاقي الذي تحويه العقيدة ، وما يعد الاسلام المؤمنين به من جنات . ولكن (لينبول) يعود فيقول أن هذه الأسباب كلها كافية لتعلق عدوا قويا ، فلم تكن ولكن العامل الأول في سرعة الانتشار هو أن الاسلام لم يقابل عدوا قويا فلم تكن اليهودية أو المسيحية بالقوة التي تحول دون انتشاره ، بل لم يكن هناك ما يمنع هذا الانتشار ، وكان هذا سبب انتصار الاسلام ، هذا بجانب ما جواه الاسلام من مبادئ وتعاليم سامية .

ويعمل المؤرخ (دودي) (٢) اقبال أهل الذمة على الاسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة ، مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة . أما (توماس أرنولد) (٣) فيرجع سبب انتشار الاسلام الى عاملين : أولهما نجاح العرب الواسع الذي زعزع عقيدة المسيحيين ، فقد رأى أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الالهي . أما العامل الثاني ، فهو ما كان ينادى به الاسلام من مثل عليا ترمى الى أخوة المؤمنين كافة في الاسلام .

وينفى (أرنولد) (٤) تماما أن يكون الاضطهاد هو الدافع لأهل

(١) حضارة العرب ص ٥٨ .

(٢) نظرات في تاريخ الاسلام ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٧٠ .

(٤) الدعوة الى الاسلام ص ٨٨ .

الذمة على اعتناق الاسلام ، فيقول : « واذا نظرنا الى التسامح الذى امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق » . وينسب (أرنولد) اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام ، الى عاملين أولهما تدهور الكنيسة وثانيهما اعجاب أهل الذمة بالعقيدة الاسلامية ، فيقول : « ويرى كثير من علماء اللاهوت المسيحيين أن حالة الكنيسة الشرقية التى تدهورت فى ذلك الوقت — من الناحيتين الخلقية والروحية — لا بد أن تكون قد دفعت كثيرين الى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح فى ذلك الدين الاسلامى الذى جاءهم وهو فى أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وغنفا » .

ويرى المستشرق الايطالى (كايثانى) أن اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام كان بسبب سوء أحوال الكنيسة الشرقية ، وتعقيد التعاليم المسيحية ، فيقول : « ان انتشار الاسلام بين نصارى الكنائس الشرقية انما كان نتيجة شعور باستياء من النفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهيلينية الى اللاهوت المسيحى . أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية ، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية الى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة ، مليئة بالشكوك والشبهات ، فأدى ذلك الى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما أهلت آخر الأمر أبناء الوحي الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى تمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد — أى الاسلام — الذى بدد كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا

مادية جلية الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل .
 وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتضى فى أحضان نبي بلاد العرب « (١) » .
 وأوضح المؤرخ (كانون تايلور) (٢) فساد العقائد المسيحية ،
 وبين كيف نجح الاسلام فى الخلاص من هذا الفساد فقال : « كان أئمة
 اللاهوت فى افريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية
 عويصة ، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد
 بتوضيح فضل العزوبة فى السماء وسمو البكورية الى مرتبة الملائكة .
 فكان اعتزال العالم هو الطريق الى القداسة ، والقدارة صفة لطهارة
 الرهبنة . وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء
 والقديسين والملائكة ، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد،
 والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم
 ولا مستقبلهم . فأزال الاسلام ، بعون من الله ، هذه المجموعة من
 الفساد والخرافات . لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة
 وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى . ولقد بين
 الاسلام أصول الدين التى تقول بوحداية الله وعظمته ، كما بين أن الله
 رحيم عادل يدعو الناس الى الامتثال لأمره والايمان به وتفويض الأمر
 اليه . وأعلن الاسلام أن المرء مسئول ، وأن هناك حياة آخرة ويوما
 للحساب ، وأعد للإشرار عقابا أليما ، وفرض الصلاة والزكاة والصوم
 وفعل الخير ، وتبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات
 الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين فى الدين ، وأحل الشجاعة محل
 الرهبة ، ومنح العبد رجاء ، والانسانية اخاء ، ووهب الناس ادراكا
 للحقائق الأساسية ، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية » (٣) .

ويؤكد المؤرخ (توماس أرنولد) (٤) أنه لم تحدث محاولة واحدة
 لارغام أى ذمى على اعتناق الاسلام ، فيقول صراحة : « لم نسمع عن

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) ألقى (كانون تايلور) هذا البحث فى مؤتمه الكنائس فى (ولفير هامبتون) فى

٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧ .

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٩٨ .

(٤) الدعوة الى الاسلام ص ٩٨ - ٩٩ .

أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ، أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى • ولو اختار الخلفاء تنفيذ احدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند وايزابلا دين الاسلام من أسبانيا ، أو الذى جعل به لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتى مذهباً يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة • وكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انزلت انزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحاء أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين • ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم » •

اعتنق كثير من أهل الذمة فى صدر الاسلام العقيدة الاسلامية ، ويسكننا أن نكون فكرة عن تحول جموع كثيرة من أهل الذمة الى الاسلام ، اذا علمنا أن ايراد الضرائب فى عهد عمر بن الخطاب كان يتراوح بين مائة مليون ومائة وعشرين مليون درهم ، بينما هبط فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، أى بعد حوالى خمسين عاماً ، الى أربعين مليون درهم •

تعلم اهل الذمة اللغة العربية :

أقبل معظم أهل الذمة على تعلم اللغة العربية ، مما أدى الى التقارب بينهم وبين العرب المسلمين وسائر أهالى الأمصار المفتوحة • واللغة ليست كلمات أو حروف ، بل هى تعبير وشعور ، ووحدة اللغة تؤدى الى وحدة الثقافة ، والى الوحدة العقلية والنفسية ، مما يحقق شخصية عربية واحدة • وأدى تعميم استخدام اللغة العربية فى هذه الأمصار الى اندماج سائر الأجناس على اختلافها اندماجاً قوياً فى الحياة القومية التى كان يحيهاها العنصر العربى الحاكم (١) . اذ ربطت اللغة العربية جميع

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٦٨ •

البلاد برباط معنوى (١) كما أن أهل الأمصار وقد أصبحوا شعبا اسلاميا فانهم كانوا يزدادون اسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن (٢) .

أقبل أهل الذمة على تعلم اللغة العربية واثقانها . فقد كانت رغبة هذه العناصر فى قراءة القرآن الكريم ، دستور الدولة العربية الاسلامية وتولى المناصب من العوامل التى دفعتهم الى اجادة اللغة العربية (٣) كما كانت رحمة العرب الفاتحين بأهل الذمة وتسامحهم من العوامل التى شجعتهم على اتقان اللغة العربية والتسك بالنظم العربية (٤) .

كان قيام امارة الحيرة العربية على حدود الدولة الفارسية ، و امارة الغساسنة العربية على حدود الدولة الرومانية ، عاملا هاما على بقاء العروبة واللغة العربية والتمكين لها ، وكانت الامارتان قبل الفتوحات الاسلامية على صلة دائمة بالجزيرة العربية .

هل انتشرت اللغة العربية بالقوة وحد السيف .

والاجابة على هذا السؤال بالنفى ، بل سار العرب فى نشر لغتهم على نفس المنهاج الذى ساروا عليه فى نشر دينهم فلم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها ، بل ساروا فى نشر لغتهم بتعقل وروية ، وراعى المسلمون سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة ، كما عملت فى العناصر ، فبقى ما هو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم ومالهم (٥) .

ويرى المؤرخ (بارتولد) (٦) أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ، ويذكر أن تسامح العرب أدى الى انتشار اللغة العربية اذ أن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس .

- (١) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٥٠ .
- (٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١١ .
- (٣) حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٩ .
- (٤) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢٠ .
- (٥) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٨٠ .
- (٦) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ٢٠ .

وكان أهل الذمة مضطرين الى تعلم اللغة العربية ، فقد كانوا يتصلون بالعرب المسلمين في شئون الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، كما أدى تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الى انتشار العربية على نطاق واسع بين أهل الذمة ، فقد كان عليهم اتقان هذه اللغة حتى يحتفظوا بوظائفهم •

تحدث (توماس أرنولد) (١) عن نتائج انتشار اللغة العربية بين أهل الذمة فقال : « كان لتعميم استعمال اللغة العربية في كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الاسلامية ، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان ، كما كان كذلك للتماثل الذي تم تدريجيا في الأخلاق والعادات ، والذي أدى في خلال ما يقرب من قرنين الى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم — كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين • ومن المحتمل جدا أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الاسلامية تأثيرا بالغا ، ابتداء من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة ، قد أثرت في المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح في ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية » •

فرضت اللغة العربية كتابتها على الفرس وغيرهم ، وقضت نهائيا على الألف باء القديمة لهذه اللغات القديمة • فقد اقتبست اللغة الفارسية ثلث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها الى مجموعة كلماتها الهندو — أوروبية (٢) وكان الزرادشت هم أول من اتخذوا الحروف العربية ، وأوجدوا لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية (٣) •

أدت اقامة العرب في المدن الاسلامية الجديدة في الأمصار المفتوحة انى امتزاجهم بأهالى البلاد وأهل الذمة ، فقد تعاونوا جميعا في الحياة

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٦٢ •

(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٢ - ١٣ •

(٣) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ٦٨ •

الاجتماعية والاقتصادية ، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا في سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الاسلام (١) .

اقبال اهل الذمة على الحضارة الاسلامية :

ترتبط الحضارة البشرية بالدين ، بل هي من خلقه ومن نتائجه ، فالأديان ليست نظرية فلسفية أو مجرد عقائد أو أعمالا يختص بمعرفتها فريق من البشر دون فريق آخر ، بل هو وجود اجتماعي واضح يقوم على أقدار مشتركة من العلم والعمل والعقائد ، يشارك الأفراد فيها جميعا .

وكان ظهور الاسلام ايدانا بظهور حضارة اسلامية عريقة ، فقد عمل الاسلام على تخليص البشر من شوائب ورذائل الجاهلية ، ومنح الناس مثلا عليا في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وأثار أمامهم السبيل ليصلوا الى الرخاء والى السعادة والرفاهية . وانتشرت مراكز الحضارة في العالم الاسلامي ، فكانت هناك دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وانتقلت الحضارة من الشرق الاسلامي الى القارة الأوروبية بطريق بلاد الأندلس وجزيرة صقلية ، ونتيجة اختلاط الشرقيين بالأوروبيين خلال الحروب الصليبية وفي التجارة . وحرصت الحضارة الاسلامية على التجديد والابتكار ، وتجنبت التقليد والمحاكاة ، وأصبح الشرق الاسلامي أستاذا لأهالي أوروبا ، واعترف المفكرون الأوروبيون بذلك .

أصبح الطابع البارز للحضارة الاسلامية هو تقديس حرية الفكر ، واعزاز حرية الانسان وكرامته ، وتشجيع العلم والمعرفة والنظام ، والمساواة بين الناس جميعا في ظلال أخاء شامل وعدل تام ، وروحانية صافية ، واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

كانت الحضارات زمن الفتح العربي الاسلامي متقاربة في مختلف

(١) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ٩ .

المواطن ، فالحضارة الاغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالها السياسى والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل (١) .

وكان الطريق ممهدا أمام امتزاج الحضارات ، ولما كان العرب المسلمون وقت الفتوحات أميين فقد اعتمدوا على أهل الذمة فى الادارة والكتابة والشئون المالية ، مما أدى الى حتكاك واتصال أهل الذمة بالحضارة العربية الاسلامية .

وتميزت الفتوح العربية بطابع خاص ، لا نجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب ، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الرومانى ، والترك وغيرهم ، وان استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة ، الا أنهم لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، وتمكنوا من حمل العناصر المختلفة الموجودة فى الأمصار على اعتناق دينهم وتعلم لغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة ، ولذا ظل نفوذ العرب بها ثابتا (٢) .

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات العربية الاسلامية حضارة عظيمة ، ويرجع سبب عظمتها الى عاملين : أولهما بيئة العرب الحديثة التى تتيح للعرب فرصة التحضر والتمدن ، وشتان بين الهلال الخصيب فى العراق والشام ووادى النيل وبين صحراء الجزيرة العربية . والعامل الثانى ذكاء العرب وحضارتهم الاسلامية وثقافتهم الأولى ، فقد استطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التى وجدوها فى الأمصار المفتوحة ، فى حين فشل غيرهم من الفاتحين ، كالبرابرة مثلا ، فى هضم ما بقى من الحضارة اللاتينية (٣) .

(١) عمر أبو النصر : الحضارة الاموية ص ١٩٤ .

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢١ .

يرجع الى العرب الفضل فى نظام الطبقات البغيض الذى كان موجودا فى معظم الأمصار المفتوحة ، وخاصة فى الدولة الفارسية ، فضلا عن اخراج الفرس من ظلمات المجوسية الى نور الاسلام (١) .

وصف المؤرخ العربى المسيحى المعاصر (الدكتور فيليب متى (٢) الاسلام بأنه حضارة عامة شاملة ، تنتظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة ، وتربطهم بروابط المحبة والأخوة ، وقال أن المسيحيين قد استأذنوا السلطات الدينية فى أن تكون المواريث فى الشرق العربى هى نفس المواريث التى قررها الاسلام ، فأذنت السلطات العربية بهذا .

تحدث (لوثر ستودارد) فى كتابه (حاضر العالم الاسلامى) عن الحضارة العربية الاسلامية وازدهارها ، وقارن بينها وبين حضارة الغرب ، فقال : ما كان العرب قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة عظيمة الأخلاق والسجايا ، تواقا الى ارتشاف العلوم محسنة فى اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التى قد انتهت اليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين والتزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهى الحضارة العربية ، ونفخ العرب فيها روحا جديدة فازدهرت وأينعت ، وألغوا بين عناصرها بالعرقية العربية والروح الاسلامى ، مما أدى الى اتحاديها وتناسكها . وقد سارت الممالك الاسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا ، وما انفك الشرق الاسلامى خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصرانى نورا .

وأوضح (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) أثر الفتح الاسلامى فى بلاد الشام ، فقال : استردت سورية أيام الحكم

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٤ .

(٢) فيليب متى : تاريخ العرب .

العربي ما أضعته من الرخاء منذ زمن طويل ، وبلغت درجة رفيعة من الرقى في العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي ، وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي ، وترك العرب الناس أحرارا في أمور دينهم ، وأظل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم ، فبال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقا من الدعة والطمأنينة ، وبلغت الصناعة والزراعة درجة رفيعة في سورية ، وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق .

وتحت عنوان (طابع السيادة في الحضارة الاسلامية) ، كتب المؤرخ (توماس أرنولد) (١) : ان ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق ، قد زرع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم ، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الالهي ، وأن اله الحرب لم يجعل النصر الا في أيدي عباده المختارين ، وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلا على صدق دينهم .

اهل الذمة يساهمون في الحياة الاجتماعية :

العاطفة الاجتماعية هي العنصر الدائم في الشعور الديني ، حتى يمكن أن نعرف الكائن المتدين بأنه كائن محب للاجتماع ، ويرى (جان ماري جويو) (٢) أن اختلاف الأديان انما يرجع خاصة الى اختلاف النماذج الاجتماعية التي يتصور الانسان الكون على مثلها ، وتتجلى الصفة الاجتماعية التي للدين في العبادات التي بواسطتها يتصل الناس بالهتهم مجتمعين .

اتبع المسلمون سياسة التعايش الديني مما أدى الى السلام والأمن ، وقد نص القرآن الكريم على وجوب الحرص على هذا التعايش وحرص الخلفاء على هذه الروح الطيبة . وقد حدثنا تاريخ عمر بن

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٤ .

(٢) الدين ، منشاء وعلاقته بالاجتمع والحياة (ترجمة سامي الدروبي) .

الخطاب بأنه قد أوصى رجاله بأن يعيشوا وأبناء الديانات الأخرى في وئام وسلام ، وأن ينظروا الى الانسانية نظرة مشاركة ، وأنها ميراث لكل فرد يعيش على الأرض نصيبه منه . كما أعطى عمر أهل بيت المقدس الأمان العام للارواح والأموال وسائر الملة والكنائس ، فأصدر أمرا مشددا بألا تسكن الكنائس ، وألا ينقص منها ، وألا يكره المسيحيون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . كما أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج بغير المسلمة من أهل الذمة ، وجعل لها من الحقوق ما للزوجة المسلمة ، فرخص لها بالبقاء على دينها ، وعلى معتقداتها ، بل وحرّم على الزوج أن يكرهها على ترك دينها أو يمنعها من الذهاب الى معبدها أو كنيستها ، ولها الحرية في القيام بشعائر دينها (١) .

احتفل أهل الذمة بأعيادهم في جو من الحرية والتسامح ، وكان المسلمون يشاركون في أعيادهم وخاصة النصارى منهم ، فقد كانت هذه الأعياد فرصة طيبة لنزهة المسلمين ، وخاصة أن الأديرة كانت تحفل بالحدائق الغناء والبساتين اليانعة (٢) ومزج المسلمون بين أعياد المسيحيين وأعياد الفرس ، وبين الأعياد المسيحية والفصول ، فقالوا أن الفصح وقت النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وعيد زيارة وقت الأمطار ، وعيد الصليب وقت قطاف العنب . ومن أمثال الناس في ذلك : (اذا جاء عيد زيارة فليتخذ البناء زمارة) أي ليملك كل فرد في بيته ، (واذا جاء القلندس فتدفاً واحتبس) (٣) .

أما اليهود فكانوا يحتفلون بعيد رأس السنة اليهودية ويسمونه (عيد رأس هيشا) ، كما يحتفلون بعيد (صوماريا) وهو عيد الصوم العظيم ومدته خمس وعشرون ساعة ، وعيد (المظال) ومدته ثمانية أيام يجلسون فيها تحت ظلال النخل وأشجار الزيتون ، وعيد الفصح أو العطر وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير (٤) .

(١) التعايش الديني في الاسلام ص ٢٧ .
(٢) الشابتي : الديارات ص ٦٠ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٨٢ .
(٤) الالوسي : بلوغ الارب ح ١ ص ٣٩١ .

وحرص الفرس على الاحتفال بأعيادهم القديمة ، وأبرزها النيروز
والمهرجان . وكان النيروز أول أيام الربيع ، وفيه يرش الناس بعضهم
بعضا بالماء ويتبادلون الهدايا (١) أما المهرجان فهو ابتداء أيام الشتاء .
وكان الفرس يقدمون لولاتهم المسلمين ، ما جرت عليه عادتهم زمن الدواة
الفارسية ، بعض الهدايا في عيدي النيروز والمهرجان (٢) .

وصف المؤرخ (ترتون) (٣) حياة أهل الذمة الاجتساعية فقال :
« وانا لنسمع عن الحياة التي كان الأقباط يحيونها في بيوتهم من حيث
الترف والاسراف ، وتقلبهم في بلهنية من العيش واتساع الأموال وكثرة
النفقات » . ثم يقول : (ولقد ساهم الأقباط في حياة المسلمين الاجتماعية
وأخذوا منها بنصيب » .

ويشيد المؤرخ (آدم متر) (٤) بتسامح المسلمين مع أهل الذمة ،
مما لم يكن معروفا في أوروبا ، مما أدى الى رقى الحضارة والعلم .
فقال : (كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح
التي ينادى بها المصلحون المحدثون . وكان الحاجة الى المعيشة المشتركة
وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعا من
التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى ، ومظهر
هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أى دراسة الملل والنحل على
اختلافها ، والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم » (٥) .

لم يكن في المدن الاسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى
بحيث لا يتعدونها ، وان آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين . وكانت
الكنائس والأديرة منتشرة في كل أحياء المدن الاسلامية وكان موتى
المسلمين وأهل الذمة يدفنون كل على حدة ، ولكن يحكى أنه في عام
٣١٩ هـ (٩٣١ م) جاء الى تكريت سيل كبير ، ففرق منها أربعمئة دار

- (١) البيروني : الانار الباقية ص ٢١٥ .
- (٢) اليعقوبى ح ٢ ص ١٩٤ .
- (٣) أهل الذمة في الاسلام ص ١٥٨ .
- (٤) الحضارة الاسلامية ح ١ ص ٥٧ .
- (٥) الحضارة الاسلامية ح ١ ص ٧٥ .

وغرق خلقا كبيرا من الناس ، ودفن المسلمون والنصارى مجتمعين لا يعرف بعضهم من بعض (١) .

ولما كان الشرع الاسلامى خاصا بالمسلمين فقد خلت الدولة الاسلامية بين أهل الذمة ومحاكمتهم الخاصة بهم ، ولكن كان يجوز للذمى أن يلجأ للمحاكم الاسلامية .

وفى كتاب (أهل الذمة فى الاسلام) للمؤرخ (ترتون) نجد كثيرا من العبارات ، كلها تدل على أن أهل الذمة عاشوا حياة اجتماعية طيبة فى ظل التسامح الاسلامى ، نقتبس منها هذه العبارات القليلة : « والروايات الواردة عن عمر بن الخطاب ورأفته بالذميين كثيرة » : (كان العرب يلتزمون جادة الصبر والأناة ، اذ كثيرا ما نقرأ عن مدن استسلمت بشروط ، ثم ثارت وتمردت ، ثم استسلمت مرة أخرى فأعاد العرب لها عهودها الأولى ، « وكان بعض الولاة شديد الحب للنصارى يظهرون لهم المودة البالغة » ، « كانت معاملة الذميين تنطوى على ما يشير الى مساواتهم التامة بالمسلمين فى كافة الحقوق » .

اشتهر الخوارج بالتسامح مع الذميين فأباحوا للذميين الجهر بدينهم (٢) ولذا ساعد أهل الذمة الخوارج فى حروبهم ضد الدولة الأموية .

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٧٤ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٢٣ .

الفصل السابع أهل الذمة في عهد الخلفاء الراشدين والأئمة

عمر بن الخطاب وأهل الذمة :

قسم عمر الدولة الإسلامية ، وعين في كل ولاية واليا عربيا مسئولا أمامه مباشرة ووظيفته قيادة الجيش والامامة وادارة الولاية ، وقاضيا يحكم في المنازعات الدينية والمدنية عند المسلمين ، والمدنية فقط عند أهل الذمة ، اذ وكلت أمورهم الدينية الى رؤساء الدين عندهم . وكان القاضي مستقلا عن الوالى ومسئولا مباشرة أمام الخليفة . وجابيا مسئولا أمام الخليفة رأسا . ولكى يضمن الخليفة العدل فى الولاية ، عين مفتشين لمراقبة الولاية فى أعمالهم وموافاته بكل ما يحدث ، وكانت هذه الوظيفة لا تسند الا لمن اشتهر بالصدق والامامة وغيرة العلم . وكان عمر يطلب من الولاية أن يوافقوه كل سنة فى موسم الحج ليتشاور معهم فى الأمور الادارية . وهيات هذه السياسة الادارية لأهل الذمة ، وسائر الرعية ، الأمن والعدل والسلام .

ووضع عمر سياسة مالية عادلة ثابتة ، فعدد مقدارا عادلا للجزية ، وأعفى منها النساء والشيوخ ورجال الدين والعجزة والصبيان . وجعل على الأرض التى فتحت عنوة ضريبة سماها (الخراج) وأبقاها فى أيدي أصحابها يفلحونها ، وكانت تلك الضريبة تعتبر كأجرة للأرض التى آلت الى المسلمين بحكم الفتح . ولكى يعين الخليفة مقدار الخراج بالعدل أمر بمسح الأرض . وكان الخراج يؤخذ نقدا أو عينا ، ومقداره تقدا يختلف باختلاف نوع الزرع ، فهو يتراوح بين عشرة دراهم ودرهمين للجريب الواحد ، ومقداره عينا حوالى خمس المحصول . وكان ما يجمع من الجزية والخراج ينفق على ادارة الدولة فتدفع منه رواتب الجيش

ومصاريف بناء الطرق والترع وما إليها من المرافق العامة ، وجبى عمر الزكاة من المسلمين فقط وأنفقها فى الوجوه التى عينها القرآن الكريم (١) .

عرف الماوردى (٢) الخراج فى الاسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها » وقد اهتم الخلفاء والولاة بالخراج أكثر من اهتمامهم بالجزية لأن الخراج أكثر ثباتا من الجزية وأكثر دخلا، حيث أن الجزية تسقط بالاسلام .

جمع العرب الخراج من الأمصار الاسلامية منذ اللحظة الأولى للمنتح العربى الاسلامى ، وأراد عمر بن الخطاب أن يحدد مقدار الخراج الذى يفرضه على كل نوع من الزرع ويحدد طرق الجباية ، فاستدعى اليه بعض أصحاب الأراضى فسألهم عن النظم التى كانت متبعة قبل المنتح الاسلامى ، حتى يتحقق العدل . ثم جعل عمر على كل جريب قفيزا ودرهما ، وكان القفيز وزنه ثمانية أرطال وثمانه ثلاثة دراهم يوزن المثقال ، وهو نفس ما فرضه كسرى بن قباد من قبل (٣) . وفرق عمر بين أنواع الزرع ، فكان على كل نوع مقدار معين من المال مقابل الخراج (٤) وأمر عمر عماله بأن أهل الخراج اذا احتسبوا أكثر من ذلك فلا يزداد عليهم ، وان عجزوا عن ذلك خفف عنهم ، وألا يكلفوا فوق طاقتهم (٥) .

والحقيقة أن نظام عمر كان نظاما عادلا ، فقد كانت الأرض تحتل ما وضعه عمر من خراج بل وتفيض (٦) ، وكان عمر يسمح بتقسيم الخراج ودفعه عينا . وقد (٧) . وسار على بن أبى طالب ومعظم الخلفاء الأمويين على سياسة عمر بن الخطاب .

- (١) انظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٨٦-٨٧ .
- (٢) الاحكام السلطانية ص ٤٠ .
- (٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤١ .
- (٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٨ .
- (٥) ابن آدم : الخراج ح ١ ص ٩ .
- (٦) أبو يوسف : الخراج ص ٢١ .
- (٧) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٧٧ .

ضرب عمر بن الخطاب أمثلة كثيرة في حسن معاملة أهل الذمة ،
فقد مر يوماً على قوم قد أقيسوا في الشمس في بعض أرض الشام ، فقال
ما شأن هؤلاء ، فقيل له أنهم أقيموا في الجزية فكره ذلك وقال : هم
وما يعتذرون به • قالوا : يقولون لا نجد • قال : فدعوهم ولا تكلنوهم
ما يطيقون • ثم أمر بهم فخلى سبيلهم (١) •

ومر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخاً
خريز البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من أي أهل الكتاب أنت •
فقال : يهودى • قال : فما ألباك الى ما أرى • قال : أسأل الجزية
والحاجة والسن • فأخذ عمر بيده ، وذهب به الى منزله وأعطاه مما
وجده ، ثم أرسل به الى خازن بيت المال وقال له : أنظر هذا وضرباه ،
فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم ، انما الصدقات
للفقراء والمساكين ، والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين
من أهل الكتاب • ثم وضع عنه الجزية (٢) •

وعندما شعر عمر بقرب وفاته ، أوصى وهو على فراش الموت ،
بأهل الذمة خيراً ، فقال : أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً ،
وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق
طاقتهم (٣) •

أهل الذمة في عهدى عثمان وعلى :

تمتع أهل الذمة في عهدى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب بما
تمتعوا به في عهد عمر بن الخطاب ، من تسامح وعدل وأمن ، ماداموا
يؤدون الجزية والخراج • وكان عدد كبير من أهل الذمة يشتغل بفلاحة
الأرض ، فقد ترك عمر أرضهم مقابل دفعهم الخراج فضلاً عن الجزية •
ومن المهن التي اشترك فيها النصارى واليهود الطب ، فقد كان القسس
يعالجون المرضى ، وكانت الأديرة مراكز للعلاج من الأمراض ، واشتهرت

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧١ •
(٢) المصدر السابق ص ٧١ •
(٣) ابن عساکر : تاريخ مدينة دمشق ج ١ ص ١٧٨ •

بعض الأديرة بالمياه الكبريتية (١) كذلك نبغ أهل الذمة في التجارة والصناعة ، فكان اليهود يحترفون الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وإدارة السفن (٢) وكان الصناع وأصحاب الحرف ، وأهل الطبقة العاملة من أهل الذمة أسرع الناس إلى الإسلام ، فقد اعتنقه عدد عظيم في حماسة كبيرة (٣) .

سار عثمان بن عفان وولاته بالأمصار الإسلامية على سيرة ولاية عمر في التسامح مع أهل الذمة ، فقد كان — على سبيل المثال — الوليد بن عقبة ، أحد ولاية عثمان بالعراق ، يدخل النصارى المساجد ويجرى عليهم كل شهر ، وضمن لهم أرزاقهم شهريا (٤) .

كما تمتع أهل الذمة في خلافة علي بن أبي طالب بالمعاملة الحسنة ، فقد أعطى النصارى من العطاء وساواهم بالعرب والموالي (٥) . وكان يوصى عماله في كل مكان بأهل الذمة خيرا ، وأمر عاملا له بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم . واشتكى يهودى على بن أبي طالب إلى شريح قاضى البصرة فأنصفه شريح من الخليفة مما أدى إلى إسلام اليهودى وقتاله في صفوف على (٦) .

ع

أهل الذمة في العصر الأموى :

افتتح معاوية بن أبى سفيان عهدا جديدا من التسامح مع أهل الذمة ، فقد عين لولده يزيد مرييا مسيحيا ، وبالتالي كلف يزيد كاهنا مسيحيا بتثقيف ولده خالد وعامل المختار بن أبى عبيد الثقفى أهل الذمة بالعراق معاملة حسنة ، وكان يزعم أنه سيزوج ابنته للمسيح . أما الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اتهمه المستشرقون باضطهاد أهل الذمة فقد كان عامله بخراسان يبنى لأهل الذمة البيع ، وقد سمح له الحجاج

(١) الشاشنى : الديارات ص ١٩٦

(٢) ترويون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٢٠٥ .

(٣) أنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢ .

(٤) البلاذرى : أنسب الاشراف ح ٥ ص ٢١ .

(٥) اليعقوبى ح ٢ ص ١٥٩ .

(٦) الاصفهانى : الاغانى ح ١٦ ص ٢٦ .

(٧)

بذلك (١) وكان الأخطل الشاعر المسيحي يدخل المساجد في دمشق والكوفة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فيقف المسلمون له اجلالاً (٢) .

ذكر المؤرخ (ترتون) كثيراً من القصص والأخبار التي تدل على تسامح المسلمين من أهل الذمة ، فذكر أن عمرو بن العاص قد صلى في مصر في إحدى الكنائس ، كما ذكر أن معاوية بن أبي سفيان حين تولى الخلافة بالشام سنة ٤٠ هـ صلى عند جبل الجلجلة بيت المقدس ثم صلى عند قبر مريم ، وكان معاوية يستقبل رجال الدين المسيحي ويكرمهم . وأشار ترتون الى ما جاء في كتاب الأغاني من أن الوليد بن عقبة المسلم والشاعر أبا زيد المسيحي دفنا معا في قبر واحد . وأشاد ترتون بتسامح الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، فقد أمر ببناء دار مسورة لقصره لاقامة البطريرك وليسمع الصلاة والعظة ، وكان يقول للبطريرك اذا بدأت الصلاة بالليل تنالني راحة عظيمة ويزول عنهم الهم بأمر المملكة ثم يأتيني النوم براحة .

كذلك امتاز عهد عمر بن عبد العزيز بالتسامح مع أهل الذمة . فنفى بارتولد (٣) عن عمر منعه النصراني من بناء كنائس جديدة واصلاح الكنائس القديمة . كما ذكر دوزي (٤) أن المسلمين لم يتمسكوا بتنفيذ شرط تجديد بناء الكنائس التي تهدم ، ويرى أن هذا الشرط وغيره لم يكن يطبق بحذافيره الا في أحوال استثنائية نادرة ، والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر ورحمته ، فقد أمر عماله بالألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه (٥) كما نهى عمر عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التي تقضي بارجاع أهل الذمة الى قراهم (٦) . وكتب عمر الى عامله بالكوفة أيضاً أن يعطى أهل الذمة ما بقي

- (١) ابن النديم : الفهرست ح ٢ ص ٤٦٧ .
- (٢) الأصفهاني : الأغاني ح ٧ ص ١٧١ .
- (٣) الحضارة الاسلامية ص ٧١ .
- (٤) نظرات في تاريخ الاسلام ص ٤٠٢-٤٠٣ .
- (٥) الطبري ح ٨ ص ١٤١ .
- (٦) الطبري ح ٨ ص ١٣٦ .

من خراج الكوفة ، فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ، ثم ختم رسالته بقوله : « قو أهل الذمة فاننا لانريدكم لسنة ولا لسنتين » (١) . وكان عمر يجعل صدقات بنى نعلب — القبيلة العربية المسيحية — فى فقرائهم دون ضمها الى بيت المال (٢) .

ارتفعت الأسعار فى عهد عمر بن عبد العزيز ارتفاعا كبيرا ، وقد سأله أحدهم عن سر هذا الغلاء ، فقال : ان الذين كانوا قبلى يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بدا من أن يبيعوا ويكسبوا ما فى أيديهم ، وأنا لا أكلف أحدا ، الا طاقتة ، فباع الرجل كيف شاء . واقترح البعض على عمر تسعير الحاجيات ، فقال عمر : انما السعر الى الله (٣) .

وهكذا عرف عمر بن عبد العزيز نظرية العرض والطلب ، وهى من أبرز النظريات الاقتصادية ، فقد كان معظم الولاة الأمويين يلقون كثيرا من الأعباء على الأهالى مما أدى الى سوء أحوالهم فأقبلوا على بيع اتاجهم الزراعى والصناعى ، مما أدى الى النشاط التجارى من جهة ، وانخفاض الأسعار من جهة أخرى ، فقد زاد العرض على الطلب ، ولكن عدل عمر خفف الأعباء عن أهل الذمة والمسلمين على السواء فشعروا بالرخاء الاقتصادى ، فأقبلوا على التمتع بمحصولاتهم ومصنوعاتهم دون بيعها ، كما أقبلوا على شراء ما يحتاجونه من أنواع التجارة ، فزاد الطلب على العرض (٤) .

اهل الذمة والوظائف الحكومية :

تمتع أهل الذمة فى الدولة العربية الاسلامية بنصيب كبير من الوظائف الحكومية ، وقد أيد (ديوميين) (٥) هذا الرأى فقال : ان أهل الذمة احتلوا مكانة بارزة فى حياة الدولة الأموية وكثر عددهم فى

-
- (١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .
 - (٢) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٢ .
 - (٣) أبو يوسف : الخراج ص ٧٦ .
 - (٤) انظر كتابنا (الحضارة العربية الاسلامية) ص ٢٥٨ .
 - (٥) النظم الاسلامية ص ١٦٧ .

الدواوين والمصالح . وزاد بارتولد (١) عليه بأن النصارى والفرس كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور . وكذلك كان لليهود نصيب في الوظائف العامة ، فقد كان كاتب أبي موسى الأشعري والى العراق يهوديا ، وكان يركن اليه ولا يثق بغيره ، ورفض أبو موسى ما أمره به عمر بن الخطاب من عزل هذا الكاتب اليهودى (٢) ويكفى اليهود فخرا أن سير اليهودى قام بضرب الدراهم فى خلافة عبد الملك بن مروان وأنها سميت باسمه (الدراهم السيرية) (٣) .

أشاد المؤرخ الهندى المسلم (صلاح الدين خودابخش) فى كتابه الذى قمنا بترجمته وهو (الحضارة الاسلامية) (٤) ، يتولى أهل الذمة وظائف الحكومة ، فقال : يجدر بنا ألا نغلق عيوننا عن حقيقة ، هى أن أهل الذمة ظلوا عدة سنوات يديرون المصالح الحكومية التى تدبر مالية الدولة وايراداتها ، كما كانت الوظائف فى هذه المصالح مقتصرة عليهم . كان أبرز الموظفين فى عهد الخلافة اثنان : الوزير والكاتب ، وقد تولى ، فى عهد أكثر من خليفة ، غير المسلمين هذين المنصبين . كان كاتب عبد الملك (ابن سرجيون) مسيحيا ، كما تولى أبو اسحاق الصابى نفس المنصب فى العصر العباسى . كما كان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيا . وعلى من يوجه النقد الى الاسلام أن يعرف أن عمر بن عبدالعزيز كتب الى أبى بكر بن محمد يأمره برفع الظلم عن المسلمين والذميين وأن يعيد اليهم ممتلكاتهم المغتصبة .

ظل النظام الادارى للحكومة الاسلامية فى الجملة على ما كان عليه فى بلاد الفرس والروم ، حتى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . فقد وجد العرب بعد الفتوحات أن هذه الأمم ذات تاريخ مجيد عريق فى الحضارة والمدنية والنظم السياسية . فلم يكن بد اذن من قبول هذا النظام وابقائه على ما كان عليه من قبل ، ثم احداث ما يتطلبه الاصلاح من

(١) الحضارة الاسلامية ص ٢١ .
(٢) يوسف رزق الله : نزهة المساق ص ١٠٢ .
(٣) المقرئى : كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ٢٥ .
(٤) الحضارة الاسلامية ص ١١٥ .

التغيير الذى يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للحكم الاسلامى .

وعدد (ترتون) أسماء كثيرين من أهل الذمة تولوا المناصب الكبرى فى الدولة ، فقد أبقى العرب بعد فتح مصر الموظفين البيزنطيين فى وظائفهم ، وذكر ترتون أسماءهم . كما ذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان عهد الى مسيحي بتعليم أخيه الصغير عبد العزيز . كما ذكر أن مسيحيا تولى حكم الاسكندرية فى عهد الخليفة يزيد ، واتخذ الخليفة سليمان بن عبد الملك كاتباً نصرانياً يسمى (البطريق ابن النقا) واستعمله ناظراً على مبانيه فى الرملة من أعمال فلسطين ومراقبة القنصوات والآبار والمسجد القائم بها ، وغير ذلك من الأمثلة .

اهل الذمة والخراج :

كانت أراضى الأمصار الاسلامية عدة أنواع ، وكان لكل نوع منها وضع خاص بالنسبة للخراج . أما النوع الأول فهو الأرض التى ملكت عنوة وقهراً والتى فارقها أهلها بالقتل أو الأسر أو الاجلاء . فهذه الأرض ان قسمها الامام بين من غلب عليها فهى أرض عشر وأهلها رقيق ، وان لم يقسمها الامام وردها للمسلمين عامة ، كما فعل عمر بن الخطاب بسواد العراق ، فعلى رقاب أهلها الجزية وعلى الأرض الخراج ، وليس أهلها برقيق (١) وقد فتحت أرض سواد العراق عنوة واعتبرت فيئاً للمسلمين ولكنها تركت لأهلها مقابل الخراج (٢) .

أما النوع الثانى من الأرض ، فهى أرض الفىء التى صولح عليها أهلها ، فيوضع عليها الخراج وهى بدورها قسمان : أحدهما أرض صولح أهلها على زوال ملكهم عنها وهذه لا يجوز بيعها ويكون خراجها مقابل ايجار لها ، ولا يسقط هذا الخراج باسلام أصحابها بل يؤخذ من المسلم ومن أهل الذمة ، والقسم الثانى الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ .

(٢) ابن آدم : الخراج ج١ ص ٦ .

(٣) يعرف ابن آدم الفىء بأنه ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج بغير قتال

عليها ، وهذا يجوز بيعها ، ويسقط خراجها باسلام أصحابها (١) وكان العرب اذا صالحوا قوما فانهم يفرضون عليهم الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض (٢) .

أما النوع الثالث من الأرض فهي الأرض التي أسلم عليها أهلها ، فتصبح أرضا عشرية يدفع أهلها عنها عشر الزرع (٣) وهناك فرق كبير بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل ايجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والثمر . وكانت الأرض التي يستأنف المسلمون احياءها لايجوز أن يوضع عليها الخراج (٤) أما الأرض الموات اذا شربت ماء الخراج أصبحت أرض خراج سواء أكان صاحبها مسلم أو ذمي . أما اذا حفر صاحبها بئرا أصبحت أرضا عشرية (٥) وكان لايجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج (٦) .

أما النوع الرابع من الأرض فهو ما ملكه المسلمون عفوا أو فرأهلها عنها ، فيفرض عليها الخراج كأجرة لزراعتها سواء زرعها مسلم أو ذمي (٧) أما النوع الخامس فهي أرض بنى تغلب ، القبيلة العربية المسيحية ، وقد فرض عليها ضعف ما يؤخذ من المسلم في أرضه وماشيته وأمواله مقابل اعفائهم من الجزية والخراج (٨) .

وخلاصة القول ، أن أرض الخراج هي كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج ، وكل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين (٩) .

كان الخراج يظل مفروضا على الأرض المفتوحة عنوة بعد اسلام صاحبها لأن هذه الأرض فيء للمسلمين وملك لهم جميعا ، وما يدفعه

- (١) أبو يوسف : الخراج ص ٢٢ .
- (٢) ابن آدم : الخراج ج ١ ص ١٢ .
- (٣) أبو يوسف : ص ٣٣ .
- (٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤ .
- (٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٣ .
- (٦) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٠ .
- (٧) المصدر السابق .
- (٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩١ .
- (٩) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

صاحبها هو ايجار مقابل زراعته لها (١) . فقد توجه رجل الى عمر بن الخطاب فقال : انى قد أسلمت فارفع عن أرضى الخراج . فقال عمر : ان أرضك أخذت عنوة (٢) وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من أسلم من أهل الأرض فله ما أسلم عليه من أهل ومال ، فأما داره وأرضه فانها كائنة فى فىء الله عز وجل على المسلمين (٣) .

أما الأرض التى صولح أهلها على زوال ملكهم عنها فلايجوز بيعها ويعتبر خراجها ايجارا ، ولا يسقط الخراج باسلام أهلها انما ترفع عنهم الجزية (٤) ويرى المؤرخ (جوزى) (٥) أن الأمويين أبقوا الخراج على هذه الأرض لحرصهم على المال وليس رغبة منهم فى مخالفة سنة عمر بن الخطاب . أما الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها فيجوز بيعها ويسقط خراجها باسلام أهلها وتصبح أرضا عشرية (٦) وكان عمر بن الخطاب ينهى عن شراء أرض أهل الذمة ، أما على بن أبى طالب فكان يكره أن يشتري المسلمون أرض الخراج ويقول : عليها خراج المسلمين (٧) وكان الحجاج بن يوسف والى العراق فى العصر الأموى يقول : ما أبغض الى أن تكثر العرب فى أرض الخراج (٨) ولذا أعاد الحجاج الخراج على كل أرض أسلم أصحابها أو اشتريها مسلمون ، مما ادى الى هرب أصحابها من القرى الى المدن ، فأعادهم الحجاج الى أرضهم رغما عنهم (٩) ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، أمر باعفاء كل من أسلم من الخراج ولكن عمر لاحظ أن هذه السياسة تضر بيت المال ، فوضع حلا وسطا لتلك المشكلة بأن رفع عن الأرض التى يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ، ثم قرر أن شراء المسلمين وامتلاكهم الأرض بعد هذا التاريخ

- (١) ابن آدم : الخراج ح ١ ص ٨ .
- (٢) النويرى : نهاية الارب ح ٨ ص ٢٥٤ .
- (٣) ابن آدم : الخراج ح ١ ص ١١ .
- (٤) المصدر السابق ح ١ ص ٧ .
- (٥) من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٩ .
- (٦) ابن آدم : الخراج ح ١ ص ٧ .
- (٧) الطبرى ح ٧ ص ٢٦٥ .
- (٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ح ٢ ص ٤١٦ .
- (٩) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .

غير جائز ، لأن المسلمين حينما يشترون تلك الأرض تصبح أرضاً عشرية ويسقط عنها الخراج ، وبذلك تقل الموارد المالية • وتبعاً لهذه السياسة ، كان إذا أسلم رجل من أصحاب تلك الأرض الخراجية ، فإن ملكيته تزول عن هذه الأرض وتصبح ملكاً مشاعاً للمسلمين • ومادامت الأرض ليست ملكاً لشخص بعينه ، فكان يؤخذ منها الخراج والعشر معا : أما الخراج فلأنه مقابل الإيجار لتلك الأرض ، وأما العشر فلأنه مسلم تجب عليه الزكاة في الزروع والثمار • ولذا قال عمر بن عبد العزيز : « لا يحل لأحد أن يحول أرض خراج إلى أرض عشر ، ولا أرض عشر إلى أرض خراج ، وذلك أن يكون للرجل أرض عشر وإلى جانبها أرض خراج فيشتريها فيصيرها مع أرضه ويؤدى عنها الخراج ، فهذا حد ما لا يحل في الأرض والخراج » (١) .

كانت هناك عدة عوامل تؤثر في اختلاف جملة الخراج من ناحية إلى أخرى ، ومن سنة إلى أخرى ، ومن عهد إلى آخر • وقد ذكر الماوردي (٢) أربعة من هذه العوامل : أولها اختلاف جودة الأرض من مكان لآخر ، وزيادة هذه الجودة أو نقصانها تبعاً لعناية الولاية والفلاحين بها • وثانيها نوع المحاصيل من حيث الجودة ، وهذه الجودة تتبع اهتمام الولاية بالزراعة ومكافحتهم للآفات الزراعية • وثالثها نظام الري ، ومن البديهي أن تختلف نظم الري ومشاريعها من عهد إلى آخر ، ورابعها اختلاف حالة الأسواق ، ولا شك أنه كلما زاد عدد الأسواق زاد رواج المحصولات وبالتالي زاد الخراج •

الجزية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين :

الجزية ليست من محدثات الإسلام ، بل هي قديمة من أول عهد التمدن القديم • وقد وضعها (يونان أثينا) على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، وفينيقية يومئذ من أعمال الفرس ، فهان على سكان تلك

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ •

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٤٢ •

السواحل دفع المال في مقابل حماية الرؤوس • ووضع الرومان الجزية على الأمم التي أخضعوها ، وكانت أكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ فان الرومان لما فتحوا غالبا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهاً و ١٥ جنيهاً في السنة ، أي نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين • وكان الفرس يجمعون الجزية من رعاياهم (١) .

وذكر ابن خردادبة (٢) أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمجوس دينارا في السنة كذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم ، فعند استيلاء الامبراطور باسيل على مدينة حلب سنة ٣٥٩ م (٩٧٠ م) فرض دينارا عن كل رجل بالغ •

يشبه المؤرخ (آدم متز) (٣) الجزية في العصر الاسلامي بضريبة للدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهبون وأهل الصوامع الا اذا كان لهم يسار •

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقدر الجزية بحسب الأموال ، وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين وأعدائهم • وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر أيام أبي بكر ، فلما تولى عمر بن الخطاب وكثرت الفتوحات حدد مقدار الجزية ، فكتب الى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه موسى ، وأن يجعلوها على أهل الفضة كل رجل أربعين درهما ، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير . وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة ، وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل انسان في الشام والجزيرة • ثم تعدلت الجزية ، فأصبحت تبعالدرجة ثراء الذمى ، فيدفع الموسر ٤٨ درهما على أقساط ، ٤ دراهم في كل شهر ، ويدفع متوسط الحال ٢٤ درهما ، كل شهر درهمان ، ويدفع فقير الحال

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى - ج ١ ص ٢٢٨ •

(٢) المساند والممالك ص ١١١ •

(٣) الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ - ج ١ ص ٧٨ •

١٢ درهما كل شهر درهم مع اعفاء النساء والأطفال ورجال الدين
والشيوخ والمعزة •

وفي بعض البلاد المفتوحة كانت شروط الصلح تحدد مقدار الجزية
مثلا حدث في مصر حين اتفق عمرو بن العاص مع الأقباط على أن يدفع
الذمي دينارين كل سنة ، وعليه اضافة من ينزل عليه من المسلمين
ثلاثة أيام ، مع اعفاء النساء والصبيان والشيوخ ورجال الدين أيضا من
الجزية •

وكثيرا ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى في أيدي الناس
من دخلهم بعد نفقاتهم ، كما حدث في بلاد العراق والجزيرة ، فقد حدد
الفاطحيون دينارا على كل رأس فلما تولى الخليفة عبد الملك بن مروان
استقل ذلك ، فبعث الى عامله هناك فأحصى الناس ، وحسب ما يكسب
العامل سنته كلها ، وطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح
أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك أربعة دنانير لكل
واحد ••

ويذكر المؤرخ (آدم متر) (١) أن الجزية بوجه عام قد ظلت عند
المقدار الذي فرضته الشريعة ، وانما كانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب
تغيير العملة •

كان كل من يعتنق الاسلام من أهل الذمة طوال حكم الخلفاء
الراشدين والأمويين حتى فترة حكم الحجاج بن يوسف الثقفي ، ترفع
عنه الجزية • وسار الخلفاء على سيرة عمر بن الخطاب • وكان الحجاج
أول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا من أهل
الذمة قد اعتنق الاسلام ، وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولذا أمر بعدم
اعفائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة (٢) • أما عمر بن عبدالعزيز
فقد أمر برفع الجزية عن من أسلم •

(١) الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ - ح ١ ص ٧٩ •

(٢) الطبري ح ٢ ص ٢٥ •

ولذا شهد عهد عمر بن عبد العزيز حركة تحول الى الاسلام واسعة النطاق ، تحدث عنها المؤرخ (توماس أرنولد) (١) فقال : فقام عمر بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة ، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الاغراء لقبول الاسلام ، حتى بمنحهم هبات من الأموال ، وقد قيل انه أعطى في احدى المناسبات بطريقا نصرانيا ألف دينار تألفه بها على الاسلام ؛ كما أمر عمال الولايات الاسلامية بدعوة الذميين الى الاسلام . حتى أن الجراح بن عبد الله والى خراسان أدخل في الاسلام نحو من أربعة آلاف شخص . بل قيل ان عمر كتب الى ملك الروم (لاون الثالث) يدعو الى الاسلام .

ثم يقول (توماس أرنولد) : ومع ذلك فلا ينبغي أن نفترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هي المؤثرات الوحيدة الفعالة في تحول المسيحيين الى الاسلام .

الحرية الدينية وبناء الكنائس :

تذكر بعض المصادر العربية أن عمر بن الخطاب اشترط على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئاً ، وألا يجددوا ما خرب منها وما تهدم ، أو يعيدوا بناء البيع القائمة في نواح من المدن الآهلة بالمسلمين . ويرى (ترتون) (٢) أن هذا الشرط لم يوضع موضع التنفيذ بعد عهد عمر ، وأن الكنائس ظلت تبنى ، ويشير (ترتون) الى عبارة لابن عباس جاء فيها : « ان كل مصر مصرته العرب فليس للذميين أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة ، ولا يضربوا فيه بناقوس . . . وكل مصر مصرته العجم ففتح الله على العرب ، فنزلوا على حكمهم فللعجم ما في عهدهم ، وللعرب أن يوفوا لهم بذلك » (٣) .

ويمكن تلخيص المذاهب فيما يتعلق بالكنائس ، بأن الأئمة يتفقون على عدم استحداث بيع أو كنائس في دار الاسلام ، ويرى مالك

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٠٢ .

(٢) أهل الذمة في الاسلام ص ٢٩ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٨٨ .

والشافعي وابن حنبل أنه لا يجوز احداث كنيسة فيما قارب المدن والامصار
بدار الاسلام . أما أبو حنيفة فيقول بالمنع اذا كان المكان قريبا من المدينة
ولا يبعد عنها بأكثر من ميل ، فان زاد عن ذلك جاز للذميين البناء ، أما
اذا انهدم شيء من كنائسهم وبيعهم في دار الاسلام وأرادوا ترميمه أو
تجديده جاز لهم ذلك في رأى ابن حنبل والشافعي ومالك أما أبو حنيفة
فيجيزه لهم اذا كانت الكنيسة أو البيعة في أرض فتحت صلحا ، أما اذا
كانت الكنيسة أو البيعة في أرض فتحت عنوة فانه لا يجوز لهم ذلك .
وقد ذهب بعض أصحاب أحمد وجماعة من أعلام الشافعية كأبي سعيد
الاصطخري وأبي علي بن هريرة أنه لا يجوز المذميين ترميم ما تشعث ،
ولا تجديد بناء على الاطلاق ولأحمد رواية ثانية أنه يجوز ترميم ما تشعث
دون ما استولى عليه الخراب أما الرواية الثالثة فهي تجوز لهم على
الاطلاق (١) .

ويذكر المؤرخ ابن العبري أن البطررك النسطوري أبرم اتفاقا مع
العرب كان من بين ما اشتمل عليه شرط ينص على أن يمد العرب يد
المساعدة للنساطرة في تجديد كنائسهم القديمة .

وقد اختلف تطبيق هذه القواعد والآراء على مر العصور ، باختلاف
سياسة الخلفاء والولاة ومدى تسامحهم . فقد بنيت عدة كنائس في مصر
مثل كنيسة (مار مرقص) بالاسكندرية ما بين عامي ٣٩ و ٥٦ هـ ، كما
بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد على
مصر بين عامي ٤٧ و ٦٨ هـ . كما سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ
مدينة حلوان ببناء كنيسة فيها ، كما سمح لبعض الأساقفة ببناء ديرين ،
كما سمح لكاتبه المسيحي أثناسيوس ببناء كنيسة في قصر الشمع ، وهناك
أمثلة أخرى كثيرة . وقد ذكر المؤرخ (المقرئ) في كتابه (الخطط)
أمثلة عديدة ثم ختم حديثه بقوله : « وجميع كنائس القاهرة المذكورة
محدثة في الاسلام بلا خلاف . »

(١) الشعراني : كتاب الميزان ج ٢ ص ١٦٣ ، أهل اللمة في الاسلام ص ٤٠ .

ومن المسائل التي تناولها المستشرقون مسألة كنيسة القديس يوحنا بدمشق ، وقد ناقش المؤرخ الهندي المسلم (خودابخش) (١) في كتابه الذي قمنا بترجمته ، ثم قال في هذا المجال لا يسعنا الا أن نذكر حادثة تتعلق بكنيسة القديس يوحنا ، في دمشق ، ونستند في مناقشتها على كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وهي تدل على معاملة المسلمين ، ونستطيع أن نقول في اطمئنان أن العرب لم ينتهجوا سياسة « انتزاع الملكية » ولم يستعملوا القوة في الأقاليم التي يحكمونها طالما السياسة أجدي .

أما رواية البلاذري (٢) فهي : « ولما ولي معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيل كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه للزيادة في المسجد وبذل مالا فأبوا أن يسلموها اليه ، ثم ان الوليد بن عبد الملك جمعهم في أيامه وبذل لهم مالا عظيما على أن يعطوه اياها ، فقال لئن لم تفعلوا لأهدمناها ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ان من هدم كنيسة جن واصابته عاهة . فأحفظه قوله ودعا بمعول وجعل يهدم بعض حيطانها بيده وعليه قباء خز أصفر ، ثم جمع الفعلة والنقاضين فهدموها وأدخلها في المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى اليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم ، فكتب الي عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم : فكره أهل دمشق ذلك فقالوا : نهدم مسجدا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم ، فكتب به الي عمر فسره وأمضاه »

اعترف المؤرخ (ترتون) (٣) بالحرية الدينية التي تمتع بها « أهل الذمة » ، فقال : « على أن العرب كانوا لا يلتزمون على الدوام شروط عهودهم التزاما حرفيا) فلم يطبق المسلمون النواهي التي جاءت في هذه

(١) الحضارة الاسلامية ص ١١٦ .

(٢) فتوح البلدان ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) أهل الذمة في الاسلام ص ٤٧-٤٨ .

العهود ، وكانت سياستهم مرنة متسامحة . كما قال (ترتون) أيضا : « ولم يكن من المجهول أن المسلمين والنصارى كانوا يلتقون في الكنائس على مودة واتفاق » .

النصارى العرب من بنى تغلب

ذكر أبو عبيد حديثا شريفا عن الحسن نصه : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتل العرب على الاسلام . ولا يقبل منهم غيره ، وأمر أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ثم قال أبو عبيد (١) : « وانما نرى الحسن أراد بالعرب ههنا أهل الأوثان منهم الذين ليسوا بأهل كتاب ، فأما من كان من أهل الكتاب فقد قبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وذلك بين في أحاديث » . وقد كتب الرسول الى أهل اليمن « انه من كان على يهودية أو نصرانية فانه لا يفتن عنها ، وعليه الجزية . على كل حال ، ذكرا أو أنثى ، عبدا أو أمة ، دينار واف أو قيمته من المعامر . فمن أدى ذلك الى رسلى فان له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه منكم فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين » . ويعلق أبو عبيد على ذلك فيقول : فقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل اليمن ، وهم عرب ، اذ كانوا أهل كتاب ، وقبلها من أهل نجران ، وهى من بنى الحرث بن كعب .

وروى أبو عبيد أيضا : « عن النعمان بن زرعة : أنه سأل عمر بن الخطاب ، وكلمه فى نصارى بنى تغلب وكان عمر قد هم أن يأخذ منهم الجزية ، ففرقوا فى البلاد . فقال النعمان لعمر : يا أمير المؤمنين ، ان بنى تغلب قوم عرب يأنفون من الجزية ، وليست لهم أموال ، انما هم أصحاب حروث ومواش ، ولهم نكاية فى العدو ، فلا تعن عدوك عليهم بهم ، قال : فصالحهم عمر بن الخطاب ، على أن أضعف عليهم الصدقة ، واشترط عليهم أن لا ينصروا أولادهم » .

(١) الاموال ص ٢٦ .

عن أبي حنيفة أنه قال : « أما نساؤهم فهن بمنزلة رجالهم في كل شيء ، وأما صبيانهم فانما يكونون مثلهم فيما يجب على الأرض خاصة ، فأما المواشي وما يمرون به من أموالهم على العاشر فلا شيء فيه عليهم ان أسلم التغلبي أو اشترى مسلم أرضه فان العشر عليه مضاعفا ، على الحال الأولى) •

ويعلق (ترتون) (١) على ذلك فيقول : والظاهر أن عمر بن الخطاب رأى أنه ما يعيب العرب أن تبقى جماعة منهم على غير الاسلام ، فقد أمر زياد بن جرير الأسدي متولى الخراج أن يشتد في معاملة التغالبة لأنهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب • ولم يكن معنى ذلك عدم معاملتهم بالعدل ، بل ان العدالة كانت ملموسة موفورة •

•

(١) نحل الامة في الاسلام ص ٦٤ •

الفصل الثامن أهل الذمة في العصر العباسي والعماني

تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة بالتسامح والحرية في العصر العباسي ، وامتلات بغداد بكثير من الأديرة أشهرها دير العذارى ، وكان في قطيعة النصارى على نهر الدجاج ، ودير درمايس الذي وصفه الشابشتي في كتابه (الديارات) ، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار ، ويقصده الناس للنزهة ، ودير الروم شرقى بغداد ، الذي أشار أحد رهبانه على أبى جعفر المنصور ببناء مدينته فى هذا الموضع ، وكان بالنسطوريين . وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية فى أديارهم وبيعهم فى بغداد وخارجها فى أمن وسلام ، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع أهل الذمة .

وقد أوجدت الحاجة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواعدهم وأعيادهم ويأمر بحمايتهم (١) .

تولى كثير من المسيحيين المناصب الكبرى فى العصر العباسي ، فتولى أبو اسحاق الصابى منصب (الكاتب) وكان من أسمى المناصب ، كما كان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيا . وبرز رجال مسيحيون فى بلاط الخلفاء العباسيين ، أمثال : جبريل ، سلامية ، حنين بن اسحق ، يوحنا بن ماسويه . أما الخليفة المعتضد الذى لم يكن يسمح لأحد ، مهما

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام - ح ١ ص ٢٩١ .

كانت منزلته ، بأن يجلس في حضرته ، فقد أعطى هذا الحق لوزيره الذمي ثابت بن قرّة .

كان المتوكل حقيقة أول خليفة عباسي يفرض على المسيحيين واليهود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين . ويعلق المؤرخ الهندي المسلم (خودانجش) (١) على هذه السياسة فيقول : ولكن يجب ألا تنسى أن ذلك الخليفة هو الرجل الذي اعتدى على قبر الحسين وخالف أبرز تعاليم الاسلام ، فهل يمكن أن نعتبره نموذجا لمعاملة قادة المسلمين ؟ فقد أدت أعماله الشيطانية الى اشتهاره بأنه رجل فاسد . وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، يجدر بنا أن نتذكر أن المسلمين تعلموا من الشعوب المغلوبة كل ما استطاعوا أن يتعلموه ، عدا محاكاتهم في عاداتهم وملابسهم ، وان كان هناك بعض الخلفاء قد اقتبسوا بعض أزيائهم ، وخير مثال على ذلك المأمون والمعتصم بالله .

ولكن المتوكل لم يكن متعصبا ، بل استعان ببعض الموظفين المسيحيين مثل دليل بن يعقوب النصراني . وكان لخلفه المقتدر أربعة كتاب من المسيحيين . وكان الكتاب المسيحيون منتشرين في كل مكان ، حتى ان محمد بن عبد الله بن طاهر في القرن الثالث الهجري اتخذ له قهرمانيا نصرانيا . وكان الحسين بن قاسم وزير الخليفة المقتدر (٣١٩ هـ) يتقرب الى النصارى الكتاب ويحسن معاملتهم (٢) وكان للخليفة الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) كاتب نصراني . وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفى سنة ٣٧٢ هـ) في بغداد ، والخليفة العزيز في القاهرة وزيرا نصرانيا . وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البيع والأديرة وفي اطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له .

وقد أفتى بعض فقهاء الاسلام بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ ، لا وزير التفويض ، من أهل الذمة . فقد كان وزير التنفيذ لا يباشر الحكم

(١) الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ١١٨ .

(٢) متر : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ ج ١ ص ٨٦ .

ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش . أما وزير التفويض فهو الذى يفوض الخليفة اليه تدبير المملكة برأيه ، ولم يكن وزير التنفيذ الا سفيرا بين الخليفة والرعية .

اعترف المؤرخ (ترتون) (١) بحسن معاملة أهل الذمة فى العصر العباسى ، فقال : « على أن ذممة المرء لم تكن تحول قط بينه وبين تولي المناصب الدينية الرفيعة بين المسلمين ، ولنسق دليلين على ذلك أحدهما هو الصوفى صاحب الكرامات معروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، فقد خرج من صلب أب نصرانى ، وأما الآخر فهو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافى القاضى المجوسى الأب ، وقد توفى الحسن سنة ٣٦٨ هـ . وعلى أية حال ، فقد كان النصارى فى بعض الأحيان يؤثرون العيش فى ظل الحكم الاسلامى على العيش فى ظل اخوانهم المسيحيين » .

اهل الذمة والمناصب الكبرى :

اشتهر من بين أهل الذمة فى العصر العباسى كثير من العظماء ، مثل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه . ومن هؤلاء جبرائيل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد ، الذى قال الرشيد عنه : كل من كانت له حاجة الى فليخاطب بها جبريل لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى . وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهريا . ومن هؤلاء أيضا (ماسويه) الذى كان الرشيد يجرى عليه ألف درهم سنويا ، ويصله كل سنة بعشرين ألفا . وأشاد (ترتون) (٢) بتسامح المسلمين فقال : والكتاب المسلمون كريمون فى تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم حتى ليسمون حنين بن اسحق برأس أطباء عصره ، وهبة الله بن تلميذ بأبو قراط عصره وجالينوس دهره .

وكان بختيشوع بن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى أنه كان يضاھيه فى ملابسه وفى « حسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة

(١) اهل الذمة فى الاسلام ص ١٦٥ .

(٢) الملدر السابق ص ١٧٠ .

ومباراته في الطيب والجواري والعبيد . ولما مرض (سلمويه) بعث المعتصم ابنه لزيارته ، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته الى القصر ، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى ، وامتنع المعتصم ، يوم موته ، عن أكل الطعام .

أما يوحنا بن ماسويه ، فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد الى المتوكل ، وكان لا يغيب قط عن طعامهم ، فكانوا لا يتناولون شيئا من طعامهم الا بحضوره ، ومن ثم لم تكن هناك أدنى كلفة بينه وبين الخليفة المتوكل ، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين .

واشهر من بين أهل الذمة كثير في ميدان الآداب والفنون ، فيقول (ترتون) : ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ، بل ان كثيرا من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة ، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالا من غير المسلمين .

درس كثير من الذميين على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين . من ذلك أن حنين بن اسحق درس على يد الخليل بن أحمد وسفيويه حتى أصبح حجة في العربية (١) . وتلمذ يحيى بن عدي بن حميد - أفقه رجال عصره في المنطق - على يد الفارابي . ودرس ثابت بن قره على محمد بن موسى الذي قدمه الى الخليفة المعتضد العباسي . وتلقى ابن جزلة علومه على يد علي بن الوليد من رجال المعتزلة ، وكان حسن الخط متمكنا من الأدب ، وتدل مؤلفاته وكتبه على عبق تفكيره وقوة معرفته ، وما لبث أن اعتنق الاسلام (٢) .

ويضرب المؤرخ (ترتون) (٣) لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مثلا فيقول : يمكن اتخاذ ابراهيم بن هلال مثلا لما قد يصير اليه الذمي من

(١) الاسفهانى : الاغانى ج ٨ ص ١٢٦ فى الحاشية .

(٢) ابن أبى أصيبعة . طبقات الاطباء ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٥٦ .

بلوغ أرفع المناصب في الدولة ، فقد تقنّد ابراهيم الأعمال الجليلة فامتدحه الشعراء ، وعرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة البويهى أن يوليه الوزارة أن أسلم فامتنع ، وكان ابراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفا في مذهبه ، وكان بينه وبين صاحب اسماعيل بن عباد والشريف الرضى مراسلات ومواصلات ، رغم اختلاف الملل ، وكان ابراهيم حافظا للقرآن .

واهتم الكتاب المسلمون بالأديان والمذاهب ، فكان ابن حزم الأندلسى (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤) ملنا بالانجيل واللاهوت المسيحى الماما تاما . وألم ابن خلدون بالانجيل والتنظيمات الكنسية ، وتحدث عن بعضها فى مقدمته . وكان القلقشندى يرى ضرورة معرفة الكاتب بأعياد الذميين الدينية . وذكر المقرئى كثيرا من التفاصيل عن أعياد النصارى واليهود . وتحدث عن فرقهم المختلفة ، وذكر أسماء بطارقة الاسكندرية . وتحدث كل من القزوينى والمسعودى عن طوائف أهل الذمة ، نرى هذا واضحا فى كتاب (التنبية والاشراف للمسعودى) .

واعترف (ترتون) (١) بتسامح الحكام المسلمين فقال : كان سلوك الحكام المسلمين فى الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين ، وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة فى المدن العربية الخالصة ، ولم تخل دواوين الدولة قط من العساك النصارى واليهود ، بل انهم كانوا يتولون فى بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها ، فاكتزوا الثروات الضخمة وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة ، كما اعتاد المسلمون المساهمة فى الأعياد المسيحية .

اقبال أهل الذمة على الاسلام فى عهد المأمون العباسى :

من الوثائق التاريخية ، وثيقة اسلامية تعود الى عصر المأمون العباسى (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ، وهى رسالة كتبها عبد الله بن اسماعيل الهاشمى ، وهو ابن عم الخليفة ، الى عربى مسيحي كريم المحتد ، هو المسيح بن

(١) أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٥٦ .

اسحاق الكندي ، وكان له منزلة كبيرة في البلاط ، وموضع احترام وتقدير الخليفة . وهذه الوثيقة هي صورة واضحة من صور الدعوة الى الاسلام ، وقد تحدث المؤرخ (توماس أرنولد) (١) عن هذه الوثيقة فقال : « وفي هذه الرسالة يرجو ابن عم الخليفة من صديقه المسيحي أن يدخل في الاسلام ، وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود ، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمع تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر » .

وان كان الخليفة المأمون يرغب غير المسلمين في اعتناق الاسلام ، الا أنه لم يكن يرضى أن يعتنقه أحدهم الا عن اقتناع تام وقبول حقيقي ، وكثيرا ما هاجم المأمون في مجالسه هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام لغرض دنيوي ، وكان يشبههم بالمنافقين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . ويعلق (أرنولد) على موقف المأمون هذا فيقول : « وهذا يدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا الاسلام حديثا ، اقتناعا بريئا خالصا ، كما تدلنا على أن اكتشاف الأناثية والبواعث الدنيئة في اعتناقه للدين قد جرت عليهم أشد ألوان اللوم والتفريع » .

ووجه المأمون اهتمامه الى الشعوب التي كانت تسكن في الأطراف الشرقية من الدول العباسية وخاصة بلاد ماوراء النهر ومرغانة ، تعمل على تحويلها من أديانها المجوسية الى الاسلام . أما أهل الذمة فقد ترك لهم الحرية الدينية التامة في اعتناق الاسلام ، وكانت لهذه السياسة الرشيدة الحرة أثرها في اقبال كثير من الذميين على الاسلام في حرية تامة .

وتحدث المؤرخ (ترتون) (٢) عن التسامح في عهد المأمون العباسي وضرب لهذا التسامح مثلا فقال : وفي زمن خلافة المأمون ، كان هناك نصراني يدعى بكام من أثرياء بورة من أعمال مصر ، فاذا كان يوم الجمعة لبس السواد — وهو شعار العباسيين — وتقلد السيف ، وامتطى حصانه ومضى الى الجامع وبين يديه رجاله ، حتى اذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رسولا مسلما من قبله دخل الجامع وصلى بالناس . ويضرب المؤرخ

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٠٤ .

(٢) أهل الذمة في الاسلام ص ١٢٥ .

(ترتون) (١) أيضا مثلا آخرا ، فيقول : وفى عهد المأمون أعيد ترميم الديارات فى وادى النظرون ، وقام بعض حجاب المأمون باعادة بناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة ، واستطاع مسيحيان الحصول على اذن يخول لهما بناء كنيسة على جبل المقطم ، لأن الكنائس الموجودة بالقلعة كانت شديدة البعد ، وفى هذه الحقبة شيد (بكام) (أحد أثرياء نصارى) بوره (عدة كنائس رائعة فى بلدته .

المجوس فى العصر العباسى واقبالهم على الاسلام :

تناقص عدد المجوس فى العصر العباسى ، وأقبل كثير منهم على الاسلام . وان بقاء طائفة المجوس طوال العصر الأموى وفترة من العصر العباسى لدليل واضح دامغ على تسامح المسلمين وعدم لجوئهم الى القوة فى نشر الاسلام . وقد شهر أواخر القرن الثالث الهجرى (نهاية القرن الثامن الميلادى) دخول أعداد كبيرة من المجوس فى الاسلام . فقد أسلم سامان أمير بلخ ، وكان مجوسيا زرادشتيا ، وأسس مملكة اسلامية هى الدولة السامانية . وفى سنة ٨٧٣ دخل جمع كبير من أهل الديلم الزرادشتيين فى الاسلام على يد ناصر الحق أبى محمد . وفى سنة ٩١٢م دعا الحسن بن على - من الأسرة العلوية التى كانت تحكم الشاطيء الجنوبى لبحر قزوين - أهل الديلم وطبرستان الى الاسلام ، فاستجاب معظمهم ، وكان بعضهم وثنيين والبعض الآخر زرادشتيين . وفى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) اعتنق الشاعر المشهور مهيار الديلمى الاسلام على يد الشريف الرضى ، وكان من عبدة النار . وقبله وفى أوائل القرن الثانى للهجرة خرج من الزرادشتيين الى الاسلام عبد الله بن المقنع .

تحدث المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) عن تحول المجوس الى الاسلام فقال على الرغم من قلة المعلومات التى وصلت الينا عن تحول المجوس الى الاسلام فيبدو أن انتحالهم لهذا الدين كان بمحض ارادتهم كما يظهر ، أن اتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية الى نهاية العصر

(١) المصدر السابق ص ٥١ .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٤٠ .

العباسي ، وعموم المجوسى فى القرن الرابع الهجرى كأهل ذمة فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم .

فى قصر الخلافة وعند الحكومة . وعاش المجوس فى هذا القرن فى ظل التسامح الاسلامى ، وذكر الرحالة (المقدسى) أنه لم ير فى مدينة شيراز مجوسيا يرتدى رداء يبيزه عن غيره ، وكانت الأسواق تزين فى أعياد المجوس .

صداقة الدولة العباسية لدولة الفرنجة :

كانت الدولة العباسية أحسن دول العالم وأكثرها هيبه وحضارة ، وأوسعها رقعة ، وقد أخذت بفكرة الدبلوماسية الاسلامية التى تربط الأمم والحكومات بعضها ببعض ، فتبادل الخلفاء مع ملوك هذه الدول الهدايا والرسائل ، كما ظهر تبادل ثقافى ظهر واضحا فى حركة ترجمة واسعة من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية ، ونقل أمهات المؤلفات العربية الى لغات أجنبية ، ووقف الملوك الأجانب على حقيقة روح الاسلام القائمة على التسامح والمودة والحرص على السلام .

تقرب (شارل مارتل) ملك الفونجة الى الخليفة العباسى المهدي ليكتسب شيئا من النفوذ فى بلاده ، وجنى (شارلمان) ثمار هذه السياسة . فأكتب محبة هارون الرشيد . وخطب شارلمان ود الرشيد فأرسل اليه وفدا مؤلفا من رجلين من النصارى ورجلا من اليهود ، لتسهيل سبيل الحج الى بيت المقدس ، ونشر التجارة بين البلدين ، والحصول على علوم الشرق . وأدت هذه السفارة الى ارسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس الى شارلمان ، وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . وكان من الهدايا التى أرسلها الرشيد الى شارلمان تلك الساعة المائية الدقاقة التى ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرها من هدايا الشرق النادرة .

ورغم أنه كثيرا ما كانت الدولة العباسية تصطدم بالدولة البيزنطية ، إلا أنه أحيانا تسود فترات هدوء ومهادنة . ومن أمثلة ذلك الرسالة التى بعث الامبراطور (ثيوفيل) الى الخليفة المأمون العباسى بصدد تبادل

الأسرى ، وقد قال فيها : « وقد كتبت إليك داعيا الى المسالمة ، راغبا في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسيح في المتاجر وفك الأسرى وأمن الطريق » .

ومن أمثلة المودة الطيبة بين المسلمين والمسيحيين ، كتاب بطريق القسطنطينية الى أمير كريت المسلم ابان تبعتها للدولة الاسلامية وقد جاء فيه : « ... الى الأجد الأغر الأشرق أمير جزيرة كريت : ان أعظم قوتي العالم أجمع ، قوة العرب ، وقوة الروم ، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء ، وبهذا وحده يجب أن نعيش أخوة ، على الرغم من اختلافنا في الطباع والعادات والدين » .

المسيحيون في ظل الحكم العثماني الاسلامي :

تحت عنوان (علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين قائمة على التسامح) كتب المؤرخ (توماس أرنولد) (١) : باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى . ولم تكد حاضرة الامبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الاسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت . ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني بعد سقوط القسطنطينية واعادة اقرار النظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيين ، بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الاغريقية ، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ، ومنح البطريرق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق .

ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ماتعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم ، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة ، فكان من عمل البطريركية أن تفصل في القضايا التي تتعلق

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٧٠ .

بالاغريق بعضهم مع بعض . بينما صدرت الأوامر الى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام وكانت المراقبة التامة على الشؤون الروحية والكنيسة (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقا بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريرق وأعضاء المجمع الأعظم ، وكان في استطاعة البطريرق أن يدعواهم متى شاء . كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شؤون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة . ولما كان هذا البطريرق معترفا به موظفا من موظفي الحكومة السلطانية ، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان الى أعمال الحكام الظالمين .

كذلك عومل الأساقفة من الاغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة ، وعهد اليهم كثيرا من القضايا المتعلقة بشؤونهم المدنية ، الى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم كما لو كانوا عمالا من الأتراك الأرثوذكس ، وبذلك حلوا محل الارستقراطية المسيحية القديمة ، التي استأصل الغزاة شأفتها .

كان من أثر ذلك ، أن الاغريق ، عموما أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددا في كل الولايات الأوروبية التابعة للدولة ، قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم ، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم ، يسرعون في الموافقة على تغيير ساداتهم وايقار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية . وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الاغريق ، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد ، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية (البلوبونيز) وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان ، فقد صيروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها ، بادخالهم نظام الاقطاع في اليونان ، كما كانوا مكروهين من رعاياهم لاختلافهم عنهم في اللغة والجنس والعقيدة ، ووجد هؤلاء الرعايا أن أي تغيير لحكامهم ، طالما لا يمكن أن ينقلهم الى حالة أسوأ مما هم عليه ، قد يهيء لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة .

ويعد (أرنولد) (١) مظاهر تسامح العثمانيين في معاملتهم للمسيحيين فيقول : حدثنا المؤرخ البيزنطي الذي روى قصة سقوط القسطنطينية ، كيف كان بايزيد الصارم نفسه ، رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يآلفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية تامة . وقد اشتهر مراد الثاني بعنايته في تحقيق العدالة باصلاحه للمفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الاغريقيين ، وعاقب في غير هوادة أى موظف من موظفيه استبد بأى فرد من رعاياه . لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل ، طائفة من الحكام الصالحين ، واستطاعوا بفضل الادارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها ، ووجدنا تنظيماً رائعاً في الشؤون المدنية والقضائية .

المسيحيون في المجتمع العثماني :

فتحت الدولة العثمانية كثيراً من الأقطار الأوروبية التي يدين معظم أهلها بالدين المسيحي . وقد عاش الرعايا المسيحيون الى جانب العثمانيين المسلمين في مجتمع واحد تظللهم سماء الحرية والتعاون . واعترف المؤرخ (أرنولد) بهذه الحقائق فقال : وفيما وصل الينا من الأخبار التي تتعلق بالصلوات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين ، نجد ما يرشدنا الى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الاسلامية تدريجياً ، بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين ، الأمر الذي يرجع الى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية .

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين ، ولم تعترض النساء المسيحيات ، وتربى الأطفال من الذكور الذين نشأوا عن هذا الزواج المختلط تربية اسلامية ، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن . ولم يكن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العملية من رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرابين المقدسة . وكان من أثر ذلك (على

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٧٣ .

الرغم من أن خوري الكنائس طالما كانوا يعضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيرا من أولئك الأمهات قد دخلن في دين أزواجهن .

كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى ، فمثلا يقول (ماركويتزى) انه فى يوم عيد القديس ايليا وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى . وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمون مريم العذراء ، كما أن المسيحيين يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالندور . وفى مدينة (كاليفاتشى) حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسر من المسلمين ، ساهم المسلمون فى اعانة كاهن أبرشية ، اذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات .

كانت الأقطار المسيحية الخاضعة للحكم العثمانى أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية ، وكانت جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضى ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية ، كما كانوا ينعمون بشار جهودهم فى ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم فى ظل كثير من الحكام المسيحيين .

وهناك وثيقة تاريخية كتبها (مقاربوس) بطريق أنطاكية اعترف فيها بتسامح العثمانيين ، جاء فيها : « ... أدام الله بقاء دولة الترك خالدة الى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم نصريين ، يهودا أو سامرة » .

وأدى هذا التسامح الى دخول أعداد كبيرة من المسيحيين فى الاسلام فيقول (أرنولد) (١) : وكثيرا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم الى صفوف المسلمين ، ووجدوا منهم ترحيبا كبيرا . ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه الى سنة ١١٤٠ م عندما أسلم ابن أخى الامبراطور (جون كومنين) وتزوج احدى بنات مسعود سلطان قونية . وبعد سقوط

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٧٦ .

القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد
لاعتناق الاسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان ، فنجد من بين
الداخلين في الاسلام عددا كبيرا ينتمون الى بيت (باليولوجوس)
الامبراطورى ، كما هجر العالم (جورج أميرو تريس الطرايزونى)
المسيحية . وأصبح الدين الاسلامى فى ذلك الحين الملجأ الطبيعى لأفراد
الكنيسة الشرقية ، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا
صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها الهرطقة البوليشية

وقد كانت هذه الحركة الى حد كبير احتجاجا على تقاليد الكنيسة
الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين ،
كما كانت تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع .

وحفظ (أرنولد) (١) ما كتبه مؤلف معاصر للعصر العثمانى فقد
وصف دخول أعداد كبيرة من المسيحيين فى العقيدة الاسلامية ،
وذكر دوافعهم الى ذلك ، فكتب : « عندما تخالطون الأتراك فى مجرى
حياتهم العادية ، تراهم يقيمون الصلاة ، ويرتلون مزامير داود ،
وينحون الصدقات ويدفعون غير ذلك من أعمال الخير ، ويعتقدون
فى المسيح اعتقادا ساميا ، ويتناولون التوراة فى شرف عظيم ، الى غير
ذلك ، هذا فضلا عن أنه كان يسكن أن يصير أى جاهل ، خورى كنيسة ،
إذا سعى الى الباشا التركى بالهدايا ، ولن يحضكم هذا الخورى كثيرا
على المسيحية . حينئذ سوف تنتهون الى التفكير فى أنهم قوم صالحون ،
وأن من الممكن جدا أن يدركهم الخلاص ، وسوف تنتهون الى الاعتقاد
بأن من الممكن أن يدركم الخلاص كذلك اذا ما صرتم مثلهم أتراكا مسلمين .
بذلك سوف يسحى من أذهانكم فى سهولة ويسر سر الثالث المقدس ، وابن
الله المصلوب ، وسائر أسرار الدين الكثيرة التى يلوح أنها غير معقولة
بصورة ما فى نظر الشخص الأمى . واذا بروح المسيحية تسوت فى نفوسكم
من حيث لا تشعرون ، واذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية
أو بالاسلام » .

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٩٢ .

الفصل التاسع

أهل الذمة في مصر الإسلامية

موقف الاقباط من الفتح الاسلامي :

كان العرب يترددون على مصر كثيرا قبل الاسلام ، فقد وفد الى صعيد مصر منذ أقدم العصور كثير من التجار العرب ، وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية ، حتى ان المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ م قال عن مدينة قفط في الصعيد انها مدينة نصف عربية .

فتح عمرو بن العاص العريش بدون مقاومة ، ثم استمر زحفه دون اشتباك مع جند الروم حتى وصل الى الفرما (أو بلوزيم) ، وكانت وقتئذ مفتاح مصر ، وبها كثير من الحصون ، فحاصرها عمرو شهرا حتى فتحها سنة ١٩ هـ . ثم زحف العرب الى بليس ففتحوها بعد شهر أيضا . ويذكر المؤرخون أن أرمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر الروماني كانت تقيم بها ، فأعادها عمرو الى أبيها بعد أن أكرمها مما أدى الى اعجاب القبط به . وتقدم عمرو الى أم دنين (١) ، حيث دارت معركة عنيفة مع الروم ، ثم حاصر حصن نابليون ، فطلب المقوقس الصلح ، وعقد الطرفان صلحا أهم شروطه :

١ - يدفع كل قبطي في مصر للمسلمين دينارين مع استثناء الشيوخ والنساء والصبيان .

٢ - للمسلمين حق الضيافة على الروم ، فمن نزل عليه ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليه ضيافته ثلاثة أيام .

٣ - تبقى للروم أرضهم وأموالهم .

(١) مكان حديثة الازبكية الان .

وافق الخليفة عمر بن الخطاب على هذه الشروط ، أما الامبراطور
فانه رفضها ، بل بعث يوبخ المقوقس ويلومه ، ويأمره بمعاودة قتال العرب .
ولكن العرب تسكنوا من اقتحام حصن نابليون ، وبدأ عسرو زحفه نحو
الاسكندرية عاصمة مصر حينئذ ، فحاصرها ١٤ شهرا ، وفتحها . وكانت
وفاة هرقل خلال الحصار مما أدخل اليأس فى قلوب الروم ، كما أن أهل
الاسكندرية كانوا حائقين على الروم لما عانوه من اضطهاد ديني ، كما أن
المقوقس أقنعهم أن الحكم العربى أكثر عدلا من حكم الرومان .

عقد المقوقس مع عمرو معاودة صلح أهم شروطها :

١ - يدفع كل قبلى جزية قدرها دينارين سنويا مع اعفاء الشيوخ
والنساء والأطفال .

٢ - عقد الهدنة ١١ شهرا .

٣ - أن يكف العرب والروم عن القتال .

٤ - أن يحترم العرب الكنائس والطقوس المسيحية .

٥ - بقاء اليهود فى الاسكندرية .

٦ - ألا يحاول الروم استرداد مصر .

٧ - أن يحتفظ المسلمون برهائن من الروم ١٥٠ جنديا و ٥٠ ملكيا .

٨ - أن يرحل الجند الروم عن الاسكندرية بأموالهم ومستلكاتهم .

كان هذا الصلح بمثابة اعتراف بأن مصر أصبحت ولاية عربية اسلامية
تتبع الدواة العربية الاسلامية ، وأصبحت مصر تتجه نحو المدينة بالحجاز ،
بعد أن كانت تتجه نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

كان الروم من سكان مصر أكثر الطبقات مقاومة للفتح العربى ، وهذا
طبعى فقد اعتبر الروم مصر ضيقة لهم يستغلونها أسوأ استغلال . أما
اليهود فقد وقفوا على الحياد من صراع الروم والعرب ، فكان كان اليهود
يسارسون نشاطا اقتصاديا واسع النطاق ، وكانوا يحرصون على مصالحهم
الاقتصادية فلم يزجوا بأنفسهم فى صراع لا يعود عليهم الا بالضرر ، وكان

سيان عندهم من ينتصر سواء العرب أو الروم : وكافأ عمرو بن العاص اليهود على حياتهم فنص في معاهدة الصلح على السماح لهم بالبقاء فى الاسكندرية .

أما الأقباط المصريون فقد رحبوا بالفتح العربى فقد رأوا فيه خلاصا من اضطهاد الروم البيزنطيين لهم . وكانوا يسعون الكثير عن تسامح العرب وحسن معاملتهم للمسيحيين فى الشام . وذكر المؤرخ ابن عبد الحكيم صورا كثيرة لترحيب الأقباط العرب ، فما ذكره هذا المؤرخ : « وكان بالاسكندرية عند الفتح أسقف للقبط يقال له بنيامين ، فلما بلغه قدومه - أى عمر - الى مصر ، كتب الى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا » . وذكر ابن عبد الحكيم فى مكان آخر من كتابه : « ان عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حتى أمكنهم الخروج من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الجسور والأسواق ، قاصدين الاسكندرية » (١) .

لكن مساعدة الأقباط للجيش العربى لم تكن العامل الأساسى الذى سهل انتصارهم على الروم ، فان هذا النصر يرجع الى عاملين أساسيين ، أحدهما معنوى ويتعلق بتأثير الاسلام فى نفوس القبائل العربية التى خرجت من الصحراء تنشر دينها الجديد وتوسع رقعة الدولة العربية الاسلامية . والعامل الثانى مادى يتعلق بظروف مصر الداخلية ، فقد كانت تعاني من اضطهاد البيزنطيين ، الى جانب ظروف الدولة البيزنطية ، فلم يكن بين شعوبها ارتباط أو تآلف . وكان العرب يجيدون بعض الفنون الحربية التى لا يجيدها خصومهم مثل فن الرماية ، وكان معظم جند العرب من الفرسان ، بينما معظم جند الروم مشاة ويستعملون العدد الثقيلة التى تعوق حركتهم . وامتاز العرب عن الروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بقليل من الزاد ، الى جانب الحماسة الدينية (٢) .

(١) فتوح مصر ص ٥٢ - ٥٤ .

(٢) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٦ .

تسامح العرب مع اقباط مصر :

لاشك أن موقف الأقباط السلمى جعل الفاتحين العرب يعاملونهم معاملة طيبة ، فقد خيروهم بين الاسلام أو البقاء على دينهم مقابل دفع جزية . فاذا أسلموا صار لهم حقوق المسلمين وواجباتهم ، أما اذا تمسكوا بدينهم صارت له حرية ممارسة شعائرهم الدينية مقابل دفع دينارين سنويا ، وأعفى من الجزية النساء والأطفال والشيخوخة ، وكتب عمرو للأقباط عهدا بحماية كنيستهم ، كتب أمانا للبطريق بنيامين وأعادته الى وظيفته بعد أن نفاه الروم ١٣ سنة ، واستقبله عمرو عند عودته الى الاسكندرية استقبالا حافلا .

يعترف المؤرخ (توماس أرنولد) (١) بحسن معاملة العرب للمسيحيين فيقول : يرجع النجاح الذى أحرزه الفاتحون العرب قبل كل شىء الى مألوفهم من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى ، لما عرف به من الادارة الظالمة وما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت ، فان اليعاقبة الذين كانوا يكوّنون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط ، الذين ألقوا بذور السخط والحقد اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم ترك العرب الأرض للمصريين ، وتعهدوا بحمايتهم وتأمينهم ، وأعاد العرب الى مصر الأمن والهدوء والاستقرار ، واهتموا بمشاريع الري ، وتنظيم القضاء والضرائب ، وبناء مقاييس النيل مما أدى الى انتشار الرخاء .

تحدث المؤرخ (جوستاف لوبون) (٢) عن سياسة عمرو بن العاص بعد فتح مصر فقال : ودل ما قام به عمرو بن العاص من تنظيم مصر على عظيم حكمته ، وعامل عمرو الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والانصاف منذ زمن طويل ، وأنشأ للمسلمين وحدهم محاكم منظمة دائمة ومحاكم استئناف ، فاذا كان أحد الخصوم مصريا حق للسلطات القبطية أن تتدخل ،

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٢ .

(٢) حضارة العرب ص ٢١٥ .

واحترم عمرو نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم . وسار عمرو في مصر على غرار عمر بن الخطاب في القدس ، فشمّل الديانة النصرانية بحمايته ، وسح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطرك لهم كما في الماضي ، ومن تسامحه أن أذن للنصارى في انشاء الكنائس في القسطنطينية ، المدينة الإسلامية التي أسسها .

اسطورة حريق مكتبة الاسكندرية :

يتهم بعض المستشرقين الأوربيين الذين يحاولون دائما أن يكيدوا للعرب عمرو بن العاص بأنه أحرق بأمر الخليفة عمر بن الخطاب مكتبة مدينة الاسكندرية التي كان قد أسسها بطليموس الأول والتي كان يستفيد منها كثير من العلماء والطلاب والتي كانت تحتوى على آلاف الكتب النادرة وعللوا ذلك بأن هذه الكتب كانت تحوى من التعاليم المسيحية ما يخالف الاسلام ، واستند هؤلاء المستشرقون في هذا الاتهام الباطل الى مقاله الرحالة عبد اللطيف البغدادي (١) الذي زار مصر بين سنتي ٥٩٥ - ٥٩٨ هـ والى ما جاء في كتاب أبى الفرج الملقب (٢) . فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي أنه قد سمع بوجود مكتبة ضخمة في الاسكندرية قبل الفتح الإسلامي ولكنه لم يجد هذه المكتبة عند زيارته لها ، ثم اتهم عمرو بن العاص باحراقها ..

ونحن نهدم هذا الاتهام الظالم الباطل بأدلة تاريخية ، وأخرى منطقية ، وأدلة قياسية . أما الأدلة التاريخية ، فلم يذكر المؤرخون العرب المشهورون الذين نعتمد على رواياتهم في دراساتنا للتاريخ الإسلامي شيئا عن هذا الاتهام ، مثل الطبري وابن الأثير والبلاذري وابن عبد الحكم وغيرهم . كما لم تذكره كتب مؤرخي الشيعة الذين نعلم كراهيتهم لعمرو بن العاص ولو حدث الحريق على يد عمرو لما سكنت هذه الكتب عن ذكره . وهذا كله يجعلنا نشك تماما في صحة الاتهام ..

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) وهو عز يفرس أبو الفرج بن اهرن المعروف بابن العبري وكنسنة (مختصر الدول) .

أما الأدلة المنطقية ، فقد ذكر أبو الفرج الملقب أن كتب المكتبة اتخذت وقودا لأربعة آلاف حمام لمدة ستة شهور ، وهذا لا يخضع لأي منطق ولا يقبله عقل ، فليس من المعقول أن يكون في الاسكندرية مثل هذا العدد من الحمامات ، ولم يكن بالمكتبة من الكتب ما يستمر وقودا لهذه الحمامات ستة شهور . ولو كان عمرو بن العاص أراد فعلا تدمير المكتبة لاستغرق هذا منه ساعات قليلة .

أما الأدلة القياسية ، فنحن نعرف عن العرب اهتمامهم بالعلم والكتب ، وتجلى هذا في فتوحاتهم في بلاد الشام ، فقد احترموا جميع الكتب الدينية المسيحية واليهودية ، فضلا عن دور العبادة . فما الذي يجعل العرب يحدون عن سياستهم في الشام أو العراق ؟ .

والحقيقة أن مكتبة الاسكندرية كانت قد تضاءلت قبل الفتح نتيجة نقل معظم كتبها الى روما ، الى جانب تكرار حوادث السلب والنهب وعدم اهتمام الولاة البيزنطيين . وقد يكون قد اختلط على الكتاب فظنوا أن الحريق الذي أصاب المكتبة سنة ٤٨ ق.م. عند قدوم يوليوس قيصر الى الاسكندرية لمعاوضة كليوباترة ضد أخيها فظنوا أن الحريق قد حدث زمن عمرو . كما أن المكتبة تعرضت للحريق مرة ثانية قبل الفتح الاسلامي حينما تتبع المسيحيون في الاسكندرية الوثنيين فلجأوا الى معبد للأوثان مجاور للمكتبة ، فأحرق المسيحيون هذا المعبد وامتدت النيران الى جزء من المكتبة (١) .

انتشار الاسلام في مصر :

لا شك في أن نشر الاسلام كان الهدف الرئيسي من الفتوحات العربية سواء في العراق أو الشام أو مصر . وحمل الفاتحون العرب عقيدتهم لينشروها حيث استقروا في الأمصار المفتوحة . وكان العرب يخبرون الأهالي بين الاسلام أو دفع الجزية أو القتال ، واتبعوا دائما سياسة (لا اكراه في الدين) . وقد وجد الاسلام في مصر أرضا خصبة ، وكان هناك

(١) انظر كتابنا مصر العربية الاسلامية ص ٢٣ .

صلة رحم ماسة بين العرب والأقباط ، فقد تزوج الرسول عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية المصرية ، كما أوصى الرسول بالقبط خيرا .

وكان كثير من المصريين قد ملوا طول الصراع المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك ، وبين اليعاقبة والملكانيين ، وأرادوا الخلاص من هذا النزاع المستمر ، ورأوا في اعتناق دين العرب ذلك الخلاص (١) كما اعتنق بعض المصريين الاسلام ليصبح لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب من واجبات . وكان بعض المصريين يفضلون الاسلام على دفع الجزية ، فيقول المؤرخ (بتلر) (٢) : رأى المصريون أن الاسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساويهم بالفاتحين في شرف محلمهم ، ويجعلهم اخوانهم في كل شيء ، يسهم لهم في الفىء ولا يفرض عليهم الجزية . فكان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الاسلام ، ولاسيما قد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا وحطم يقينهم باضطهاده . بل اعتنق بعض الروم الذين كانوا يقيمون في مصر الاسلام ، فقد أرادوا الاستمرار في البقاء في مصر بعد الفتح ، وأرادت هذه الطبقة أن تلائم بين واقعها وبين الواقع العربي الاسلامي ، وكان بعض روم الشام قد اعتنقوا الاسلام وصحبوا عمرو بن العاص الى مصر لفتحها) .

شمل انتشار الاسلام كل طبقات المجتمع القبطي ، ومنهم فريق من الرهبان ، مثل يوحنا أحد رهبان دير سينا ، ومن المكفرين العقلاء ومن الأشراف ، ومن العامة . وكان انتشار الاسلام يتناسب مع انتشار القبائل المهاجرة ، فكثرة الوافدين من العرب كانت تتيح ألوانا من الصلات ، صلات التقارب أو صلاة التراحم ، وليس للاسلام من دعاة الا أهله ، وكثيرا ما كانت تؤدي هذه الصلات الى الاسلام .

وكان انتشار الاسلام في المدن قبل أن يكون في القرى ، وذلك يرجع الى انتشار المسلمين في المدن المختلفة من ناحية ، والى ما يكون من قدرة أهل المدن على الاستجابة للدعوات من ناحية أخرى ، على حين يظل

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٨٥ .

(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٤٢ .

المجتمع الريفي منعزلا بعض العزلة عن هذه التيارات التي تأخذ سبيلها
اليه في ببطء وحذر (١) ويبدو أن الاسلام لم ينتشر في ريف مصر الا في
مطلع القرن الثاني حين هاجر الى مصر ، في ولاية عبيد الله بن الحجاب ،
هذه الأسر القيسية التي سكنت وادي الحوف الشرقي ، فجاورت الريف
المصرى من هذا الجانب ، وخالطته وحملت اليه الاسلام (٢) .

اقبال اهل الذمة على تعلم اللغة العربية :

بعد مرحلة الاستقرار ، بدأت مرحلة التعريب اللغوى . قبل الفتح
العربى ، كانت اللغة الرسمية في مصر اللغة اليونانية ، فكانت لغة السياسة
والادارة ولغة الثقافة والعلم ، وأصبحت لغة العبادة في الكنائس المصرية
أما اللغة القبطية فقد كانت اللغة اليومية لعامة الشعب المصرى من
الأقباط .

لما أصبحت اللغة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربى ،
كان من المنطقى أن يقبل المصريون على تعلمها . كما ساعد انتشار الاسلام
على انتشار اللغة العربية ، حتى يتيسر لمعتقيه الصلاة وقراءة القرآن
الكريم . ولكن رغم ذلك وجدت اللغة العربية عدة صعوبات ، فليس بين
اللغة العربية وكل من اللغة اليونانية واللغة القبطية صلة قرابة لغوية . ولذا
ظل نطاق انتشار اللغة العربية محدودا حتى عرب الخليفة الأموى عبد الملك
ابن مروان دواوين مصر ، فتضاءلت اللغة القبطية وعظم انتشار اللغة
العربية ، وأصبحت بسرور الوقت لغة المصريين فى الدين والثقافة والادارة ،
فى العمل والبيت ، وخلفت اللغة القبطية فى جزر صغيرة منعزلة .

أما التعريب الجنى فقد كان محدودا فى أول الأمر ، فلم يكن بين
المصريين والعرب كثير من صلات التزاوج فى القرن الأول الهجرى ، كما
كانت سياسة عمر بن الخطاب (لا فىء ولا عبيد) عاملا هاما على قلة
السبى والتزاوج . ثم وضح الاندماج والتزاوج والامتزاج فى القرنين
الثانى والثالث بعد الهجرة .

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٥٩ .

(٢) المقرئى : الخطط ح ٢ ص ٢٦١ .

اهل للذمة المصريون في ظل الحكومة الاسلامية :

وضع عمرو سياسة أساسها كسب محبة الشعب المصري ، والتأليف بين العرب الفاتحين والقبط المصريين ، فقد بعث يستدعى بطريق الاسكندرية من الشام ، وكان قد هرب اليها من اضطهاد الرومان حيث مكث ثلاث عشرة سنة . كما منح عمرو المصريين حرية ممارسة شعائرهم الدينية . وعاش المصريون طوال العصر العربي الاسلامي في أمان ..

ترك الرومان البيزنطيون مصر وقد انتشرت بها الفوضى ، وعمت الادارة والمرافق العامة ، فكان على عمرو بن العاص أن يعيد تنظيم الادارة والحكومة في مصر مما يحقق الهدوء والاستقرار والمساواة للجميع على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، كما قام بكثير من المشروعات الاصلاحية ليعم الرخاء ، ونظم الضرائب والخراج ، وأمر الجند العرب بالانتشار في الريف المصري والاختلاط بالمصريين . وفي سنة ٢٣ هـ أعاد عمرو حفر قناة نخاو التي كانت تصل بين النيل والبحر وسماها (خليج أمير المؤمنين) ، وأنشأ عمرو مقاييس النيل ، فقد كان يدرك أن الزراعة مورد مصر الأول .. وحرص عمرو على أن ينفق معظم ايرادات مصر في الاصلاحات .

كان المجتمع المصري زمن الفتح العربي يتألف من عدة عناصر مختلفة ، من قبط وروم وعرب وأكراد وأحباش ، وقد أصبح الرومان في مصر بعد الفتح الاسلامي أقلية ضئيلة ، ولكنهم فضلوا الإقامة فيها في ظل التسامح الاسلامي على الرحيل الى وطنهم .

حرص العرب الفاتحون منذ اللحظة الأولى على صبغ المجتمع بالصبغة العربية الاسلامية ، تحقيقا لوحدة التجانس بين الولايات في الدولة العربية فبدأ انتشار الاسلام والعروبة في المجتمع المصري ، في تسامح وسلام . ولم يكن للعرب مبشرون أو دعاة تخصصوا في نشر الاسلام ، كما كان الحال بالنسبة للمسيحيين ، ولكن المصريين اعتنقوا الاسلام مختارين عن اقتناع حقيقي .

كان الأقباط يمثلون غالبية سكان مصر ، وكان الولاة المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ، لمساعدتهم الفاتحين العرب أو وقوفهم على الحياد ،

فأطلقوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية . وخير مثال لهؤلاء الولاة ،
مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ - ٦٢ هـ) وعبد العزيز بن مروان
(٦٥ - ٨٦ هـ) .

فيعتبر عصر عبد العزيز بن مروان من أزهى فترات العصر العربي في
مصر ، فقد عامل الأقباط المصريين بكل تسامح ، واتخذ لاقامته دير القبط
في مدينة طنوية على نهر النيل ومنح الرهبان عشرين ألف دينار ، ولم يتخذ
حلوان مقرا له الا بعد اصابته بمرض الجذام ، فأصبحت حلوان عاصمة
مصر واهتم بتعميرها فأقام بها البساتين والمباني واهتم بالزراعة
ومقاييس النيل (١) .

تولى الأقباط المناصب الكبرى ومعظم الوظائف الادارية ، ففي عصر
عبد العزيز بن مروان كان هناك كاتبان أحدهما لإدارة مصر العليا أى الوجه
القبلى ، والآخر لإدارة مصر السفلى أى الوجه البحرى . وكان معظم
موظفى الادارة المالية من الأقباط ، كما تولى الأقباط مناصب ولاة الأقاليم .
وكان الأقباط رغم بقائهم على دينهم حريصين على تعلم اللغة العربية ، حتى
يتفاهموا مع العرب الحاكمين ، وحتى يحتفظوا بوظائفهم فى الحكومة ،
وخاصة بعد تعريب الدواوين فى عصر الخليفة الأموى عبد الملك بن
مروان الذى حول ديوان مصر من اللغة القبطية الى اللغة العربية . ولم
يتعرض الأقباط لأى اضطهاد أو ضغط (٢) .

استقر العرب بعد الفتح فى النسطاط والاسكندرية والجيزة ،
وانصرفوا الى السياسة والحرب والحكم ، ولم يقبلوا على الزراعة وسائر
المهن والحرف ، وكان التزاوج بين العرب والمصريين فى أول العصر العربى
محدودا ، ولكن توالى هجرات عربية على مصر ، وقدمت موجة عربية
كبيرة فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ،
وتخلى العرب فى عهده عن سياسة عدم الامتزاج بالمصريين ، وأقبلوا على
احتراف الزراعة ، وبدأ التزاوج يأخذ صورة واضحة ، واستمر توافد

(١) السبوتى : حسن الحاضرة ج ٢ ص ١٢٦ .
(٢) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٥٤ .

القبائل العربية ، وزاد اندماج العرب فى المجتمع العربى فى عصر الخليفة العباسى المعتصم سنة ٢١٨ هـ . فقد أمر المعتصم باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطيائهم ، وتنج عن هذا تقارب شديد بين العرب والمصريين ، وأصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد ، وبعد أن كان العربى يحرص على ابراز صبغته العربية وانتسابه الى قبيلته ، فكان يحرص على تدوين أسماء القبائل على شواهد القبور ، أصبح العرب فى القرن الثالث الهجرى يضعون اسم البلدة أو الاقليم الذى ينتسب اليه بدلا من القبيلة . ولذا نعتبر قرار المعتصم أنه أدى الى امتزاج العرب المصريين وظهور عنصر جديد نتيجة امتزاج العنصرين السابقين ، كما أدى الى انتشار العروبة والاسلام على نطاق واسع .

وبدأ الأقباط المصريون أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يتخلون عن اللغة القبطية ، ويقبلون على التحدث باللغة العربية ، وأصبح رجال الدين الأقباط فى مصر يكتبون فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ويتخاطبون بها مع أبناء الطائفة القبطية .

اتصر المسلمون للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم فى المذهب الدينى وهم الملكانيون ، فاسترد الأرثوذكس المصريون عددا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد الملكانيين ، بل حولوا عددا كبيرا فى عهد الوالى مرة بن شريك الى المذهب اليعقوبى . وسمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة ، والاحتفال بأعيادهم (١) وكان عيد وفاء النيل عيدا عاما يشترك فيه الولاة والمسلمون والأقباط على السواء .

قام الوالىان العباسيان الليثى بن سعد وعبد الله بن لهيفة ببناء الكنائس وقالوا : هو من عمارة البلاد . ويذكر المؤرخ (آدم متر) (٢) أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبني الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين . ويقول المؤرخ (ترتون) (٣) : ساهم الأقباط فى حياة المسلمين الاجتماعية

(١) المقرئى : الخطط ح ١ ص ٢٦٤ .

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ح ١ ص ٧٣ .

(٣) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٩ .

وأخذوا منها بنصيب ، فجرت عادة المسلمين فى اسنا من صعيد مصر فى أفراسهم وأعراسهم على دعوة النصارى الذين يغنون بالقبطية الصعيدية ، ويمشون أمام العروس فى أسواق اسنا وشوارعها . ويقول أبو صالح الأرمنى تعقيا على ذلك أن هذا صار عندهم عرفا وعادة مستقرة . وكثيرا ما زار المسلمون الأديرة المصرية المنتشرة فى المدن والقرى ، وقدموا لها النذور .

احتفل الأقباط والعرب بكثير من الأعياد والمواسم : وكان للأقباط عند الفتح أربعة عشر عيداً فى السنة القبطية بصر ، وهو أول يوم من توت وفيه تشعل النيران وترش المياه (١) . وسمح الولاة العرب للأقباط بجميع أعيادهم ، وكان المسلمون يشتركون دائما مع الأقباط فى الابتهاج بهذه الأعياد . وكانت جميع طبقات المجتمع تحتفل بليلة الفطاس ، فيجتمع فيها على شاطئ النيل آلاف المسيحيين والمسلمين مرتدين أفخر الثياب ، ويقبلون على أشهر الأطعمة ، ويغطس معظمهم فى نهر النيل ، معتقدين أن فى ذلك شفاء لهم من أمراضهم .

اهتم الولاة العرب بشئون الزراعة ، الحرفة الأولى للأهالى المصريين ، فاهتموا بحفر الترغ وانشاء الجسور على النيل ، وبناء القناطر ، واهتموا أيضا بانشاء مقاييس النيل لمعرفة منسوب الفيضان لتنظيم الري وضبط الضرائب . كما اهتم العرب بالصناعة ، وكان معظم الصناع من المصريين ، فقد انصرف العرب الى السياسة والجيش والادارة . وأدى تقدم الزراعة والصناعة الى نشاط التجارة ، واهتم الولاة العرب باصلاح طرق التجارة والقوافل وانشاء الآبار بها وتأمينها من اللصوص وقاموا بانشاء الموانى . واهتم العرب أيضا بتنظيم الضرائب والادارة المالية وكانت الايرادات نوعين : ضرائب الأرض ، والجزية . أما الجزية فقد فرضت على أهل الذمة من النصارى واليهود ، وأعفى النساء والأطفال والشيخوخ ، فكان الذمى يدفع دينارين فى السنة ، أو ثمانية قروش ونصف فى الشهر ، وتتعهد

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٥ .

الحكومة العربية بحماية أرواح أهل الذمة وممتلكاتهم وتعفيهم من الخدمة العسكرية .

لم يزد الخراج في السنة الأولى من ولاية عمرو بن العاص عن عشرة ملايين دينار ، وفي السنة الثانية عن اثني عشر مليون دينار ، بينما كان في عهد المقوقس عشرين مليوناً . ونستطيع أن نستخلص من ذلك أن عمرو بن العاص راعى حالة الفيضان في تقدير الضرائب ، كما أنفق كثيراً من الإيرادات في سائر المشروعات الإصلاحية ، كما ألغى عمرو كثيراً من الضرائب التي كان الرومان يفرضونها للتخفيف عن المصريين . وقد قل الخراج في مصر في العصرين الأموي والعباسي نتيجة دخول عدد كبير من أهل الذمة في الإسلام واعفائهم من دفع الجزية . واحتفظ الولاة الأمويون والعباسيون بالنظام الإداري الذي وضعه عمر بن الخطاب .

أهل الذمة في العصرين الطولوني والأخشيدي :

شهدت مصر في عصر أحمد بن طولون فترة رخاء وازدهار ، وضرب ابن طولون مثلاً أعلى للحكم الصالح المستير ، فقد اهتم بشتى النواحي العمرانية ، فقد عمل على أن يحقق لمصر استقلالاً ذاتياً عن الدولة العباسية .

صحب ظهور ابن طولون في مصر تطور هام في تاريخ الشعب المصري فقد بدأت الصبغة العربية الإسلامية تشكل المجتمع المصري وتطبعه بطابعها في العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية . وبدأت اللغة العربية تصبح لغة الحديث والعلم للعالية العظيمة من المصريين ، وبدأ المسيحيون ينسون لغتهم الأصلية بالتدريج ويتعلمون اللغة العربية . وعمل ابن طولون جاهداً على كسب ود المصريين ، مسلمين أو ذميين وظهر في ثوب المدافع عن حقوقهم ، فألغى الضرائب الظالمة ، كما أقر الأمن ، فاطمان المصريون ، وانخفضت الأسعار . واستخدم المصريون في الجيش والوظائف ، وتزوج من مصرية ، وبلغ من تعلق المصريين به أن أسفوا عليه كثيراً يوم وفاته ، وبقيت ذكرى ابن طولون ماثلة في أذهان المصريين جيلاً بعد جيل (١) .

(١) حسن محمود : مصر في الطولونيين ص ٢٢ .

يؤكد ساويرس مؤرخ البطارقة أن الحكومة الاسلامية في مصر لم تتدخل في الشعائر الدينية عند أهل الذمة ، بل كان الأمراء يحضرون مواكبهم وأعيادهم ، وكان أبناء مصر من المسلمين يشاركونهم أعيادهم كما يبين ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيرا من الوظائف في العصر الاسلامي ، وخاصة الوظائف المالية . ويذكر ساويرس كثيرا من الأمثلة وبورد أسماء كثيرة لكبار الموظفين الأقباط . كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا في تعيين أحد البطارقة بعد أن يتم انتخابه بواسطة الأساقفة . ويؤكد ساويرس أيضا ان الدين لم يفرق بين المصريين في الشعور بأنهم أبناء وطن واحد (١) .

ضرب أحمد بن طولون أمثلة كثيرة لتسامحه وحسن معاملته لأهل الذمة ، فقد عهد ببناء جامعته المعروف باسمه الى مهندس مسيحي هو سعيد بن كاتب الفرغاني (٢) . وأراد ابن طولون أن يقوم المسجد بدون عمد حتى لا يحتاج الى الاستعانة بهذه الكنائس فلا يفضب الأقباط ، فوضع المهندس نموذجاً للجامع بحيث لا يحتاج في بنائه سوى لعمودي القبلة . ثم عهد ابن طولون الى نفس المهندس ببناء القناطر من جهة حي البساتين الحالي الى القرافة الكبرى . وأقام ابن طولون (المارستان) وهي مستشفى عامة مجانية سنة ٢٥٩ هـ ، وسمح للجميع بالعلاج فيها على اختلاف أديانهم وأجناسهم مجاناً ، فكانت أول مستشفى في مصر ، وأوقف عليها كثيرا من الأوقاف ، وكان ابن طولون يتردد على المستشفى كل يوم جسعة للتفتيش على الأطباء ، والترفيه عن المرضى (٣) . واهتم ابن طولون بدير القصور وكان صديقا شخصيا لأحد رهبانه ، كما قدم ابن طولون المعاونات الى المسيحيين في دمشق عندما نشب حريق قرب كنيسة العذراء .

شعر المصريون ، مسلمون وذميون ، بالاطمئنان والاستقرار في العصر الطولوني ، واختفت ثورات المصريين تماما . وأسقط الطولونيون العرب

(١) سيدة كاشف : أحمد بن طولون ص ٢١٤ .

(٢) سيرة ابن طولون ص ١٨١ .

(٣) خطط المقرئزي ح ٢ ص ٤٠٥ .

من ديوان العطاء في مصر ، فقدوا امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية ، وأخذوا يهاجرون الى الريف واستقروا فيه وامتزجوا بالمصريين . وتستع الأقباط واليهود بالحرية الدينية في العصر الطولوني ، فكان الطولونيون يستمعون لشكاياتهم وينصفونهم ، وأبدى الأقباط وخاصة الرهبان حزنهم الشديد لوفاة ابن طولون .

كما أبدى خماروية بن أحمد بن طولون تسامحا كبيرا ، وكان الطولونيون يشاركون الأقباط المصريين في أعيادهم ، وكانت الأديرة مقصد المصريين على اختلاف أديانهم المتمتع بحدائقها . وكانت حفلة وفاء النيل عيدا قوميا يشترك فيه جميع المصريين والحكام ، وكانت تنصب الموائد وتقام الولائم في القصر الطولوني .

في العصر الاخشيدى ، كان المجتمع متماسكا متعاوننا ، وعاش المسلمون والأقباط جنبا الى جنب في هدوء . وتمتع الذميون بالحرية الدينية ، واحتفلوا بأعيادهم احتفالات رائعة ، وكان محمد بن طفج الأخشيد ، مؤسس الدولة الأخشيدية ، يشترك بنفسه في هذه الاحتفالات (١) . وكان الأخشيد يقوم باصلاح الكنائس . وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنيسية الخاصة بهم ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا الى القضاة المسلمين اذا أرادوا .

وكان في مصر في العصر الاخشيدى آلاف من الأقباط واليهود ، يارسون سائر الأعمال ، فكان منهم أصحاب الضياع والأطباء والصيارفة والتجار . ولا نسمع في العصر الاخشيدى شيئا عن التزام أهل الذمة القوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في اللباس والركوب . وكثيرا ما تدخل الحكام الاخشيديون بين الطوائف المسيحية لفض النزاع والتوفيق بينها ، ولم يكن في المدن أو القرى أحياء خاصة بأهل الذمة ، بل كانوا يعيشون جنبا الى جنب (٢) .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٢ .

(٢) سيدة كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٢١٤ .

لم يلتزم الحكام المسلمون بأن يدفع الذميون دينارين كجزية سنوية ، بل كثيرا ما نقصت الجزية عن هذا القدر ، فيقول المؤرخ (آدم متر) (١) ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذي فرضته الشريعة ، وكانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب تغير العملة ، وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكتفى بأخذ نصف دينار . ويذكر المؤرخ (ترنون) (٢) أن المسلمين أخذوا بعض الأعياد المسيحية بعين الاعتبار ، وقدروا فصول السنة بها ، فكان احتفال المصريين ببدء زيادة النيل وقت عيد الصليب ، واحتفلوا بالنيروز وقت عيد الفصح ، وغير ذلك .

وصف المسعودي (٣) احتفال الأخشيديين بعيد الغطاس ، فقال أن المصريين احتفلوا به احتفالا رائعا ، فجلس محمد بن طنج الاخشيد بقصره في جزيرة في النيل وقد أسرج حوله ألف قنديل ، واوقد المصريون المشاعل والقناديل والشموع ، وزخرت القوارب بألاف من النصارى والمسلمين ، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على أسطح الدور وشواطئ النهر ، ولبس الجميع أحسن ثيابهم .

أهل الذمة في العصر الفاطمي والأيوبي والمالكي :

كان العصر الفاطمي من أزهى العصور التي شهدتها أهل الذمة في مصر ، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية ، وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا في عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها ، وشغلوا معظم المناصب المالية في الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من احصاء عدد الكنائس التي بنيت في مصر في العصر الفاطمي (٤) .

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب حيث حكم خلفاء ثلاثة ، ثم نجح الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله في نقل الدولة الفاطمية الى مصر .

(١) الحضارة الاسلامية - ج ١ ص ٧٩ .

(٢) أهل الذمة في الاسلام ص ١١٤ .

(٣) مروج الذهب - ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٤ .

وقد بدأ المعز في مصر عصر جديد تميز بالتسامح التام مع أهل الذمة . فقد قدم المعز الى مصر بمذهب شيعي خالف به جمهور المسلمين ، وشعر المعز أنه في حاجة الى من يعاونه في تدعيم دولته ، ولما أيقن أنه من المتعذر الاعتماد على السنين في مصر أنصار الدولة العباسية ، قرب اليه أهل الذمة ، وأظهر لهم - وهو وخلفاؤه - كثيرا من التسامح ، واستخدموهم جميعا في مناصب الدولة والادارة (١) .

اعتمد الخليفة المعز لدين الله على كثير من الموظفين من أهل الذمة ، واتخذ أطباء منهم . وبرز من بين أهل الذمة في عهده يعقوب بن كلس ، وقد اعتنق الاسلام فيما بعد ، وتولى بعض دواوين الحكومة ، وما لبث أن أصبح وزيرا في عهد الخليفة العزيز بالله . والى يعقوب يرجع الفضل في وضع نظم الدولة السياسية والادارية .

وسار الخليفة العزيز بالله على سيرة أبيه المعز نحو أهل الذمة ، بل زاد عليها من تسامحه الكثير . فقد تزوج العزيز من زوجة مسيحية ، وأعاد بناء الكنائس ، واحتفل بالأعياد والمواسم الدينية المسيحية ، وسمح للبطريق القبطي (أفراهام) بإعادة كنيسة أبي سيفين بظاهر القسطنطينية ، وعهد الى عيسى بن نسطورس المسيحي بالكتابة . وولى العزيز أخوى زوجته المسيحية أبرز المناصب الدينية ، فولى أحدهما بطريركا للملكانيين بيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ ، وولى الآخر مطرانا للقاهرة . وامتد عطف وتسامح العزيز بالله الى اليهود ، فولى منشا بن ابراهيم الفرار واليا على بلاد الشام .

أشاد المؤرخ (ستانلى لينبول) (٢) بسياسة تسامح الخلفاء الفاطميين عامة ، وتسامح الخليفة العزيز بالله خاصة ، فقال : « بوصول الخلفاء الفاطميين الى مصر ، بدأت فترة من التسامح الدينى واللين لا عهد لأهل الذمة بها ، فقد كان الخلفاء الفاطميون ، باستثناء الحاكم بأمر الله : يراعون على الدوام رعاياهم المسيحيين . وكثيرا ما بنيت أو أصلحت الكنائس في عهدهم . وقد كان للخليفة العزيز زوجة مسيحية ، وكان اثنان

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٨٦ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ص ١١٨ .

من اخواتها بطاركة ملكانيين ، كما أن كلا من البطريرك اليعقوبى افريم وشعيروس أسقف أشمونين ، كانا من خير أصدقاء العزيز ، فقد كان العزيز يدعو الأسقف الى قصره ليتحدث مع رئيس القضاة فى المسائل الدينية ، كما سمح العزيز للبطريرك باصلاح كنيسة القديس مراكريوس .

وعلق المؤرخ الألماني (آدم متز) (١) على تسامح العزيز مع أهل الذمة فقال : وقد أظهر الخلفاء الفاطميون الأولون لأهل الذمة تسامحا نعجب له ، اذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم لهم مذهب خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين (يقصد مذهب الشيعة) .

وأبدى المؤرخ (أوليرى) رأيه فى استخدام أهل الذمة فى المناصب الادارية فى الدولة الفاطمية فقال : ان استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب الادارية والمدنية هو عرف شائع فى البلاد الاسلامية ، وان بالغ الفاطميون فى استعمال أكثر مما جرت به العادة من قبل .

عمل العزيز بالله على تحقيق رفاهية الشعب المصرى ، نرى ذلك واضحا فيما قام به من اصلاحات كثيرة ، وكان يدعو المصريين على اختلاف أديانهم الى الولائم الحافلة التى أقامها فى قصوره فى مختلف المناسبات . واهتم العزيز بالأعياد المصرية ، الدينية والقومية ، وخاصة الاحتفال بجزر الخليج أى وفاء النيل ، فكان هذا الاحتفال من أروع الاحتفالات الفاطمية . وحرص العزيز بالله على تنفيذ ما تعهد به جوهر الصقلى للمصريين عند فتحه مصر من حمايتهم واطلاق الحرية الدينية لهم . وأمر الخليفة الجند المغاربة بأن يسكنوا أطراف القاهرة ونهاهم عن مضايقة المصريين .

أما سياسة الحاكم بأمر الله نحو أهل الذمة فيتضح فيه ما ذكره المؤرخون عنه من شذوذ أو جنون أو ازدواج الشخصية . فقد مر أهل الذمة فى عهده بفترتين متميزتين ، تمتعوا فى فترة منهما بالتسامح والتساهل ، بينما نزل بهم فى فترة أخرى ألوان من الاضطهاد . ولكن اذا

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ - ١ ص ٦٤ .

عرفنا أن الحاكم فى الفترة الثانية قد لحق اضطهاده بسائر طبقات الشعب على اختلاف أديانهم ، أدركنا أن الحاكم لم يكن يقصد أهل الذمة بالاضطهاد .

كانت الفترة بين سنة ٣٩٠ هـ فترة برزت فيها قسوة الحاكم واضطهاداته لكثير من العناصر ، فقد تعصب للمذهب الفاطمى الشيعى ، واضطهد أهل الذمة ، كما اضطهد المسلمين من غير الشيعة . فقد أغضب الحاكم استئثار الذميين بالمناصب الكبرى واحرازهم الثروات ، فأمر بأن يضع المسيحيون واليهود شارات تميزهم عن غيرهم ، وأقدم على هدم بعض الكنائس . والغريب فى الأمر ، أن الحاكم خلال اضطهاده هذا لأهل الذمة ، ولى الوزارة منصور بن عبدون النصرانى ، ويعتبر هذا الوزير المسيحى مسئولاً عن بعض تصرفات الحاكم ، فقد أشار عليه بهدم كنيسة القيامة مما أدى الى اعلان البابوية دعوة صليبية للاستيلاء على القدس . وتخلص الذميون من اضطهاد الحاكم لهم ، بوسيلتين ، فقد اعتنق البعض الاسلام ، وهاجر البعض الآخر الى الدولتين البيزنطية والحشبية . وسمح الحاكم للمهاجرين باصطحاب أموالهم ومتاعهم .

وفى سنة ٤١١ هـ ، بدأت فترة تسامح ، فقد أصدر عدة قوانين تمنح الذميين الحرية الدينية ، ورد الى الكنائس أوقافها المسلوبة ، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس ومنحهم أماناً (١) .

والحقيقة أن رأى العام كان ساخطاً على الذميين لا باعتبارهم مخالفين فى الدين للمسلمين الذين يشلون غالبية المصريين ، ولكن باعتبارهم موظفين فى الحكومة منوطيين بجمع الضرائب . فقد كان الحاكم فى حاجة الى الأموال فكان موظفوه يقسون فى جمع الضرائب من الأهالى مما أثار غضبهم وسخطهم . كما تعرض لاضطهاد الحاكم أقرب رجاله اليه من وزراء وكتاب ، وباتوا لا يأمنون على أنفسهم فالتمسوا من الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ أماناً .

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

تنتع أهل الذمة في العصر الأيوبي بما كانوا يتمتعون به من تسامح في
العصر الفاطمي ، ولكنهم كانوا أسوأ حالا في بعض فترات العصر المملوكي .
ولكن اقتصر مظاهر المضايقات مع ارغام بعض سلاطين المماليك أهل الذمة
على ارتداء أزياء معينة تميزهم عن المسلمين . ولكن كثيرا من السلاطين
المماليك أبدوا تسامحا ومعاملة طيبة لأهل الذمة . وقد عاش المماليك في
مصر كطائفة منفصلة واحتفظوا بشخصيتهم ، ولم يختلطوا بأهالي مصر .
سواء من المسلمين أو الأقباط ، وكان هذا ترفعا منهم على أهالي البلاد .
ولا شك في أن هذه العزلة التي عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة
بين الحكام والمحكومين في مصر في العصر المملوكي .

الفصل العاشر أهل الذمة في بلاد الأندلس وجزيرة صقلية

التسامح الاسلامي في الأندلس :

فتح المسلمون شبه جزيرة أيبيريا في أوائل سنة ٩٦ هـ ، وكان الفتح الاسلامي لاسبانيا عملا خارقا ، فان البيئة الجغرافية والأحوال الطبيعية تجعل من أيبيريا قطرا وعرا لا يسهل فتحه عسكريا . وأصبح الحكم العربي الاسلامي لاسبانيا رحمة ونورا ، فقد قضى على الحكم القوطي الفاشم ، وكان المسلمون كرماء مع أمراء القوط ، فقد أعادوا (جوليان) الى حكم (سبته) كما كان ، ورددوا الى بعض الأمراء أموالهم وضياعهم (١) .

وبعد أن كان اليهود موضع اضطهاد من القوط ، أصبحوا يستتعون بالتسامح التام في ظل الحكم العربي الاسلامي ، فقد أصبحوا يأمنون على أرواحهم وأموالهم ، وسمحوا لهم بالحرية الدينية والملكية ومزاولة التجارة ، وأقبل كثير من اليهود على الاشتغال بالعلوم والآداب والطب والفلسفة وظهر من بينهم كثير من العلماء والمفكرين (٢) .

وتمتع الرقيق في اسبانيا بعاملة طيبة رحيمة بعد أن كانوا يعاقبون في ظل الحكم القوطي من الاضطهاد والعسف ، فمنحهم العرب المسلمون الحقوق المدنية وحق ملكية الأرض وزراعتها . وقضى المسلمون على العنصرية والاضطهاد العنصري ، وساووا بين الطبقات المختلفة وحفظوا التوازن بين الأجناس المتعددة . ولذا ارتاحوا جميعا الى الحكم العربي الاسلامي الذي تميز بالتسامح والمساواة والانصاف ، وأقبل كثير منهم على اعتناق الاسلام وتعلم اللغة العربية .

(١) انظر كتابنا العرب في اوروبا ص ١٩ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام - ج ٢ ص ٢٢٠ .

لم يكن امتداد الاسلام والعروبة حركة فتوح أو غزوات ، ولم يكن لانشاء امبراطورية عربية يسودها العرب المسلمون ، وانما كان فى الواقع حركة نهضة تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا ، فقد انتشر الاسلام وامتدت العروبة من الجزيرة العربية الى الشام والعراق ثم الى مصر وشمال افريقية ، وجاء دور شبه جزيرة أيبيريا .

دخل العرب المسلمون شبه جزيرة أيبيريا ، ولكنهم لم يدخلوها كما دخلها القوط سادة حكاما يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظا على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيئة سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الاسلام فى عالم القرن السابع الميلادى .

وكان العربى المسلم الذى حمل أعباء الفتوحات الأولى ، وهاجر الى البلاد المفتوحة شخصا ممتازا خيرا بالتقاليد واقتباس ما يناسبه ويفيده . وكان ألوفيا بسيطا لا يستقر الى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم ، وتمتزج دماؤهم بدماؤه ، ويشركهم فى أصله وحسبه .

ورغم الأصل البدوى ، فقد كان العربى المسلم يتذوق الجمال ، ولذا لم يخرب العرب الفاتحون مدائن الأندلس أو ما وجد فيها من منشآت ، وظلت المدن الأسبانية عامرة تنبض بالحياة والحضارة (١) .

قارن (كرد على) (٢) بين اسبانيا فى العهد القوطى والعصر الاسلامى فقال : شعر الاسبان بالفرق بين حكم العرب المسلمين وحكم القوط ، ورأوا من تسامح العرب وتفانيهم فى نشر العدل بين الناس ما يثلج له النفؤاد ، وأبقت العرب السكان الأصليين على قضائهم وادارتهم ، وقلدوهم الوظائف ، فأحب الاسبان العرب المسلمين محبة خالصة ، ورأوا البون الشاسع بين الحضارة التى يحملها المسلمون ، وما كان للقوط من الثقافة المتأخرة ، وكانت أقرب الى الهمجية . ولم يمض قرن حتى أخصبت القرى ،

(١) حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٤١٩ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ح ١ ص ٢٥٦ .

وكثر المزارع ، واتصل العيران ، وتزاحم الناس على سكن المدن ، وأمست قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية كعواصم أوروبا اليوم ، وأصبحت عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة .

اهل الذمة في المجتمع الاسلامي بالاندلس :

تغلب العرب الفاتحون على الاسبانيين ولم يتغلبوا بالسيف وحده ، بل كذلك تغلبوا أيضا بروحهم ولغتهم ودينهم ، حتى دخل كثير من الاسبانيين في الاسلام ، وتقصوا النفسية العربية ، ونسوا لغتهم اللاتينية ، وأديانهم القديمة ، وتعددت شكوى رجال الدين من أن الاسبان ينسون دينهم ولغتهم ، ويقبلون على الاسلام واللغة العربية . ولعل من أسباب ذلك أن اللغة العربية كانت فضلا عن أنها لغة الفاتحين تزر بالعلوم والمعارف التي افتقرت اليها لغتهم (١) .

أقبل العرب الفاتحون على الزواج من الاسبانيات ، سواء الأمراء منهم أو صغار الجند . فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أرملة لذريق آخر الملوك القوط ، وقد تكنت بأهله عاصم . وارتبط العرب بالعناصر الموجودة حينئذ في اسبانيا بالمصاهرة ، وعاشوا جميعا جنبا الى جنب في سلام وتعاون . ولم يحاول العرب المسلمون ارغام أحد على اعتناق الاسلام أو التعرب ، ولكن طبيعة الظروف والأحداث أدت الى تعريب تلك البلاد ، كما أقبل كثير من الأهالي على اعتناق الاسلام بعد أن لمسوا فضائله وتعاليمه السامية .

أدت سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة نحو رعاياها المسيحيين في اسبانيا ، وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت الى شيء من التجانس والتماثل . وقد كثر التصاهر بينهم ، حتى أن (ازيدور) الذي شدد النكير على الفاتحين المسلمين ، قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة الملك (لذريق) دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا العمل . هذا الى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء

(١) احمد أمين : ظهر الاسلام - ح ٢ ص ٨ .

عربية ، وقلدوا جيرانهم المسلمين ، فاختن كثير منهم ، وساروا وفق رسوم المسلمين في أمور الطعام والشراب (١) .

كان المجتمع في الأندلس يتألف من العرب ، ومعظمهم من الجند الفاتحين الذين قدموا الى الأندلس ، ومن جماعة (المسالمة) وهم الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام ؛ أما الاسبان الذين بقوا على دينهم وأصبحوا أهل ذمة فقد تستعوا بالحرية الدينية والتسامح الاسلامي . ومن بين عناصر السكان كان (المولدون) وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين ونشأوا على الاسلام ، وكانوا يشلون الغالبية العظمى من سكان الأندلس . وهناك أيضا (المستعربون) وهم الاسبان النصارى الذين عاشروا العرب وتعربوا وتستعوا بالحرية الدينية .

ويمثل الاستعراب تأثير الثقافة العربية في غير المسلمين من الاسبان . وقد أصبح المستعربون مولعين بالتراث العربي من أدب وشعر . وسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية في جميع أرجاء البلاد ، حتى أن لغة الدين المسيحي قد تطرق اليها الاهمال والنسيان شيئا فشيئا . بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة . وبلغت اللغة اللاتينية في بعض أجزاء اسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط ، حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم الكنيسة الاسبانية القديمة والانجيل الى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين .

وبينما كانت الآداب العربية التي ازدهرت في ذلك العصر تستولى على الأفتدة بجمالها ، ويقبل الناس على دراستها في حماسة وشغف ، نجد أن أولئك الذين رغبوا في دراسة الأدب المسيحي لم يعد في متناول أيديهم المادة التي كانت تستخدم في تعليم القوط المتبربرين ، ولم يجدوا ، الا في شيء من الصعوبة ، المعلمين الذين يستطيعون أن يبدؤوا معهم نوعا من الدراسة لا يرتفع كثيرا حتى عن المستوى المنحط من الثقافة (٢) .

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٦٠ .

(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٦٢ .

انتشرت الثقافة العربية بين الشباب المسيحي ، حتى جأ المطران المتعصب (أثار) بشكواه ، وأصبح هؤلاء الشباب لا يروقهم سوى الشعر والقصص العربي ، ولم يعودوا يقرأون سوى الكتب العربية ونسوا لغاتهم القديمة .

وقد كان دور المستعربين ، وهم عنصر فعال في حياة الأندلس من العوامل الهامة في نقل الحضارة العربية الى اسبانيا المسيحية ، فالعصور الوسطى الاسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصرى بين المسلمين والمسيحيين ، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطرى اسبانيا . وهم منذ الفتح العربى لم ينقطعوا عن الهجرة الى الأراضى المسيحية . وكان من شأن هذه الهجرات انتشار الثقافة الاسلامية والعربية بين أهل الشمال من المسيحيين ، فمن طريق المستعربين انتقلت اليهم عادات وتقاليد اسلامية ، وكثر الأخذ عن التراث العربى (١) .

اعترف المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) بتسامح المسلمين مع أهل الذمة فى الأندلس ، فقال : « أما عن حمل الناس على الدخول فى الاسلام ، أو اضطرادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد ، فاننا لا نسمع عن ذلك شيئا . وفى الحق ان سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد . » ثم يقول أرنولد : « لا يسعنا الا الاعتراف بأن تاريخ اسبانيا فى ظل الحكم الاسلامى يمتاز ببعده بعدا تاما عن الاضطهاد الدينى » .

وأدى هذا التسامح الاسلامى الى اقبال كثير من أهل الذمة على اعتناق الاسلام ، والتحضر بالحضارة العربية ، وفى ذلك يقول (أرنولد) (٣) أيضا : « بلغ من تأثير الاسلام فى نفوس معظم الذين تحولوا اليه من مسيحي اسبانيا مبلغا عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدئية الباهرة ، واستهدى

(١) لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ص ٢١ .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ .

أفندتهم بشعره وفلسفته وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم . كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لاظهار بأسهم ، وما تكشفته عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم . تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الاسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية واخلاصهم لها . أضف الى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة . اذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها ، باعنا على الدخول في دينهم » .

بعثات علمية اوروبية الى الأندلس :

اهتمت الدول الأوروبية المسيحية بإرسال بعثات علمية الى بلاد الأندلس العربية الاسلامية لدراسة العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى ، نتيجة ذبوع شهرة الأندلس وحضارتها الزاهرة في انجلترا وفرنسا وهولانده وتوسكانا .

تحدث المؤرخ (فالير) عن ثلاث بعثات أوروبية الى الأندلس الاسلامية ، أولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا . والبعثة الثانية انجليزية وعلى رأسها الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز) ، ويذكر المؤرخ أنه ربما كان ولي عهد انجلترا يومئذ . أما البعثة الثالثة فكانت اسبانية ، وقد بلغ عددها (٢١٣ هـ - ١٢٩٣ م) سبعمائة طالب وطالبة .

فقد اشتهرت بلاد الأندلس في أرجاء القارة الأوروبية بحضارتها وتسامحها . ويشيد (جوستاف لوبون) بذلك فيقول : لقد بلغ من نبوغ الدعوة التي حملها أبناء الجزيرة العربية الى العالم في كل مكان توجهوا اليه أن أصبح قادة هؤلاء الأقوام الذين تبينوا أن بلادهم ستكون من الجحافل العربية يترقبون في لجج وشوق اقتراب ساعة ظهور تلك الطلائع المتهللة نصرا ، والحاملة لشعلة العدل والرحمة والحضارة ، لأن السموم الطيبة وسمو الأهداف كانا يسبقان خيول أبناء يعرب . وكانت تلك الخلا

المحبة ينتشر غيرها المعطر على الناس في الشرق والغرب قبل وصول العرب المسلمين الى مقاطعاتها المديدة الكثيرة بألوف الفراسخ .

وكان الاسبان المسيحيون يملأون أجواء أوروبا بالمديح والاعجاب بأعمال العرب المسلمين وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم ، ويشيدون بالعران الذي أدخلوه على البلاد الاسبانية . وكان يتكون من كل ذلك دعاية غير مقصودة ، فترسل عفوا في صدر الاعتزاز بما وصلت اليه بلادهم على يد المسلمين الفاتحين من رقى وتمدن ، فتشرب الأعناق وتفتح الأذهان الى روايات أبناء الأندلس الأصليين المنتشرين في معظم أرجاء أوروبا كسهاجرين نزحوا عن بلادهم تحت عوامل الخوف ، ثم ما لبثوا أن تبينوا أخطاءهم في هجر بلادهم لما توارد الى أسماعهم من مواطنيهم الذين مكثوا في البلاد بما يقوم به المسلمون من أعمال جليلة ومآثر خالدة أدت الى تحويل البلاد الاسلامية الى جنات قطوفها دانية وشرائع وأنظمة ملأت الأقطار عدالة وأمنا (١) .

جعلت هذه الروايات الأفتدة والأسماع والأبصار في ديار الفرنجة تتجه الى الأندلس . وكان أول من أراد سبرغور ما يروى عن الحضارة العربية للملك فيليب البافاري الذي بعث الى الخليفة الأموي بالأندلس (هشام الأول) يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على أحوال بلاد الأندلس ، ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ليتمكن من اقتباس الثمر المفيد من ذلك لبلاده . ووافق الخليفة على طلبه ، وبعث الملك الجرمانى وفدا برئاسة وزيره الأول (ويليمين) ، وقد لقبه الأندلسيون (وليم الأمين) لأنه كان أمينا في نقل ما رآه من حضارة الأندلس وعظمتها الى الملك ، وحثه على الاستمرار في ايفاد البعثات العلمية لاقتباس معالم الحضارة العربية الاسلامية .

وتوالت البعثات الأوروبية المسيحية على الأندلس ، فأرسل ملك انجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبات) على رأس بعثة من ١٨ فتاة من

(١) الدور : الديانات والحضارات ص ٦٧ .

بنات الأمراء والأعيان الى أشبيلية يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى
النيل (سفليك) .

ونبغ كثير من أعضاء البعثات الأوروبية فى الفنون والعلوم . وبقى
ثمائة أعضاء منهم فى الأندلس حيث اعتنقوا الاسلام ولم يعودوا الى
بلادهم . وبين هؤلاء ثلاث فتيات تزوجن من مشاهير رجال الأندلس .
وأنجن فحولا يشار اليهم بالبنان ، اشتهر منهم الفلكى المشهور (عباس بن
مرداس) .

وقدمت بعثات أخرى مسيحية من فرنسا وايطاليا والأراضى الوطنة .
وامتأدت لهم معاهد غرناطة واشبيلية ، ونهلت من الحضارة الأندلسية
الاسلامية وتأثرت بالأخلاق العربية . ولم يعد بعض هؤلاء المبعوثين .
سواء من الفتيان أو الفتيات ، تحت تأثير عوامل شتى ، نتيجة اعجابهم
بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها ، أو نتيجة صلات عاطفية نشأت بين بعض
الفتيات الأوروبيات وأبناء سراة العرب الذين كانوا يزاملون أفراد البعثات
فى مختلف المعاهد العربية ، حيث اتهمت معظم هذه العلاقات بالزواج بعد
اعتناق الاسلام . وقد اشتهرت من بين الفتيات اللواتى ربطت الأقدار
حياتهن بالأسر العربية الكريمة كغيرات أبرزهن (ماري غوبييه) وهى
بلجيكية الأصل ، أحبها الأمير (حسن المهدي) وتزوجها) . ومنهن (رويكا
ستارت) من بنات العائلات الارستقراطية الجرمانية ، والراهبة (جانيت
سمبسون) المرافقة لاحدى بعثات البنات الانجليزيات ، و (شونا) ابنة
الكونت (سيرجاك) من أشرف هولنده (١) .

صقلية فى العصر الاسلامى :

امتد التسامح الاسلامى الى جزيرة صقلية وسائر جزر البحر المتوسط .
فقد ترك العرب المسلمون لأهالى صقلية الأصليين ، على اختلاف أديانهم ،
وعاداتهم وقوانينهم ، وحررتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا بجباية قليلة ، وكان
مقدارها أقل مما كانت عليه على عهد اليونان ، وأغفوا منها الرهبان والنساء .

(١) المدور : الديانات والحضارات ص : ٧٠ .

والأولاد ، وحافظوا على جميع الكنائس التي وجدوها ، واهتموا بالزراعة والصناعة ، وأدخلوا أنواعا من المزروعات مثل البردى والمران ، وأنشأوا مصانع الورق ، وامتدت هذه المصانع من صقلية الى ايطاليا ، واستخرج العرب الذهب والفضة والحديد والرصاص والنوشادر ، وعلموا أهالي صقلية صناعة الحرير ، كما اهتموا بالتجارة وانشاء الأساطيل التجارية ..

أشاد (ديبيل) بالحكم الاسلامي في صقلية فقال : ان العرب المسلمين حملوا معهم الى جزيرة صقلية مظاهر فنهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم . وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه النورمان فيما بعد . ولما فتح العرب المسلمون (بلرم) سنة ٨٣١ م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء المسلمين برزت حضارتها وفتونها فأصبح لها حكومة ذات مجد ورقى (١) .

وتحدث (آمارى) في كتابه (المسلمون في صقلية) عن الحكم العربي الاسلامي لصقلية فقال : ان من غلبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا في راحة وسرور على عهد الأمراء العرب المسلمين ، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة اخوانهم الايطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة .

اهتم الولاة المسلمون بالاصلاحات ، ونشروا ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وتنمية الزراعة ، فزادت ثروة أهالي صقلية ، وعمت فيها الخيرات ، وظل العرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالي الأصليين في شئ ، فكل منهم يمارس شعائر دينه ، ويتبع أسلوب معيشته . بل ان نساء صقلية تشبهن بنساء العرب في ملابسهن . ولم يرهق الفاطميون أهالي صقلية بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ جزية عادلة ، دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

لم يكن فتح العرب المسلمين لصقلية مجرد غزو عسكري ، بل اهتم العرب بنشر الاسلام والعروبة في تسامح عظيم ، وتنظيم أحوال الجزيرة .

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ح ١ ص ٢٨٠ .

وقسم العرب صقلية الى ثلاث ولايات ، ويصف (جوستاف لوبون) هذا التقسيم العربى لصقلية بأنه « أكثر ملاءمة لجغرافيتها » . واهتم العرب المسلمون بالنظم الادارية ، وتركوا لغير المسلمين الحرية الدينية التامة ، فخضعوا لقوانينهم المدنية والدينية ، وكانت الجزية عادلة تتناسب مع الدخل والثراء ، وجعل المسلمون كل ما له علاقة بالحقوق المدنية كالتملك والارث وما اليها ملائما لعادات صقلية ، وهذا ما لم يتبعه النورمانيون حين استولوا على الجزيرة .

ولم يكن استيلاء النورمانيين على صقلية نهاية لآثار العروبة والاسلام فى الجزيرة . فقد استمر العرب المسلمون يقيمون فيها ، واعتمد الأمراء النورمانيون عليهم فى السياسة والاقتصاد ، فقد كانوا على جانب كبير من الحضارة والرقى والخبرة ، فقد كانوا عناصر نشيطة منتجة . وقد مر الرحالة ابن جبير بجزيرة صقلية سنة ٥٨٠ هـ أى بعد ست وتسعين سنة من انتهاء الحكم العربى الاسلامى لصقلية ، فتحدث عن اعتماد الأمير النورماندى (غليام) على العناصر العربية الاسلامية فقال : « انه عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ، وانه كثير الثقة بهم ، وساكن اليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله الأطباء والمنجمون ، وهو شديد الحرص عليهم » .

واستمر روجر الثانى وابنه وغليام على الاستعانة بالعرب جريا على خطة روجر الأول ، فتركوا لهم حريتهم ، ينعمون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم . وكان هؤلاء الملوك يحسنون اللغة العربية ويطربون لشعرها وأدبها . وكان فردريك الثانى كثير العناية باللغة العربية وآدابها ، وقد ضرب فيها بسهم وافر ، وظلت اللغة العربية فى صقلية اللغة الرسمية ، وكان من العرب معلمون وأساتذة وعلماء مهرة ، ولا تزال براءات ملوك النورماندين مكتوبة بالعربية واللاتينية واليونانية ، وكانت العربية احدى اللغات التى تضرب بها نقودهم ، بل نقش عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

وكان القاضى جمال الدين بن واصل ، الفيلسوف المؤرخ ، قد رحل الى صقلية سفيرا للملك النورمانى الظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩ هـ ، فتحدث

عن الأمير النورمانى ، فذكر أنه كان يقرب العرب المسلمين ، كما تحدث عن مدينة (لوجاره) فذكر أن معظم أهلها من العرب المسلمين ، وتقام فيها صلاة الجمعة ، وأن معظم أصدقاء الأمير من المسلمين وأنه يعلن بالأذان والصلاة في معسكره ، وأن هذه التصرفات أثارت غضب البابا على الأمير (١) .

ترك العرب المسلمون فى جزيرة صقلية كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم التى لا تزال باقية حتى الآن . كما تركوا ألفاظا عربية كثيرة فى اللغة الصقلية والايطالية ، ولا تزال مدن وأماكن كثيرة فى صقلية تحمل أسماء عربية اسلامية ، ولا سيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع . وتحدث (رينالدى) عن التأثيرات العربية الاسلامية فى جزيرة صقلية فقال : ان الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى الايطالية التى تفوق الحصر دخلت اللغة الايطالية لا بطريق الاستعمار العربى بل بطريق الحضارة التى كثيرا ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة . وقد اضطرت مدينة جنوة أن تؤسس سنة ١٢٠٧ م مدرسة لتعليم اللغة العربية ، ويدل على ذلك وجود كلمات عربية فى لغة هذه المدينة وفى اللغات العامية فى جميع المدن الايطالية التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية ، وقد دخلت اليها مع التجارة العربية ، ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيرا منها والهندسة الفوطية هى فى الحقيقة الهندسة العربية . كما أن أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية فى اللغة الايطالية من أصل عربى .

وأثبت (آمارى) المشرق الصقلى ، أن صقلية مدينة للعرب المسلمين بحضارتها ، كما أن ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس الحضارة العربية ...

ان النعمة العربية التى هبت نسماها الزكية على ديار الايطاليين علمتهم كيف يحترمون الواجبات بعد أن كان معظمهم يشتغل بالسلب والنهب وقطع الطرق ، وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة وشتى العلوم بعد أن كانوا أميين يفتك الجهل المدقع بهم . وعلمتهم الصناعات المختلفة وأصول الزراعة

(١) انظر كتابنا (العرب فى اوروبا) ص ٦٩ .

وشاركهم المسلمون في ضرورب التجارة التي درت عليهم الثروات المختلفة بعد فقر وشقاء .

شهدت جزيرة صقلية كثيرا من ضرورب التسامح الاسلامى ، ولم يستطع النورمنديون أن يحدوا عن هذا التسامح ، كما اضطروا الى الالتجاء الى الحضارة الاسلامية والنظم العربية فى حكمهم وادارتهم . وعلى الرغم من أن روجر الأول نفسه كان مسيحيا غير مثقف الا أنه كونه القسم الأكبر من جنده المشاة من العرب المسلمين ، وكان يرعى الثقافة الاسلامية . وأحاط نفسه بأهل المشرق من الفلاسفة والمنجسين والأطباء ، وأبقى الموظفين العرب فى وظائفهم ، وكان بلاطه أشبه ببلاط خلفاء العرب منه ببلاط أمراء الغرب ، وظلت صقلية أكثر من مملكة مسيحية يتولى وظائفها الكبرى عرب مسلمون (١) .

وكان روجر الثانى (١١٣٠ - ١١٥٤) يرتدى الملابس العربية ، ويطرز رداءه بحروف عربية ، ونقش على سقف الكنيسة التى بناها فى بالرمو نقوشا كوفية . كما احتضن روجر الثانى (الادريسي) أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط فى العصور الوسطى . أما الامبراطور فردريك الثانى فكان فى عاداته الشخصية وحياته الرسمية نصف شرقى ، وكان فى بلاطه كثير من الفلاسفة العرب المسلمين من الشام وبغداد وتوثقت صلاته وصدقاته بالسلطين الأيوبيين فى مصر وتبادل معهم الهدايا ...

ظلت اللغة العربية شائعة فى جزيرة صقلية الى أواخر القرن التاسع للهجرة ، يؤيد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها حديثا علماء الآثار ، بل كانت شواهد قبور المسيحيين تكتب بالعربية أيضا . بل تكلم كثير من المسيحيين باللغة العربية بعد نهاية الحكم العربى بمدة طويلة وأرخوا التاريخ الهجرى .

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٧٨٧ .

الفصل الحادى عشر

الحروب الصليبية ليست عربا رينية

الاسباب الحقيقية للحروب الصليبية :

تصور الفصول الأخرى من الكتاب الجوانب المضيفة فى التاريخ الاسلامى ، فقد شهدنا صورا عديدة متنوعة للتسامح الاسلامى ، ويبحث هذا الفصل صورا قاتمة فى التاريخ الأوروبى ، يوضح تعصب جماعات من الأوربيين بأن دفعهم هذا التعصب الأعمى الى غزو العالم الاسلامى .

بدأت الحملات الصليبية فى العصر الفاطمى سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٦ م) و انتهت فى عهد المماليك سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) . وهى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق العربى ، وهى الصورة الأولى من الصور الاستعمارية التى شهدتها القرون التالية . عرف الدكتور محمد مصطفى زياده (١) الحروب الصليبية فى هذه العبارة : الحروب الصليبية حركة أوروبية اعتدائية توسعية استمدت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح الاسلامية الأولى فى أطراف الامبراطورية البيزنطية ، وفى أجواف الممالك المسيحية الغربية . سبانيا وفرنسا وإيطاليا ، وجزر البحر المتوسط . وتضاف الى هذه العوامل العالمية الكبرى ، عوامل أوروبية محلية ، وهذه ترجع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، والى صميم التاريخ الأوروبى فى ذلك القرن .

وثمة رأى خاطئ فى التاريخ طالما رددته أعلام المدرسة القديمة من المؤرخين والكتاب الغربيين ، هو أن المسيحيين فى الشرق الأدنى تعرضوا لعدوان فريد من نوعه فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وأن الطريق

(١) فى مقدمة كتابه (حملة لويس التاسع على مصر) .

الى بيت المقدس غدا موصدا في وجه الحجاج المسيحيين ، مما استثار الكنيسة وأهالي غرب أوروبا ، وأدى الى مولد الحركة الصليبية .

وقد أثبتت الأبحاث الجديدة التي قام بها المؤرخون الأوروبيون أنفسهم خطأ هذا الرأي وبعده عن الحقيقة والتاريخ . فليس حقيقيا ان المسيحيين في البلدان الاسلامية ، تعرضوا لموجة اضطهاد وحشى في القرن الحادى عشر ، وأن كنائسهم خربت وطقوسهم عطلت . وليس حقيقيا أن حجاج الغرب المسيحيين الوافدين الى بيت المقدس صادفوا عنتا وسوء معاملة من حكام البلدان الاسلامية التي مروا بها ، ذلك أن طبيعة الاسلام وأسلوب الدعوة اليه ، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية ، كل هذه أشياء تتنافى وتلك الافتراءات . ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما في كنف الدولة الاسلامية حياة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة (١)

كان من جراء الفتوحات الاسلامية تقسم غير قليل من المقاطعات الأوروبية أن تفتحت أذهان شعوبها الى وجوب نبذ الاختلافات والحروب الدينية القائمة فيما بينهم وطرحها جانبا للعمل على جمع صفوفهم لمقاومة تيار الخطر الاسلامى الذى داهمهم بفتوحاته وهم فى غفلة عن ذلك ، لا هم لهم الا مناضلة بعضهم بعضا . وراح القوم ينادون تحت زعامة البابا (أورين الثانى) سنة ١٠٩٦ م الى اعلان حرب صليبية .

لا هوادة فيها على العرب والمسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم . ومما ساعد على انخراط البابا فى عداد القائمين بهذه الدعاية وتوليه زعامة توجيهها وادارتها ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزه العرب المسلمون بموقعة (ذلاقة) على جيوش الاسبانيين الذين كان على رأسهم الملك ألفونس الخامس فى الأندلس سنة ٤٨٠ هـ .

ومن عوامل الحروب الصليبية رغبة البابوات فى توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية ، ومحاولة الاستيلاء

(١) سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٦

على ما بيد المسلمين من الممتلكات . ومنها مطامع الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا في هذه الحروب ، والحرص على انشاء أمارات مستقلة في الشرق . ولم يدفع المدن الايطالية الى الاشتراك في هذه الحروب الصليبية الا الرغبة في الحصول على منتجات الشرق ومتاجره .

ومن العوامل التي اجتذبت الناس للاشتراك في الحروب الصليبية ، ما انتشر في غرب أوروبا وقتذاك من الأوبئة والمجاعات ، فتدفقت جموع المهاجرين ، وأقبلت على الانضمام الى المشتركين في هذه الحروب ، ولا شك أن هذا السيل من المهاجرين الى الشرق حمل في طياته عددا كبيرا من المغامرين والدهماء والرهبان الهارين من الأديرة ، والأقنان الآبقين من ساداتهم (١) .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، لتجعل فئات متنوعة وجموعا غفيرة من أهالي غرب أوروبا يلبون الدعوة للحرب الصليبية ، ويجدون في تلك المغامرة الجديدة فرصة ذهبية للخلاص من ديونهم وسوء أحوالهم أو لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في الشرق . واذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على الصاق شارة الصليب على ثيابهم - مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية في التاريخ - فانه ليس هناك ما يثبت أن الصليب والكنيسة والدين كانت القوى الكبرى التي حركت مشاعرهم وجعلتهم يتحمسون لنداء البابوية . وربما كان أقرب الى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين - هو الأستاذ طومسون - من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى (٢) .

الحروب الصليبية ليست حروبا دينية :

لم تكن الحروب الصليبية حروبا دينية قام بها أناس أداروا ظهورهم للدنيا ومتاعها ولم يستهدفوا غرضا سوى الدين وخدمة الدين . وان نظرة

(١) الباز العرنى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٩ .
(٢) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٥ .

يلقيها الباحث على سلوك الصليبيين في الشرق سواء فيما يتعلق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما يتعلق بتصرفاتهم تجاه أهل البلاد الأصليين ، لتوضح أن أولئك الصليبيين لم يكن لهم من المسيحية إلا اسمها ، وأنهم ظلوا دائما أبعد ما يكونون عن روح المسيحية ، وهي الديانة السماوية الكريمة التي حرص القرآن الكريم على تكريم نبيها تكريما لم يحظ به أحد من الأنبياء السابقين .

وأى وازع دينى كان عند أولئك الغزاة الذين لم يحجسوا عن ذبح سبعين ألف مسلم فى المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس فى أيديهم فى يوليو سنة ١٠٩٩ م ؟ بل أى وازع دينى كان عند أولئك الصليبيين الغربيين عندما اقتحموا القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م - وهو البلد المسيحى الآمن - وعندئذ لم يتورعوا عن نهب كنائسها والاعتداء على أهلها المسيحيين وهم اخوانهم فى الدين ؟ (١) .

وظهر من بين الأوروبيين بعض العقلاء الذين أبدوا معارضتهم لتوجيه الحملات الصليبية ، فقد أوتوا من صحة التفكير والوعى السليم ما جعلهم يجوبون أرجاء أوروبا يخطبون فى الناس ويصورون لهم خطورة الموقف ، والكوارث التى تلحق بالأقطار الأوروبية نتيجة هذا التعصب الذى يثيره رجال القصور والكنائس على بلاد الشرق ، ويرزون الأضرار والمصائب التى سوف تنال الأوروبيين إذا انصاعوا لدعايات المضللين ولكن هذه الأصوات لم تلق كثيرا من القبول ، ولم تستطع أن تقف فى وجه تيار التعصب الأعسى ، بل تعرض بعض هؤلاء العقلاء الى التنكيل والتعذيب ، فقد صلب (داف ليچ) فى ساحة من ساحات (مونيخ) ، وأحرق (سوند) فى (اكس لاشابل) أمام أنظار الألوف من الناس . ولكن بعد اخفاق الحملات الصليبية ، أدرك الأوروبيون قيمة دعوة هؤلاء العقلاء ، فأقبلوا على تمجيدهم والاشادة بحكمتهم ، وأقيمت الأنصاب والتمائيل لهؤلاء العقلاء فى أكثر من ميدان بكل مدينة كبيرة فى ألمانيا وهولنده وفرنسا والدانمرك ، ومنها نصب لنيقولاي سوند فى بلدة (سوفن) الهولندية ، تحج اليه

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

النساء اللواتي ينحدرن من أصلاب المغامرين الذين سبق أن ذهبوا ضحايا المغامرات الصليبية . كما أن الأمهات كن يطلقن أسماء هؤلاء العقلاء على أولادهن مثل أسماء (نيقولاى) و (دينج) و (واف ليج) ، تبركا! بهم واحياء لذكراهم .

تحدث المؤرخ (جوستاف) لوبون (١) عن الحروب الصليبية فعدد الأغراض الدنيوية التي دفعت بالأوروبيين للمشاركة فى هذه الحروب فقال : نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حمية ، وصار كل واحد يرجو اصلاح حاله فضلا عما يناله فى ملكوت السماوات ، فغدا العبيد يطمعون فى فك رقابهم ، وغدا أبناء الأسر الذين حرّموا الميراث بسبب نظام البكرية والسنّيورات الذين كانت قسّمتهم جائزة ، يطمعون فى الاعتناء ، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديان وجميع المحرومين طيب العيش ، وكان عددهم كبيرا ، يعللون أنفسهم بأطيب الأمانى . حقا لقد أصاب القوم نوبة حادة من الجنون ، فرغب السنّيورات والعبيد والنساء والرهبان . والأولاد وجميع الناس فى الزحف ، وأخذ كل امرئ يبيع ما يملك ليتجهز ، واستعد من الرجال ١٣٠ ألف مقاتل لغزو فلسطين حالا . وكانت تلك النوبة تزيد حدة كل يوم ، ولم يرغب الذين بكروا فى انتظار تأليف جيش منظم ، وما كاد ربيع سنة ١٠٩٦ م يحل حتى توجهت عصابات كبيرة من كل صوب وحدث الى نهر الدانوب . وكانت الحركة شاملة ما بين بحر الشمال ونهر التير ، وكانت تجرف سكان بعض القرى آخذين ما عندهم من الأموال ، وكانت أوروبا كلها تنقض على آسيا . وكلما اقتربت تلك العصابات من هدفها المأمول زادت جنونا ودارت المعجزات والكرامات فى أدمغتها المشتعلة التى طارت منها العقول الى الأبد !!

ونفى (بردنار دى فيس) ما ردهه البعض من أن العامل الدينى هو الدافع الأول للحروب الصليبية فقال : ان السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين ، حتى اننى لو كنت مسافرا ونفق بعيرى أو حمارى الذى ينقل أمتعتى على الطريق ، وتركتها كلها دون حارس ولا

(١) حضارة العرب ص ٢٢٢ .

رقيب ، وسرت الى أقرب مدينة لأجلب لى بعيرا أو حمارا آخر ، لوجدت عند عودتى أنها باقية على ما هى لم يمسه أحد . وقال المؤرخ (منرو) فى بحثه (نظرة الغرب الى الاسلام فى زمن الحروب الصليبية) : كانت هذه الفظائع المنسوبة الى المسلمين ممزوجة بكثير من الأفاوية لتوافق روح العصر الذى كان أشد توحشا من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص هذه الفظائع على علاتها (١) .

عوامل اخفاق الحروب الصليبية :

أخفقت الحملات الصليبية اخفاقا ذريعا ، نتيجة انعدام روح الوفاق بين عناصر دعائها ، وتفكك عرى وحدة الصفوف وتشتت الأهداف فيما بينهم كاللتنازع على الزعامة والقيادة والسيادة . وقد تسرب هذا الخلاف والشقاق الى صفوف جنود الجيوش الصليبية ، وكانوا خليطا عجيبا من عناصر متباينة فى ميولها وأهدافها ولغاتها وعناصرها ومذاهبها . فقد بلغ عدد أجناس جنود الحملة السادسة ٢٠ جنسا يتحدثون ١٧ لغة . وتساءل المؤرخ (بورجيه) فى كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : كيف يسكن أن يتم النصر لمثل هذا الخليط العجيب ، على الشعوب الاسلامية التى كانت تتكون وتتكتل فى مجموعة قوية الايمان والانسجام وغنية بمالها ورجالها وحضارتها ؟ .

كما أن هذه الحملات الصليبية لم يكن لها هدف يستند الى نتائج ذات فائدة سياسية أو مدنية أو تجارية ، بل كانت لمحض ارضاء الشهوات الدينية التى تقوم على التعصب ، وكان رجال الدين أصحاب السلطة فى أوروبا فى ذلك الحين ، بينما تمتع العرب والمسلمون بحضارة زاهرة ، وكانت لهم نظم سياسية واجتماعية وعسكرية راقية (٢) .

كانت الفظائع والمذابح التى أقدمت عليها الحملات الصليبية من عوامل اخفاقها ، فقد أثارت الاشمزاز والسخط فى كل مكان حلت فيه .

(١) أنظر كتاب الاسلام والحضارة العربية لكرد على ح ١ ص ٢٩٢ .
(٢) المدور : الديانات والحضارات ص ٤٣ .

وقد اعترف المؤرخ (جوستاف لوبون) (١) بذلك فقال : ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة ، فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال ، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى .

ومن عوامل اخفاق الحروب الصليبية ، تحولها عن أهدافها الأولى التي خرجت من أجلها . وفي ذلك يقول المؤرخ (ستانلى لينبول) : تحول الصليبيون عن أغراضهم الأولى التي قدموا الى الشرق من أجلها ، فانشغلت قواتهم بالسلب والنهب وايداء المسلمين والعرب المسالمين .

أثبت الصليبيون جهلهم المطبق بفنون القتال ، فكانت جيوشهم تحفل بالفوضى ، وتكروا لحلفائهم من الروم البيزنطيين ، فقد خربوا القسطنطينية ، وعبثوا بكنائسها وجعلوها طعاما للنار ، وارتكبوا كل كبيرة أورثتهم العار . فيقول ابن الساعى فى كتابه (الجامع المنتصر) ان الافرنج لما دخلوا القسطنطينية فى سنة ٦٠٠ هـ نهبوا كل ما فى البيع من ذهب ، حتى ما على الصلبان ، وما على صورة المسيح والحواريين وما على الأناجيل (٢) .

ان الحركة الصليبية لم تكن مجرد حروب . لقد كانت بالنسبة للوطن العربى تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات . تجربة أثبتت للعرب جميعا فى المشرق والمغرب أن وحدتهم هى الملاذ الذى يلوذون به وقت الخطر ، والعاصم الذى يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين .

وكانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوروبى مغامرة فاشلة كلفته كثيرا من التضحيات فى الأرواح والأموال التى ذهبت عبثا لأن منطق العدوان لا يمكن أن ينتصر وسياسة البغى لا يمكن أن تنجح فى أرض عربية عرف أهلها بالحرص على حريتهم وحرية بلادهم (٣) .

(١) حضارة العرب ص ٢٢٥ .

(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ح ١ ص ٢٦٤ .

(٣) سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١١٠ .

صور وتعصب وفظائع الصليبيين :

ضرب الصليبيون خلال الحروب الصليبية كثيرا من الأمثلة للتعصب وأتوا من الفظائع والمذابح والكبائر ما تقشعر منه الأبدان ، وقد اعترف بذلك معظم الكتاب والمؤرخين الأوروبيين . ومن هؤلاء المؤرخين (ميشو) في كتابه (الحروب الصليبية) ، الذي ذكر أن الصليبيين حين فتحوا معرة النعمان قد قتلوا جميع من كان من المسلمين اللاجئين الى الجوامع والمختبئين في السرايب ، فأهلكوا صبورا أكثر من مائة ألف انسان ، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام . وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل في المسلمين ، حتى هلك منهم عشرات الألوف ، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد . وارتكب الصليبيون كل محرم في دينهم مع المسلمين واليهود .

وقال المؤرخ (ميشو) أيضا : تعصب الصليبيون في القدس أنواع التعصب الأعمى الذي لم يسبق له نظير ، حتى شكوا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على القاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية ، وأعماق الأرض ويجرونهم في الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح في المسلمين أسبوعا ، حتى قتلوا منهم على ما اتفق روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح ، فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأوا اليه ، وأهلكوهم كلهم بالنار .

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل كل بلد يدخلونه في الشام ويخربوا عمرانهم ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره . فقد أحرقوا دار الحكمة في طرابلس وكان فيها نحو مائة ألف مجلد . وخالف الصليبيون تعاليم المسيح في الشفقة والاحسان (١) .

واعترف المؤرخ (جوستاف لوبون) (٢) بفظائع الصليبيين في

(١) كرد على : الاسلام والتضارة العربية - ح ١ ص ٢٩٦ .

(٢) حضارة العرب ص ٣٢٧ .

القدس ، فقال : أراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذييح أهل القدس قاطبة ، فانهكوا في كل ما يستعذره الانسان من ضروب السكر والعريضة واغتناظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الاغضاء والتساهل ، فنعتهم (برنارد الخازن) بالمجانين ، وشبههم (بودوان) الذي كان رئيس أساقفة (دول) بالفروس التي تتمرغ في الأقدار .

وهناك وثيقة تاريخية تصف فظائع الصليبيين في القدس ، كتبها المؤرخ الراهبى روبرت وفيها يقول : « كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيخوخ ويقطعونهم اربا اربا ، وكانوا لا يستبقون انسانا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ، فيا للعجب ويا للفرابة أن تذبج تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم ! وكان قومنا يقبضون على كل شىء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية ، فيا للشره وحب الذهب ! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجنث ، فيا لتلك الشعوب العمى المعدة للقتل ! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية دينا ، ثم احضر (بوهيموند) جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتياهم وكهولهم الى أنطاكية لكي يباعوا فيها » (١) .

تحدث المؤرخ (جوليفه كستلو) عن الحروب الصليبية فقال : كانت كنوز الشرق تغرى الحملات الصليبية أكثر مما تستهويهم أوهام الدين ، ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين ، وان كانت دعوة انقاذ القبر المقدس ، المشكوك فى أنه قبر المسيح ، قد اتخذها البابوات ثم الملوك ، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس . وكانت هذه الحملات شؤماً على أوروبا ، استنزفت من

(١) نوبوت : حضارة العرب ص ٢٢٥ .

الممالك رجالها الأشداء الشجعان غير مرة ، وافترقت بسببها فرنسا وانجلترا والمانيا فقرا دونه كل فقر ، لما قضت عليه هذه الحروب من مئات الألوف من الأيدي النافعة ، وعلى ما صرف عليها من النفقات الباهظة . وكان من طمع البابوات ما استغلوا به سذاجة الجماهير ، فكلفهم باهظ التكاليف . وتجلت في ذلك شهواتهم المفرطة كى يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلها ، وتولت المحنة تكذيب أوهاهمهم ، فكان من ذلك أشد المصائب (١) .

صور من تسامح المسلمين مع الصليبيين :

اعترف المؤرخون الأوروبيون المسيحيون جميعا بتسامح المسلمين ، وبعدهم تماما عن التعصب الأعمى الذى اتصف به الصليبيون . وضرب صلاح الدين الأيوبي أمثلة كثيرة يتضح فيها ما أمر به الاسلام من تسامح مع أهل الكتاب ، ومع الأعداء .

وإذا كانت المصادر الأوروبية تصور صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا فى صورة الندين المتعادلين اللذين وقف كل منهما للآخر دفاعا عن وجهة نظر معينة ، فإنا نلمس فارقا كبيرا بين الرجلين فى المثل والأخلاق . ان البطولة ليست مجرد الشجاعة فى القتال ، ولكن انبطولة لها جانبها المعنوى الهام الذى يضى على صاحبها هالة من الاعجاب والتقدير والمثالية . وبعبارة أخرى فإن البطولة تتطلب قبل كل شىء مستوى معيناً من الأخلاق ، وبخاصة فيما يتعلق بمعاملة الخصوم والأعداء .

وفى الوقت الذى ترى ريتشارد قلب الأسد يلجأ أكثر من مرة الى الغدر والمراوغة ونقض العهود ونكت الايمان والقسوة فى معاملة الأسرى من المسلمين ، اذا بصلاح الدين - على العكس - يحرص على معاملة الصليبيين معاملة كريمة ، فلا يكاد يستولى على مدينة حتى يطلق سراح من فيها من نساء الصليبيين ، ويسمح لهم بالخروج معززات مكرمات

(١) الاسلام والحضارة العربية - ج ١ ص ٢١٢ .

الى حيث يردن . من ذلك أن ريتشارد قلب الأسد تعهد باطلاق سراح أسرى عكا من المسلمين وفقا للاتفاقية المبرمة بين الطرفين سنة ١١٩١ ، ولكنه لم يكد يستولى على عكا ، حتى جمع من فيها من الأسرى ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، وقتلهم طعنا وضربا بالسيف (١) .

كان في القدس حينما استعادها صلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين مائة ألف صليبي ، منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوى من تبعهم من النساء والأطفال ، فأبقى صلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيرا ، وناشد فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس ، واكتفى بأن ضرب فدية عادلة ، وعجز بعضهم عن دفع الفدية ، فأدى الملك العادل أخو صلاح الدين فدية عن ألفي صليبي ، واقتدى به صلاح الدين نفسه فأغفى كثيرين من الفدية ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وذهبهم وفضتهم ، وعامل نساء الافرنج معاملة كريمة ، وسهل السبيل لخروج ملكتين بما معها من جواهر وأموال وخدم ورخص للبطريك الأكبر أن يسير آمنا بأموال البيع والجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحهم . ولما قال المسلمون لصلاح الدين ان هذا البطريك يقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية ، قال : لا أغدر به .

ولما عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين دخل خلق عظيم من الافرنج الى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة وباسطهم . فألقى صلاح الدين على الصليبيين درسا في مكارم الأخلاق وسماحة الاسلام (٢)

واعترف المؤرخ (جوستاف لوبون) (٣) بتسامح صلاح الدين وعدله وعطفه ، فقال : وتم طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصارى على بكرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعا سلب شيء منهم .

(١) سعيد عاشور : أنواء جديدة على الحروب الصليبية ص ٨٥ .

(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية - ح ١ ص ٢٩٨ .

(٣) حضارة العرب ص ٣٢٩ .

وأشار المؤرخ (ايوركا) بما لقيه الصليبيون من حسن معاملة صلاح الدين لهم يوم فتحه القدس ، فقال : لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من أهل الصليب شفقة مؤثرة ، ولا سيما على النساء والأطفال . ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيون ، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات الإيطالية ليركبوا هؤلاء البائسين من الصليبيين .

علم صلاح الدين بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وبأنه في حاجة إلى بعض الفاكهة والثلج ، فبعث إليه صلاح الدين بحاجته ، وأرقفها بالدواء والشراب ، ولم يكدر ريتشارد يشفى من مرضه حتى عاد مرة أخرى إلى قتال صلاح الدين والمسلمين .

وروى القاضي بهاء الدين بن شداد - رفيق صلاح الدين وكاتب سيرته - قصة توضح رحمة صلاح الدين وتسامحه . فقد حدث خلال المعارك حول عكا سنة ١١٩١ أن غنم بعض المسلمين طفلاً رضيعاً عمره ثلاثة أشهر ، فخرجت أمه تشكو إلى ملوك الصليبيين ، فقائلوا لها : إنه رأى صلاح الدين - رحيم القلب ، وقد أذنا لك في الخروج ، فأخرجى واطليه منه ، فإنه يرده عليك . وقصعدت الأم صلاح الدين ، وروت له قصتها ، فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأعاد الطفل إلى أمه ، وأمر صلاح الدين لها بفرس حملها إلى بلدتها . ويعلق ابن شداد على هذه القصة فيقول : « فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية ، اللهم انك خلقتة رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والإكرام » (١) .

وفي عصر العادل ، أخى صلاح الدين ، قدمت حملة صليبية عجيبة في تكوينها ، فكانت تتألف من آلاف الأطفال جمعوهم من دول أوروبا تحقيقاً لنبوءة ذاعت وتزعم أن استرداد بيت المقدس لا يكون إلا على

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٥١ .

أيدى صبيان أطهار أبرار حيث عجز الرجال . و انتهت هذه الحملة الصليبية الشاذة بالاخفاق الذريع ، و وقع هؤلاء الصبيان أسرى في أيدي المسلمين ، و سمح المسلمون لهم بالاحتفاظ بدينهم وعاملوهم معاملة طيبة ، فقد ولى العادل بعض هؤلاء الصبيان في الوظائف الحكومية .

أقبال بعض الصليبيين على اعتناق الاسلام :

اعترف جمهرة المؤرخين المعاصرين بحقيقة تاريخية هامة ، هي أن جموع الصليبيين الذين كانوا يفتدون من الغرب يتصفون دائما بالخشونة والتعصب ، حتى اذا ما استقروا في الشام وجاوروا المسلمين وعاشروهم ، أخذت طباعهم تعدل شيئا فشيئا (١) . وقد أشار أسامة بن منقذ الى هذه الحقيقة فقال : ان الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت أخلاقهم وأنسوا بعشرة المسلمين ، أما « من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية فهو أجفى أخلاقا .

وأقبل بعض الصليبيين بعد أن لمسوا أخلاق المسلمين وتسامحهم ، على اعتناق الاسلام ، فكتب المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) تحت عنوان (حالات التحول الى الاسلام بين الصليبيين) : الى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التي وصفت بأنها قد دخلت في نطاق تأثير الحكم الاسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التي تفرعت عنها . ولكن باقتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم الى أهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية ، واستقروا في مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التي أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان . وفي غضون تلك الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات الى الاسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء . ففي الحرب الصليبية الأولى مثلا ، انشق على الطائفة

(١) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ٩٤ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١٠٨ .

الرئيسية جماعة من الالمان واللومباردين بزعامة فارس مشهور يدعى Bairaud وحاصره السلطان أرسلان السلجوقي في احدى القلاع، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام على محاصرتهم في الخارج ، فتركوا رفاقهم وانتقلوا الى الأتراك حيث اعتنقوا الاسلام بينهم .

وهناك وثيقة تاريخية كتبها (أودو الدويلي) أحد رهبان (القديس دينيس) الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للملك لويس السابع ، والذي صحبه في الحرب الصليبية الثانية ، وقارن في هذه الوثيقة بين ما لقيه الصليبيون من المعاملة الرحيمة من المسلمين وبين ما عانوه من قسوة اخوانهم المسيحيين من الاغريق ، الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم ، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ، حتى ان كثيرا من الصليبيين قد دخلوا في دين منقذهم المسلمين بمحض ارادتهم . وجاء في آخر هذه الوثيقة : « من المؤكد أنهم - أي المسلمين - لم يكرهوا أحدا من بينهم - أي الصليبيين - على نبذ دينه ، وانما اكنفوا بما قدموا لهم من خدمات » (١) .

أما سائر الصليبيين الذين لم يعتنقوا الاسلام ، فقد تأثروا بالأخلاق والطباع الاسلامية ، ونهلومنها الكثير ، فقد كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهادئات والسلام على غاية التسامح وحسن المعاملة ، يضيفونهم ويكرمونهم ، ويعاملونهم أكرم معاملة يعامل بها الضيف والغريب مع أن الصليبيين باقرار مؤرخيهم كانوا مثال الخشونة في الطباع . وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم ، الى أن قلد الصليبيون المسلمون في لباسهم وعاداتهم ، ومنهم من تعلم اللغة العربية وأجادها ، وجروا على منوال المسلمين في كثير من شئون حياتهم .

ووضح المؤرخ (منرو) هذه الحقائق فقال : لم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الاعجاب بشجاعتهم ، بل تجاوزه الى ازالة تحاملات أخرى عليهم ، فقد امتزج الصليبيون في الشام امتزاجا متصلا

(١) المصدر السابق ص ١٠٩ .

بالشاميين نصاراهم ومسلميهم ، ولما كان عدد الصليبيين ضئيلا ، اعتمدوا على السكان في أعمال الزراعة والبناء . واذ كانوا يعيشون بالقرب من أشرف المسلمين ، كانوا يتبادلون واياهم فروض المجاملات ، ويرمون معهم العهود ، وأسر المسلمون كثيرا من الافرنج وظلوا أمدا طويلا في أسرهم ، فكانوا يعاملونهم معاملة حسنة ، ويمنحونهم قسما وافرا من الحرية ، فعرف الصليبيون المسلمين عن كثب ، وقد نشأت بين الأسر أحيانا علاقات ود بين الفريقين (١) .

وتحدث المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) عن أثر الاسلام والمسلمين في أفكار الصليبيين وأخلاقهم ، فقال : ان زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرا أخذ ينمو على مر الزمن ، ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضي المقدسة لشرقيين في عاداتهم وأساليب حياتهم مما أثر في الأفكار الدينية ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمج الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الاسلامية . بل ان علماء اللاهوت المسيحي ، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصيا الى تكوين رأى أكثر انصافا عن ديانة المسلمين ، وزرع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس ، وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغريب أن يجذب كثيرون الى حظيرة الاسلام وكان عدد المرتدين عن المسيحية في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرا ، كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها (مجالس قضاء بيت المقدس) .

ويبرز (أرنولد) أثر تسامح المسلمين عامة ، وتسامح صلاح الدين الأيوبي خاصة في اقبال بعض الصليبيين على اعتناق الاسلام فيقول : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا ، حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم اليهم أنهم هجروا

(١) الاسلام والحضارة العربية - ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١١٠ .

ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا الى المسلمين . وكذلك كانت الحال ، عندما طرح النصرانية ، مثلاً ، فارس انجليزى من فرسان المعبد ، يدعى (روبرت أوف سانت ألبانس) فى سنة ١١٨٥ م ، واعتنق الاسلام ثم تزوج باحدى حفيدات صلاح الدين . وبعد هزيمة الصليبيين المنكرة فى واقعة حطين ، وقع ملك بيت المقدس (جوى) فى الأسر ، وهرب ستة من فرسان الملك الى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض ارادتهم . وكان (ريموند الثالث) كونت طرابلس الشام يريد حث أتباعه على ترك العقيدة المسيحية والتحول الى الاسلام ، ولكن موت هذا الكونت المفاجىء قد وقف فى سبيل تنفيذ هذه الخطة (١) .

وبلغ عدد من تحول من المسيحيين الى الاسلام - كما يقول أرنولد - خمسة وعشرين ألفاً من المسيحيين فى مصر فقط . ويعلق أرنولد على ذلك بقوله : « ان دخول أى مسيحي فى الاسلام ، عن اقتناع صادق كان أمراً ممكناً » .

ورحب أهل الشام من المسيحيين بانهاء الحروب الصليبية وعودة الحكم الاسلامى ، فيقول المؤرخ (أرنولد) : ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالى بلاد الشام قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ، والحقيقة أن أهالى فلسطين من المسيحيين ، لما وقع بيت المقدس فى أيدي المسلمين نهائياً (سنة ١٢٤٤ م) رحبوا بالسيادة الجدد واطمأنوا اليهم ورضوا بحكمهم . كذلك دفع هذا الشعور نفسه ، شعور الاطمئنان الى الحياة الدينية فى ظل الحكم الاسلامى ، كثيراً من مسيحي آسيا الصغرى ، فى ابان هذه الفترة ذاتها ، الى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة ، اذ خلصوهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الاغريقية . وطالما دعا الأهلون الأتراك الى الاستيلاء على مدنهم فى آسيا الصغرى ، تخلصاً من استبداد الدولة ، وكثيراً ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء الى الولايات التركية (٢) .

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١١١ .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١١٦ .

اقتباس الصليبيين الحضارة الاسلامية :

أثرت الحروب الصليبية في القارة الأوروبية ، اذ أدت الى اضعاف النظام الاقطاعي ، وهو النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أعطى المجتمع الأوروبي الغربي طابعه في هذا العصر . ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحا كذلك في الميدان الاقتصادي ، اذ ساعدت تلك الحروب على أحدث تطور ملموس في النظم المالية في غرب أوروبا . هذا الى ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب على عصر الحروب الصليبية أدى الى نتائج خطيرة في غرب أوروبا منها: ازدياد نفوذ المدن وقوتها ، واتساع نطاق النشاط المصرفي ، وتحسين طرق التجارة وانشاء طرق جديدة ، ونشاط الطرق البحرية .

على أن أهم ما تأثر به الغرب الأوروبي في عصر الحروب الصليبية كان في ميدان الحضارة نتيجة للاتصال بالحضارة العربية الاسلامية . ذلك أن الحروب الصليبية أتاحت فرصا كثيرة للاتصال الحضاري بين الغرب الأوروبي والشرق العربي في الوقت الذي كانت أوروبا تسبح في دياجير الظلام . مما أدى الى انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية الاسلامية الى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين (١) .

أخذ الصليبيون عن المسلمين حياة الرفاهية ، وفارقوا عيش البداوة ، واشتد اقبالهم على الزراعة والتجارة ، وعرفوا أن في بلاد الشرق الاسلامي صناعات أرقى من صناعاتهم ، وزراعات ناجحة ، وتجارات رابحة ، وأخلاقا سمحة . وفي ذلك يقول المؤرخ (هرنشو) (٢) : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من مقابلة الصليبيين عندما رأوا المسلمين ، الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية دياتتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لاتصح معه المقارنة بينهما .

لم يستفد الشرق شيئا من قدوم الصليبيين ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، اذ نهلوا من منابع الحضارة الاسلامية التي لاتنضب،

(١) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦ .

(٢) علم التاريخ لمصر نشو ترجمة عبد الحميد المبادئ .

فقال (جوستاف لوبون) (١) : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من المهجينة . ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء من الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها في قلوبهم الازدراء للغريبين على مر الأجيال .

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغريبين غير أفراد أذكيا رحلوا في التجارة ، أو جاءوا فلسطين للزيارة . أما في هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الاسلامي ، فرأوا المسلمين في عقر دارهم ، وحققوا أنهم ممتازون بصفات حرية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمة من طراز آخر .

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائنهم وهضمته عقولهم من آثار خلد بها العرب حضارتهم ، وانتظمت معها شئونهم العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية . وبدأ المفكرون من رجال هذه الحملات الصليبية يعملون بعد عودتهم الى بلادهم على تقليد الدول الاسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس والمصالح التي يتكون منها جهاز الحكومة ، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال والضرائب وتنظيم الميزانيات . كما اهتموا بتأسيس دور العلم .

كانت الحروب الصليبية وما أدت اليه من اطلاع الصليبيين على الحضارة الاسلامية ، هي الخطوة الأولى نحو عصر النهضة في أوروبا ، فقال (لوبون) (٢) : ان تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيماً جداً بفعل الحروب الصليبية ، وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة واضحاً ، وإذا ما نظرنا الى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق والى ما نشأ عن تحالك الصليبيين والشرقيين من النمو في الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس الى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم .

(١) حضرة العرب ص ٢٢٤ .

(٢) حضرة العرب ص ٢٢٩ .

الفصل الثاني عشر

اليهود في الدول الإسلامية

بين التسامح الإسلامي والتعصب اليهودي :

ينظر الإسلام الى الأديان الأخرى في تسامح ، وقد جاء في القرآن الكريم (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ودعا الإسلام الناس مع دعوته الى تكوين الأخوة الإسلامية الى اخوة انسانية عامة شاملة لا فرق معها بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب .

وأين هذه التعاليم الانسانية النقية الصافية من التقاليد اليهودية التي تدعو الى الغرور العنصري والاستعلاء الجنسى ، وما كان يدعو اليه اليهود من أنهم (شعب الله المختار) ، وأن الله اصطفاهم من بين الشعوب ليكونوا حملة الدين الحقيقي ، وأن الله اصطفى الشعب العبري ليكون (شعبه) وأنه يقوم برعايته وارشاده والسهر على مصالحه بينما لم تحظ الشعوب الأخرى بشيء من هذا قط .

خلال فوضى الأديان ، قامت الديانة اليهودية التي ظهرت في أطراف آسيا الغربية تحاول نشر نفوذها وتعاليمها في الشرقين الأدنى والأوسط ، ولكنها أخفقت من أول الطريق ، لأن الاسرائيليين الذين قاموا يبشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش حياة البداوة والتأخر ، وليس لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبات التمدن كالرفاهية والثروة والتنظيم وال عمران ، وما الى ذلك من المرافق التي لا بد منها لتدعيم بنيان الحياة الراقية المتكاملة . بينما انتشرت حضارات راقية

في الهند والصين فضلا عن الحضارة الرومانية الأوروبية . ومن البديهي أن مطالبته من قوم متحضر بقبول دعوة دينية يدعو اليها جماعة تعيش في عالم من الجهل والبداءة ، أمر مستحيل ، مهما كانت هذه الدعوة .

وأصبحت الديانة اليهودية دين (تشبيهي) أي أنه يعتبر التنزيه المطلق للوحدة الالهية تشبيها ، وذلك فضلا عن بعض التخيلات الصوفية الغامضة والمبهمه . وانقسم اليهود الى شعبتين ، هما (الغاريزيون Ghariziste وهؤلاء يعتقدون المذهب الاسرائيلي القائم على الظواهر ، و (الكباليون Kappaliste وهم طبقة المتصوفين من حاخامين وسواهم ممن أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غريبة على كتب العبادة التي وضعوا أركانها ، وهم يتكبرون لكل ما هو روجي ومعنوي في الحياة ، ومذهبهم يجاري مبادئ الماويين والقوميين الأنانيين الأشداء ، ومعنى ذلك أن السعادة والمحبة والفضيلة والخير عند هذه الطغمة ليست الا عبارة عن مآخذ مادية .

ومن جملة معتقداتهم أن الله فضل بني اسرائيل على كافة الخلق ، وهو سريع الغضب على من عصاه ، ينتقم منه حتى من ذريته بشدة وعدم تسامح . فلأجل هذا يخشاه الاسرائيليون ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية النفعية أي أنهم لا ينصرفون الى عبادته بايمان مجرد أو استسلام ودعة ولهذا نجد أن نوع العبادة لدى هذه الفرقة تشبيهية تتمشى على الوجهات التي تشبه لهم بكونها الاصلح لمنافعهم فهي والحالة هذه عبادة استتاجية مادية تتحرى وجود النفع للعبد وتفترض أن المعبود يتمشى مع أهواء المخلوقات ولا توحيد ولا تنزيه لألوهيته .

لم تكن اليهودية الا عبارة عن عقيدة دنيوية مادية لا تمت الى تعاليم موسى الا بصلة الاسم فقط ، فالأنانية وحب الشراء والتنجيم والسحر والاهتمام بالمادة واضفاء الغموض على يوم الحشر والدينونة تبعد بعد السماء عن الوصايا العشر التي أتى بها موسى (١) .

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٢٧ .

كانت اليهودية ديانة محلية قاصرة تحتاج الى تكملة ، والى امتداد ولذلك ظل اليهود زمنا طويلا ينتظرون نبيا جديدا الى أن بعث فيهم المسيح عليه السلام . ظهرت المسيحية في بادئ الأمر في البيئات الاسرائيلية ، ولكن التعاليم التي قامت بموجبها تدعو الناس الى اتباعها كانت تخالف التعاليم اليهودية المحرفة على خط مستقيم ، لأن القواعد الدينية عند اليهود تركز على المادة ، أما الديانة المسيحية فتتنظر الى معنويات الحياة المتعلقة مثلا بالعبادة والزهد وفعل الخير نظرة احترام .

أما العقيدة في الاسلام فجاءت تقريرا للحق المطلق في أية صورة من الصور الكونية واعية تماما لحقيقة الانسان وطبيعته ، مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطت بين سلوك الانسان وايمانه الصحيح برباط قوى متين ، وبذلك استوعب العقيدة الاسلامية الكمال المطلق بكل معنى من معانيه (١) .

احوال اليهود في الدولتين الفارسية والرومانية :

مر بنا ما كانت عليه العلاقات بين اليهود والدولة الرومانية الشرقية وكيف قضى الرومان على اليهود في السلم ودمروا معبدهم في اورشليم سنة ٧٠م وكيف خرجوا مشردين الى جهات متفرقة ، وأنهم حين جلوا عن موطنهم في فلسطين لم يهاجروا الى مكان واحد ، ولم يؤلفوا مجتمعا واحدا ، بل تفرقوا في جميع أرجاء العالم المتحضر في اوروبا وآسيا وافريقية ، ولكن اليهود في تفرقهم في هذه الأنحاء لم ينسوا أبدا أنهم يهود فلم يندمجوا في الأقوام الذين عاشوا بينهم ، انما احتفظوا بعزلتهم وانفصال جماعتهم عن الأوطان التي استقبلتهم ، ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الطباع التي تتنافى مع المواطنة الحقة ، ومن ثم كانوا دائما موضع شك واضطهاد أينما ذهبوا بين الأمم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة ، وما أحسنت الظن بهم أمة من الأمم وأحسنت اليهم حقبة من الزمن الا وعادت تنوء من اساءتهم اليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها ولا تهتم بالمشاعر العامة لسائر المواطنين .

(١) العقاد : الله ص ١١٠ .

كانت أحوال اليهود فى عهد البابليين والأشوريين والفرس حسنة نسبيا بالمقارنة بحالتهم فى الدولة الرومانية فكانوا يشتغلون بالتجارة ويتولون المناصب الى أن استولى الاسكندر الأكبر على بابل سنة ٣٣١م فعامل اليهود بشدة لمتاومتهم له ، ولكنه سرعان ما تقرب اليهم فانضموا الى جيشه وكان اليهود أسرع الناس الى اعتناق النصرانية عند ظهورها ، وقد اضطهدهم أردشير مؤسس الدولة الساسانية وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم ، ولكن سرعان ما استطاع اليهود ارضاء الأكاسرة فتحسنت حالتهم نوعا ما وعاد الاضطهاد فى عهد يزيدجر الثانى وقباز الأول الا أن اشغال الأكاسرة فى أواخر الدولة الساسانية فى لم شملهم شغلهم عن اضطهاد اليهود .

اليهود فى الدولة العربية الاسلامية :

كان اليهود الى جانب الطوائف غير الاسلامية يطلق عليهم اسم (أهل الذمة) ، والذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين ، وسماوا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، فان تقاليد الاسلام كانت تقضى بأنه اذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام فمن استجاب منهم طبقت عليهم أحكام المسلمين ومن امتنع فرضت عليه الجزية كقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى اتباع الملل المعترف بها ، وهى المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة والسامرية ، والفرقة الأخيرة ، أى السامرية ، من فرق اليهود ، تنقسم الى عدة طوائف كالربانيين والقرائيين ممن ينكرون مع السامريين أن يكونوا يهودا لاختلاف التوراة التى بيدهم عما فى يد الطوائف الأخرى .

تحدث المؤرخ (ترتون) (١) عن اليهود في الدولة العربية الإسلامية فقال : أما اليهود فمن العجيب أن المؤلفين المسلمين قلما يشيرون اليهم ، وقلما يرد ذكرهم في كتب الفقه التي تقصر كلامها في الغالب على النصارى فلا جرم اذا تبادر الى الذهن أنهم فئة ضئيلة مستضعفة ليست بذات خطر . بيد أن واقع الحال لا يؤيد هذا الفهم وليس له من سند يزيكه ، والدليل على ذلك ما أورده (بنيامين التطيبي) من كثرة مصادقته اياهم أنى ذهب ، وإشارته الى أن لهم في بعض الأحيان جاليات كبيرة العدد فكانت لهم في الاسكندرية ابان الفتح الإسلامي جالية يتراوح عددها بين أربعين وسبعين ألفا بل الثابت أنه ورد في نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالاقامة في الاسكندرية أما في فارس فكان اليهود أقل بكثير من النصارى .

تمتع اليهود في الدولة العربية الإسلامية بقسط وافر من الحرية مقابل أداء الجزية والخراج ، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين ما دامت لا تمس المسلمين ، أما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم ، وكان رأس الجالوت يدير شئون اليهود وكان يحكم هذه الطائفة وفقا للعادات الخاصة القديمة (٢) . وكان البستاني هو أول رأس جالوت تولى شئون اليهود في العهد الإسلامي وهو الذي أعاد مجد رياسة الجالوت بعد زواله وبقي هذا المنصب في أعقابه يتوارثه الخلف عن السلف عهدا طويلا ، وقام البستاني هذا بخدمات جليلة للمسلمين مما كان موضع تقدير عمر بن الخطاب ورضائه فأوصى بحسن معاملة اليهود (٣) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم متسامحا كل التسامح مع اليهود ، ولنضرب مثلا واحدا من أمثلة عديدة لتسامحه : كان من بين الغنائم التي غنمها المسلمون في موقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما

(١) أهل اللمة في الإسلام ص ٩٧ .

(٢) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٦٦ .

(٣) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠١ .

جاء اليهود يطلبونها أمر الرسول بتسليمها لهم ، فأخذ اليهود يشيرون الى الرسول بالبنان معترفين بفضلهم ، وعلق ، (اسرائيل ولفسون . فى كتابه : تاريخ اليهود فى بلاد العرب) على هذا الحادث فقال : لم يتعرض النبي لصحف اليهود المقدسة ، بينما أحرق الرومان بعد فتحهم أورشليم سنة ٧٠م الكتب المقدسة وداسوها بالاقدام وأحرق الاسبان المتعصبون صحف التوراة ، فهناك بون شاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام .

ولو لم ينشط اليهود فى الحجاز فى النيل من المسلمين ، لما امتدت اليهم يد مسلم بأذى ، ولكان حظهم من ذمة العرب حظ سكان نجران من نصارى اليمن ، فقد صالحهم الرسول سنة ١٠هـ على الفىء .

تمتع أهل الذمة ، يهود ونصارى بالحرية الدينية فى ظل الحكم العربى الاسلامى العادل فقد تركهم العرب المسلمون يدينون بما رضوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للحكومة . ففى فارس ، عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم معاملة حسنة وهم يتعرضوا لأماكن عبادتهم ، وفى بلاد الشام ومصر ، خير العرب أهل الذمة بين الاسلام والبقاء على دينهم ، فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون ومن بقى على دينه فرضت عليه الجزية مقابل حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أمواله وأولاده . كما أحسن العرب معاملة أهل الذمة فى بلاد الأندلس ، فسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيرا من ألوان العنف والاضطهاد فى عهد القوط بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم ، وأموالهم ، وأحسنوا معاملة المسيحيين الذين ظلوا على دينهم .

وأشاد (ترتون) بتسامح المسلمين مع اليهود ، فقال : وتد لنا القصة التالية على عدم ازدراء المسلمين للذميين ، وذلك أن يعقوب بن اسحق الكندى لم تمنعه يهوديته من أن يكون أبرز فلاسفة عصره ، وطبيب دهره ، وأدنى الناس منزلة الى المأمون . وحدث أن جاء ذات يوم الى حضرته وجلس مجلسا فوق أحد كبار المسلمين الذى قال له : لم تجلس

وأنت اليهودى فوق ما يجلس علماء الملة ؟ فأجابه يعقوب : لأننى أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف .

اليهود فى المجتمع الاسلامى :

عاش اليهود بين أفراد المجتمع الاسلامى فى أمان واطمئنان ، واحترفوا عددا كبيرا من الحرف ، وتولوا كثيرا من الوظائف الهامة . كما اشتغل كثيرون من اليهود بفلاحة الأرض ، فقد ترك عمر بن الخطاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية . ومنذ هاجر اليهود من جنوب الجزيرة العربية نزلوا فى الكوفة واشتغل بعضهم بالزراعة واشتغل البعض الآخر فى سائر الحرف . وقد امتنع يهود الحيرة ، وهى على أطراف العراق ، من أن ينتقلوا الى الكوفة عند انشائها ، حتى وجدوا من سبقهم فى الهجرة قد حازوا الثراء ، فأسرعوا يهاجرون اليها سنة ٢٠ هـ (١) .

واحترف عدد كبير من اليهود الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وادارة السفن (٢) ، وكان الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة من اليهود أسرع الناس الى الاسلام ، فقد اعتنقه عدد عظيم فى حماسة كبيرة . (٣) كما عمل اليهود بالتجارة ، واشتغلوا بالصناعة ، واحترفوا الطب ، فقد كان للحجاج بن يوسف الثقفى ، مثلا ، طبيبان يهوديان . (٤) واشتغل اليهود بثتى أنواع التجارة ، كما اتصلوا بالملوك لاشتغالهم بصنع المجوهرات وبيعها .

وكان يهود بيت المقدس يحتكرون تجارة الأصباغ فى المدينة ، فقد استأجروا معملا من الملك عمورى الأول ، وانحصرت هذه المهنة فيهم وأقاموا فى حى مجاور لبرج داود ، كما احتكروا فى الأندلس حرفة خصى الرقيق الصقالبة (٥) .

- (١) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣ .
- (٢) ترتون : أهل اللمة فى الاسلام ص ٢٠٥ .
- (٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢ .
- (٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤ .
- (٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٥ .

وان التجار اليهود الأوروبيين معروفين تماما في البلاد الاسلامية ، وكانوا يتحدثون باللغات العربية الفارسية واليونانية والفرنسية والاسبانية والروسية ، ويتنقلون من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، فتراهم يجلبون من المغرب الخدم والجواري والعلمان والديباج والجلود والخز والفراء والسيوف ويبدؤون سفرهم عادة من بلاد الفرنجة ، وميمون شطر الفرما ، ثم يسافرون برا حاملين تجارتهم على ظهور الابل الى القلزم ، ثم الى جدة ، فالهند فالصين ، ومن هناك يحمّلون المسك والعود الدرصيني والكافور ، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي من فرنسا الى أنطاكية ، ثم يسافرون برا الى الفرات وبغداد ، ثم يرحلون في نهر دجلة الى الأبله وعمان والهند والصين (١) .

كان يتولى شؤون اليهود رئيس ديني يسمى (رأس الجالوت) ، ونستطيع بدراسة تاريخ أحد هؤلاء الرؤساء معرفة نفوذ صاحب هذه الوظيفة .

اليهود في العصر العباسي :

تحدث المؤرخ العربي المسيحي المعاصر الدكتور متى عن اليهود في العصر العباسي ، فقال ان اليهود كانوا يعيشون حياة تسامح واطمئنان في أرجاء الدولة العباسية . وذكر (المقدسي) أن معظم الصيارفة وأصحاب المصارف في الشام كانوا من اليهود ، وولى الخليفة المعتضد كثيرا من اليهود المناصب الكبرى وكان لليهود في بغداد مستعمرة كبيرة ظلت قائمة حتى سقطت المدينة في أيدي المغول . وقد وجد (بنيامين التظلي) الذي زار المستعمرة سنة ١١٧٠م أن بها عشر مدارس ربانية وثلاثة وعشرين كنيسا (معبدا) لليهود ، وكان المعبد الرئيسي مبنا بالرخام المختلف الألوان ومزدانا بزينة غالية من الذهب والفضة .

أدى انتشار اللغة العربية بين اليهود الى ترجمة التوراة الى اللغة العربية ، ففي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد قام أحمد بن عبد الله

(١) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ١٥٢ .

ابن سلام بترجمة التوراة الى العربية ، كما اهتم الخليفة العباسي المتوكل بترجمة التوراة مرة أخرى الى اللغة العربية ، وكان هذا الخليفة معروفاً بالتسامح ، وكثيراً ما عقد المجالس التي تدور فيها بعض المناقشات والأبحاث الدينية وتتناول الأديان الثلاثة ، وأتاحت هذه الترجمة للمسلمين والمسيحيين فرصة الاطلاع على التوراة .

في العصر العباسي ، كان يتولى شؤون اليهود رئيس يدعى (عين الجالوت) ، ومن أشهر من تولوا هذه المناصب (دانيال بن حسدان) ، وكان يشغل أيضاً وظيفة قاضي اليهود عامة ، ويسميه المسلمون (سيدنا ابن داود) ويسميه اليهود (سيدنا رأس الجالوت) ، وهو يسيطر على جميع اليهود في البلاد الخاضعة للخليفة ، وكان الجميع يحترمونه ، فكان المسلمون واليهود على السواء يقفون اجلالاً له اذا كانوا بحضرته ومن لم يقف له ضرب مائة سوط ، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس ، واذ ذاك يصيح أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين أفسحوا الطريق لسيدنا ابن داود ، وكان دخله من الضرائب المفروضة على اليهود مائتي ألف دينار (١) .

وكان يطلق أحياناً على (رئيس الجالوت) لقب (ملك) ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر الى بيت المال ، بينما كان المسلمون والمسيحيون يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة وامتد نفوذ (رئيس الجالوت) في بغداد على اليهود المقيمين في البلاد الواقعة في شرقي القرات ، وبلغ عدد يهود بلاد العراق وحدها ستمائة ألف .

وأمدنا المؤرخ (آدم متر) (٢) بإحصائية عن عدد اليهود في الأقطار الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، فذكر أنه كان في دمشق ثلاثة آلاف يهودي ، وكان في جزيرة ابن عمر أربعة آلاف يهودي ، وفي الموصل سبعة آلاف ، وفي مدينة (حرية) بأقصى الشمال في العراق خمسة عشر

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١١٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ح ١ ص ٦٤-٦٥ .

ألفا ، وفي عكبرى وواسط عشرة آلاف . وكان المدن التي بها يهود كثيرون على الفرات هي مدينة الحلة وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة وبها سبعة آلاف ، والبصرة وبها ألفان . وعاش في همدان ثلاثون ألف يهودي ، وفي أصفهان خمسة عشر ألفا ، وبشيراز عشرة آلاف ، وبسمرقند ثلاثون ألفا .

ويقارن (آدم متر) (١) بين تسامح المسلمين ، الذي بدا في صورة سماح المسلمين لهذه الأعداد الكبيرة من اليهود لتعيش في المجتمع الاسلامي في حرية تامة ، وبين تعصب الصليبيين الذين غزوا بلاد الشام ، فقال : « ان السياسة التي جرى عليها قواد الصليبيين في الشام في القرن الرابع الهجري ازاء اليهود كادت تفتى الطائفة الاسرائيلية ، ويقدر بنيامين عدد سكان الحي الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس ، ولم يكن في صور الا تسعة من شبان اليهود » .

اليهود في بلاد الأندلس الاسلامية :

تمتع اليهود في الأندلس الاسلامية بكثير من مظاهر التسامح الديني الذين لم يظفروا به تحت حكم القوط ، فقد أسند اليهم كثير من مناصب الدولة . وأصبحت بعض الحرف وخاصة الطب مقصورا عليهم ، وغدوا عنصرا هاما في الادارة والتجارة والثقافة ، وأضحت قرطبة مركز الدراسات العبرية كما أصبح كثير من اليهود يتحدثون باللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها .

وكان لليهود كما كان للمسيحيين ، نظام اداري خاص بهم ، وقد ذكر الادريسي في كتابه (ضعة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبى قرطبة وأنهم كانوا « يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين » .

وليس أدل على ما بلغه اليهود في عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ ،

(١) المصدر السابق - ج ١ ص ٦٤ .

من اختيار (حسداى بين شيروط اليهودى لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يقدون على البلاط الأموى . وقد قام حسداى بدور هام فى البعثة التى أوفدها قسطنطين الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الى عبد الرحمن الناصر . وفى البعثة التى أوفدها امبراطور المانيا ، كما أسند اليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار .

اليهود فى مصر الاسلامية :

كان اليهود فى مصر أقل عددا من المسلمين والمسيحيين . ويذكر بنيامين التطيلي أنه كان لليهود زمن الفتح الاسلامى لمصر جاليات كبيرة العدد ، فكان لهم فى الاسكندرية جالية يتراوح عددها بين أربعين ألفا وسبعين ألفا ، بل الثابت أنه ورد فى نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالاقامة فى الاسكندرية . وقد أقبل اليهود على اللغة العربية والتزود بالحضارة العربية التى كانت أرقى كثيرا من حضارتهم التى كانوا عليها وقت الفتح العربى .

لقى أهل الذمة فى مصر ، يهودا أو نصارى ، معاملة طيبة متسامحة ، لا يسكن أن تقارن بما كان يعاملهم به الأباطرة الرومان المسيحيون . وتعدد المصادر التاريخية ألوان الاضطهاد الذى شهدته اليهود والنصارى فى عهد الامبراطور هرقل ، اذ كان المصريون يخالفون فى مذهبهم مذهب البيزنطيين . كما تذكر هذه المصادر ما ألحقه كاثوليك أسبانيا بالبروستانت والمسلمين واليهود على السواء ، ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش فى أسبانيا باقية ما بقى التاريخ .

لم يتدخل المسلمون فى شئون اليهود ، وأطلقوا لهم حرية ممارسة عقائدهم الدينية ، كما لم يتدخلوا فى أحوالهم المدنية ، وسمح المسلمون لليهود ببناء المعابد ، وبالاحتفال بأعيادهم الدينية ، بل كانوا يشاركونهم احتفالاتهم . وكان هذا التسامح دافعا لأهل الذمة فى مصر على اعتناق الاسلام واتقان اللغة العربية ، والاندماج فى المجتمع العربى الاسلامى ،

ووصل كثير من أهل الذمة الى المناصب الكبرى في الدولة ، واشتغلوا بجميع الحرف البارزة ، واقتنوا ثروات كبيرة ، وعاش الذمي والمسلم في المجتمع جنبا الى جنب في سلام وأمان .

أدى تعريب الدواوين الى انتشار اللغة العربية ، فبدأ أهل الذمة يهودا ونصارى ، يتخلون عن لغاتهم القديمة ، ويتعلمون اللغة العربية ، وأصبح المسلم والمسيحي واليهودي يتحدثون بلسان واحد ، مما أدى الى اذابة الفروق الاجتماعية وايجاد نوع من الوحدة الاجتماعية ، والتقارب الفكرى ، فاللغة ليست حروفا جامدة ، بل هى مظهر من مظاهر وحدة الثقافة والمشاعر .

في العصر الطولونى ، أقبل بعض اليهود على اعتناق الاسلام ، فقد شهد هذا العصر تحولا كبيرا من أهل الذمة الى العقيدة الاسلامية ، وأثر هذا التحول فى الحياة الاجتماعية فى مصر ، وترك آثاره المختلفة فى العادات والتقاليد والأعياد والأزياء . وبدأت الجزية تختفى كباب من أبواب الإيرادات ، وأخذ المسيحيون واليهود على السواء يشاركون فى الحياة الاجتماعية والثقافة العربية .

لم يرتفع صوت واحد من أصوات أهل الذمة بالاحتجاج طوال العصر الطولونى ، ولم يهتم الطولونيون بالجزية ، وانصرفوا الى الخراج ومضاعفته ، باعتبار أن مصر بلد زراعية ، كما عملوا على تنمية الزراعة ونهضتها . وتولى كثير من أهل الذمة الوظائف المالية الكبرى فى مصر .

وفى العصر الاخشيدى ، عاش اليهود فى تسامح تام ، واشتغلوا بالحرف والصناعات التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، وبرز منهم كثير من الصياغ والأطباء والصيارفة ، وكان لليهود محاكمهم الخاصة وان كان يسكنهم الاحتكام الى قضاة المسلمين . ولم يهتم الاخشيديون بتطبيق النظم الخاصة بالازياء والركوب ، وولوا اليهود بعض الوظائف المالية .

وفى العصر الفاطمى ، نعم اليهود والمسيحيون على السواء ، بفترة هدوء ورخاء وتسامح ، بل عومل أهل الذمة فى عهد بعض الخلفاء

الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها ، وبخاصة في عهدى الخليفين العزيز بالله والمستنصر ، وبعض الخلفاء الآخرين ، فقد تولوا المناصب المالية في الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى وهو أمر نستطيع تبينه من بناء عدد من الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية .

كان يتولى شئون اليهود فى القاهرة رئيس دينى يسمى (سر هساديم) أى أمير الأمراء ، وكان يعين أحبار اليهود فى الشام ومصر ، أى فى حدود الدولة الفاطمية . وذكر (بنيامين) أن عدد اليهود فى القاهرة كان سبعة آلاف ، وفى الاسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمداًن الدلتا نحو ثلاثة آلاف ، وفى الصعيد ستمائة يهودى (١) .

استعان المعز لدين الله الفاطمى بكثير من الأطباء اليهود ، وما لبث أن عظم نفوذهم فى بلاطه ، ومن أشهر رجال المعز (يعقوب بن كلس) وكان يهوديا واعتنق الاسلام ، وولى كثيرا من اليهود فى المناصب الكبرى ، ووصل يعقوب الى الوزارة فى عهد الخليفة العزيز بالله الذى اشتهر بالتسامح مع اليهود والنصارى على السواء ، فقد كان متزوجا من مسيحية وولى العزيز على حكم الشام واليا يهوديا هو منشا بن ابراهيم الفرار . أما الخليفة الحاكم بأمر الله ، فقد تظلت فترات حكمه فترة نعم فيها اليهود بالتسامح ، فقد سمح لهم بتجديد معابدهم ، وأصدر عهدا لهم يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم (٢) . وسمح الخليفة الظاهر لليهود بالاحتفال بأعيادهم ولم يطبق قيود الملابس . وتولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦ هـ الى ٤٣٩ هـ أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، وكان يهوديا ثم اعتنق الاسلام ، وكان يدير الدولة معه أبوسعد التستري اليهودى (٣) .

واشتهر صلاح الدين الأيوبى بالتسامح والرحمة ، ويذكر المؤرخون أن طبيبه الخاص (الميمونى) قد توسط لديه ليسمح لليهود بالعودة الى

(١) آدم منز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ح ١ ص ٦٦ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٢٢٢ .

(٣) السيوطى : حسن الحاضرة ح ٢ ص ١١٧ .

بلادهم ، فتدفق سيل المهاجرين من بلدان غرب أوروبا الى فلسطين طوائف
عدة تختلف فيما بينها بجنسيتها التي اتمت اليها في الأصل . وكان
اليهود قد نزل بهم ألوان كثيرة من الاضطهاد والافناء خلال الحروب
الصليبية في بلاد الشام .

مقارنة بين يهود مصر ويهود أوروبا :

عاش اليهود في مصر في تسامح وتساهل عظيمين ، ولتذكر أحوال
اليهود في الدول الأوروبية في العصور الوسطى لنستطيع أن نوازن بين
معاملة الأوروبيين لليهود ومعاملة العرب لهم ، وكان اليهود يعيشون في
أرجاء الدولة الرومانية بين قوم يخالفونهم في الدين ، وكانوا يعيشون في
عزلة عنهم باختيارهم وأقاموا في أرجاء الدولة مراكز متفرقة للمعاملات
التجارية وشئون الصيرفة ومبادلة السلع والنقود ، ولكنها متفقة فيما
بينها على قصد وعلى غير قصد لانغزالها في كل بقعة على حدة ، فاذا
سافر اليهودي من الاسكندرية الى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة
مماثلة لبيئته يذهب اليها ليستعين بها على عمله ويشترك معها في استغلال
من حوله ، وكان هذا الاستغلال بطبيعته سببا لنقمة الفقراء والأغنياء في
وقت واحد ، فكان اليهود عرضة لغضب المعوزين ، كما كانوا عرضة
لغضب المدينين وأصحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسعة
وبخاصة في ابان الأزمات والحروب الخارجية والأهلية ، وقد كانت
تتعاقب بكثرة قبل انهيار الدولة الرومانية .

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هذا الشعب
المسمى (اليهود) متفق متفاهم على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهم
لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعه في كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين
أبنائه في المعسكرات المعادية ، ولا ينظر اليهودي الى زميله نظرة العدا
والمقاطعة ، وان قطعت الحروب والفتن بين البلدين (١) .

كانت أخلاق اليهود المعروفة لاتسمح لهم بالاقامة المستقرة في

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ص ١٩ .

العصور الوسطى ، اذ اضطرتهم الامارات المسيحية الى الجلاء القهرى والهجرة القسرية ، فاتجهوا صوب الشمال الشرقى فى أوروبا الى المانيا الشرقية وبوهيميا وخاصة بولندا ، كما أن اليهود الانجليز قضى عليهم جميعا فى سنة ١٢٩٠ بالنفى ، وتبعته انجلترا فى ذلك فرنسا ومدن أوروبا الوسطى ودولها ، وبلغ ذلك الاجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من أسبانيا والبرتغال فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر ولم ينجح من هذه المعاملة الجماعية سوى الجماعات اليهودية الصغيرة فى ايطاليا .

يرجع السبب فى هذا الاخراج الجماعى لليهود ، من الأوطان المسيحية التى استوطنوها الى الاحساس بالخطر من اليهود المقيمين باعتبارهم أجانب لا مواطنين لأن الأقليات السورية واليونانية وغيرها التى هاجرت مع اليهود الى دول أوروبا قد اندمجت فى شعوبها قبل القرن الحادى عشر ، ولكن الأقلية اليهودية عاشت فى أحياء خاصة بهم ثم أرغمت بعد ذلك على الإقامة بها تجنبا لشرها ولاختلافها عن الباقين .

رأى المسيحى نتيجة تجربته أن اليهودى معول من المعاول الهدامة فى بنیان المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وذهب به الخوف منه الى أن يتصور عنه أشنع التصورات العدائية للدين المسيحى ومعتقيه . ولم يكن أفعال فى ذهن المسيحى وخياله من أن يرى يبصره بيوت المسيحيين تنهار دعائمها وتتقوض جدرانها من أثر الربا الفاحش الذى ارتبط باسم اليهود ، بل أصبح عنوانا له ، فالدين المسيحى لم يعد له كيان اقتصادى أمام مغالاة المرايين اليهود فى فرض النسب الخيالية للمفائدة على قروضهم .

نشبت العصبية بين اليهودية والمسيحية ، وترجع جذورها الى مهد المسيحية ، وما صادفته من غدر اليهود ، وتبادل الطرفان التهم وأعمال الانتقام ، ووجد الناس فى الكنيسة المسيحية معبرا عما تنطوى عليه نفوسهم من مقت ، فالكنيسة صورت اليهودية تصورا كريها .

وعبر (بارلس) عن هذا الشعور فقال : لقد كان معتقدا أن اليهودى يطلب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية ، وأنه يسرق الأطفال .

المسيحيين ، وكان معتقدا أنه يسم الآبار وينشر الأمراض ولقد كان في ذاكرة عامة أوروبا أن اليهود يمتصون مجهود البلاد الاقصادى ويمثلون الطرف الخبيث الخطر الذى يسعى أبد الدهر لتعطيم المسيحية .

ووصف (سنيكا) موقف اليهود من سكان العالم فقال : ان عادات هذه الأمة ينتشر أثرها بسرعة حتى أصبح لها مناصرون في كل بلد . ولم يتخلف نفوذ اليهود بعد اعتناق الامبراطورية الرومانية المسيحية عما كان عليه في عهدها الوثنى ، وانما ازداد نتيجة تركهم في المهن التجارية والمالية . ثم جاءت الفتوحات الاسلامية في الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط ، فاحتكر اليهود التجارة في أسواق افريقية والشام . وبما جنوا من ثروة في العالم المسيحى والاسلامى ، وما برعوا فيه من تخصص في شئون المال والتجارة ، هاجروا مختارين الى المدن التجارية الجديدة التى أنشئت في شمال أوروبا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما هاجروا من قبل الى المدن التجارية في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثالث عشر

اليهود في فلسطين في العصر الإسلامي

فلسطين العربية الإسلامية :

كان اسم فلسطين لا يطلق على القطر المعروف بهذا الاسم الآن بل كان قاصرا على شعب قديم ولم يطلق على هذا القطر الا قبل نصف قرن اذ كان القطر المعروف الآن بهذا الاسم يؤلف قسما من الامبراطورية العثمانية التي قسمت الوطن العربي الى ولايات ومتصرفيات دون أن يكون بينها اسم ولاية فلسطين بل كانت هناك متصرفية القدس وهي تابعة لولاية دمشق ، فلما وقعت الحرب العالمية الأولى وتقرر في نهايتها وضع الأقطار العربية تحت الانتداب البريطاني واستولت بريطانيا على القسم الجنوبي من سوريا وأطلقت على نصفه العربي اسم فلسطين وعلى نصفه الشرقي اسم شرق الأردن .

أما معنى كلمة فلسطين فانها محرفة من اسم شعب كان يقيم في تلك البقعة قبل أربعة آلاف سنة وأن هذه القبائل كانت تغزو سوريا والعراق ومصر وتستقر فيها وأن معظم الشعوب والدول التي ظهرت في الأقطار المذكورة كانت نتيجة هذه الغزوات العربية وأن الكنعانيين والفينيقيين والبابليين والكلدانيين والحثيين والآراميين والأشوريين والهكسوس وغيرهم كانوا جميعا من القبائل العربية العاربة أو التي استقرت مع مرور الزمن ولا شك أيضا في أن ما عدا تدمر وغسان ولخم والأنباط ومؤاب وأدوم وغيرها كانت الأخرى عربية .

وكان شعب فلسطين يقيم في جنوب البلاد وكانت له مدينة وحضارة امتدت حتى كريت وليبيا وآسيا الصغرى واليونان وقبل أن تقوم سفن الفينيقيين بجوب البحار كانت سفن الفلسطينيين تمخر عباب البحار الى

المناطق الواقعة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وكانت أشهر مدن الفلسطينيين يافا وغزة ومجدل وعسقلان وبيت داجون وبيت جبرين وغيرها وكان هذا الشعب يعبد الاله داجون وقد رسموه على شكل سمكة كبيرة مما يدل على أن هذا الشعب كان يميل الى أعمال البحر وكان هذا الشعب يعيش عيشة القبائل العربية ولكل قبيلة ملك وكانت أسماء هؤلاء الملوك تدل دلالة واضحة على أنهم عرب .

وقبل أن يأتي الفلسطينيين ويستقرون في الرقعة الجنوبية من أرض فلسطين كانت هناك قبائل عربية أخرى قد استقرت في البلاد وأقامت فيها ، ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء الى بير سبع والخليل . والبابوسيون الذين كانوا يستوطنون القدس وما حولها والكنعانيون الذين كانوا يستولون على جبال السامرة والكرمل الى لبنان ، كما كانت هناك قبائل أخرى مستقرة في البلاد .

من العسير الفصل بين تاريخ فلسطين ، وتاريخ سوريا ، وتاريخ مصر عبر القرون الطويلة الا في بعض الأزمنة والعصور القصيرة التي خضعت فيها أقسام من سوريا لغزوات جاءت عليها أحيانا من بابل أو مقدونيا ، أو روما أو فارس ، وكثيرا ما اشتركت سوريا كلها في الدفاع عن وحدتها أمام غزوات الفاتحين ومطامع الطامعين « وكثيرا ما خاض أبناء سوريا المعارك جنبا الى جنب مع اخوانهم سكان الجنوب في رد العدوان الأجنبي . وهكذا رأينا فلسطين قطرا عربيا أصيلا ، لا تشوب عروبه شائبة ما تضعف من شأنها فيه ، حيث كان مهجرا من مهاجر الموجات العربية قبل الاسلام ، ثم خلدت عروبه بالموجة الاسلامية الكبرى التي جرت بينها وبين الرومان فيه معارك طاحنة أستشهد فيها الألوف من مجاهدي الفتح الأول ، ودفن في تربته فيمن دفن أبو عبيدة القائد العام لجيوش الفتح الاسلامي وشرحيل وعكرمة وغيرهما من كبار القواد والصحابة ، وخلدت صلة قدسية بالاسلام في القرآن وبما كان من الاسراء النبوي اليه . رحب سكان الشام العرب بالجيوش العربية الاسلامية ، فقد كانوا على استعداد للاستقلال بظل الراية العربية التي وحدت بينهم دون أن

ترغم أحدا منهم على اعتناق الدين الاسلامى ، وكان معظم هؤلاء السكان العرب الذين حررتهم الراية العربية من الاستعمار الرومانى ، فأصبح الجميع شعبا واحدا . وانخرط رجال الشام فى الجيوش العربية التى نشرت راياتها فى المشرق والمغرب فكان معظم أفراد هذه الجيوش وقوادها من سوريا .

أصبحت أرض فلسطين تابعة للدولة الأموية دون أن تكون هناك حدود بينهما ، وكان الخلفاء الأمويون يملكون الضياع والقصور فيها ، ويقضون فصل الشتاء فى مناطقها الدافئة ، فكان عبد الملك بن مروان يقيم أحيانا فى مدينة الرملة البيضاء وكان هشام بن عبد الملك يقيم فى أريحا والمعروف أن الخلفاء الأمويين هم الذين أقاموا المسجد الأقصى ، وبنوا فيه قبة الصخرة ، وأنشأوا المدن والقصور وعسروا القرى والديساكر .

ظلت فلسطين تشارك أمها سوريا الحوادث والتطورات ، فى أيام العباسيين ثم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، دون أن يحاول أحد من الفاتحين التفريق بينهما أو شطرهما ، أو ايجاد حدود أو أسساء لكل منطقة من مناطق سوريا ، بل على العكس كان المعروف أنها جميعا تؤلف قطرا واحدا أطلق عليه اسم بر الشام .

أصبح لفلسطين دور عظيم فى سجل تاريخ النزاع بين الشرق والغرب استمر مائتى عام ، ودفن فى تربته كذات عشرات ألوف الشهداء من العرب المسلمين ، واتهى بدحر الغرب عنه وتخليد صفته العربية الاسلامية ومدته القبائل العربية بعد ذلك بموجاتها التى خلدت أسماءها ، فى مختلف بقاعه ، مثل ديار بنى حسن وبنى مرة وغسانة والحوارث والحارثية وبنى عامر وغيرها ، فضلا عن الموجات التى مازالت تحتفظ بصفتها وطابعها القبلى البدوى والمتوطنة فى أنحاء عديدة منه فى الجنوب والشرق والشمال ، وكان رجال فلسطين وشبابها فى ابان انبثاق

(١) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ ص ٢٠ .

الحركة العربية الحديثة في طليعة الصفوف ، وكانوا من الأركان التي قامت عليها هذه الحركة في مختلف مظاهرها وأدوارها . (١)

ظل الحال على هذا المنوال حتى بدأ الانتداب البريطاني ، فوضع الحدود بين فلسطين وجاراتها العربية ، لتنفيذ سياسة مرسومة وخطوة موضوعية ، كانت نتائجها تشريد الشعب الفلسطيني من وطنه وإنشاء الدولة الصهيونية في قسم من فلسطين .

فلسطين جزء من الوطن العربي :

فلسطين جزء من الوطن العربي ، اذ نزل بها العرب منذ آلاف السنين وأقاموا فيها ، وظلوا حتى اليوم يحتفظون بصلات الدم والقربان التي تربطهم باخوانهم الذين يعيشون في بقية البلاد العربية .

وتقع فلسطين في الطرف الجنوبي الغربي من منطقة الهلال الخصيب وفيها تتمثل جميع الظواهر الطبيعية والبشرية التي نصادفها في البلاد العربية المجاورة ، وبصفة خاصة لبنان وسورية ، والمملكة الأردنية ومصر ، فالسهول الساحلية التي تمتد في غرب فلسطين ، وتشرف على مياه البحر الأبيض المتوسط ليست الا امتدادا طبيعيا للسهول الساحلية في لبنان وشبه جزيرة سيناء ، وهي واياها تتشابه في كل الصفات . فهي سواحل ضيقة ذات سطح منخفض وتربة خصبة ، وأمطارها شتوية غير كثيرة . والمنطقة الأخدودية المنخفضة التي تمتد في شرق فلسطين ، ويجري نهر الأردن في بعض أجزائها ، ويشغل البحر الميت بعضها الآخر ، تشبه من جميع الوجوه وادي البقاع الذي يمتد في لبنان ، بل أنها جزء مكمل لهذا الوادي ، لها نفس الخصائص التي تميزه والظواهر التي يتصف بها .

والأرض الجبلية التي تفصل المنطقة الأخدودية في الشرق عن السهول الساحلية في الغرب ، وهي التي تسمى هضبة الخليل ، تعتبر امتدادا طبيعيا لشبه جزيرة سيناء وصحراء النقب ، ولا تختلف عنهما في شيء ، الا أنها

(١) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج ٢ ص ٢٠ .

أكثر ارتفاعا وأغزر أمطارا لهذا كانت رغم فقرها أوفر حظا في الحياة النباتية والحيوانية ، وأكثر تقدما في مظاهر النشاط البشرى .

والظروف المناخية السائدة في فلسطين هي بعينها الظروف التي تخضع لها بقية البلاد العربية وهي خليط من الخصائص التي يتميز بها مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي ، وفيها تتمثل الظواهرات المناخية المختلفة التي يتميز بها هذان الاقليان .

والعناصر الجنسية التي تعيش في فلسطين هي بعينها العناصر التي تقيم في بقية البلاد العربية ، وهم يتألفون من أكثرية عربية وأقلية يهودية ، ولا يختلف نظامهم الاجتماعى والاقتصادى في فلسطين عنه في البلاد العربية الأخرى ، فهم يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان ويعتمدون على قليل من الصناعة والتجارة (١) .

اليهود وفلسطين قبل القرن الثامن عشر :

لا نجد لكلمة صهيون أصلا متفقاً عليه في اللغة العبرية . وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير في اللغة الحبشية ، وانها من مادة الصون والتحصين . وكانت فعلا من حصون الروابي العالية . والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بسئات السنين . وهم الذين أطلقوا على الأرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وضع بهذا المعنى في لغتنا العربية الحاضرة .

والكلمة تكتب في العبرية تارة بالسین وتارة بالزای ، ولم يحرص عليها اليهود بعد دخولها في حوزتهم . بل جاء في سفر صمويل الثانى ان داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب اليه - بل مال به الى بيت عربية وكذلك كان شأن صهيون قبل سبى بابل . فلما حمل اليهود الى الأسر أصبح الحنين الى (صهيون) رمزا للحنين الى عودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الالهية فى كتبهم تحولا جديدا مع

(١) الشرق الاوسط للدكاترة عامر ومتولى وعز الدين فريد ص ٤٨ .

مصالح السياسة ، فأنحصرت في ذرية داود - عليه السلام - ليخرج منها غير ذى الذرية من اليهود .

وليس هذا بالتحويل الأول عندهم في هذه الوعود على حسب المصالح السياسية . فقد كان الوعد لابراهيم فحولوه الى اسحاق ليخرجوا منه أبناء اسماعيل وهم العرب . ثم حولوه الى يعقوب ليحصروه في سلالة اسرائيل . ثم حولوه الى ذرية داود لينحصر في مملكة الجنوب دون مملكة الشمال . وهكذا كان وعد صهيون (وعدا سياسيا) تابعا لما رب الدولة وما رب الهيكل الذى يقام في جوارها فلا شأن له بالعقيدة الدينية التى تشمل جميع سلالة ابراهيم (١) .

تفرق اليهود في عصر السيد المسيح ، في أنحاء الدولة الرومانية واتخذوا لهم وطنا في كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتب (فيلون) فيلسوف الاسكندرية اليهودى يقول في تحديد موقفهم من الدولة : (وان اليهود - لكثرة عددهم - لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون الى اورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطنا لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم من قبلهم) .

والكلمة التى عبر بها فيلون عن الحاضرة هي الكلمة اليونانية (متروبوليس) أى أم المدن من كلمة (مترى) بمعنى أم .. و (بوليس) بمعنى مدينة ، وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين .

لم تكن الصهيونية في الزمن القديم عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الأمل في نجاحها السياسى ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافى ، وأطلقت في بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد عن المعانى الجغرافية . وذلك حيث يقول صاحب الرسالة الى العبرانيين من الانجيل : (انكم لم تأتوا الى جبل ملايس مضطرم بالنار

(١) العقاد : الصهيونية ص ١٢

.. بل أتيتم الى جبل صهيون ، والى مدينة الله الحى اورشليم السماوية ..
وكنيسة أبكار مكتوبين فى السموات والى الله ديان الجميع) .

وواضح من تعبير هذه الرسالة أن الصهيونية قد تحولت الى فكرة لا تتعلق بمكان معين ، ولا تتطلب العودة الى فلسطين . ولذلك ناهضها المتدينون من اليهود عند ظهور الدعوة اليها ، واعتبروا هذه الدعوة انكارا للمسيح المنتظر فى عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه فى آخر الزمان ، فاتفقتا على شىء واحد وهو الفصل بين الصهيونية والسياسية والفكرة الدينية ..

تناثر اليهود فى أرجاء المعمورة ، حاملة معها تفكيرها الساذج الذى يزعم أن بنى اسرائيل خير الأمم لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض اسرائيل أحسن البلاد وطن (يهوه) وانتقلت هذه الأفكار من الآباء الى الأبناء ، وغدت أمورا مسلمة لا يستساغ بحثها أو الجدل فيها .

وكان هذا هو الوضع السائد على درجات متفاوتة فى مختلف الأماكن والأزمان .

منذ قضى الرومان على مملكة يهوذا وفقد اليهود استقلالهم حتى أصبح اليهود يضرعون الى ربهم فى صلواتهم أن يردهم الى أرض الميعاد. وتأصلت هذه الأمنية فى قلوبهم . حتى أصبحت لديهم عقيدة دينية قائمة على ما وعد به رب السموات والأرض نبيه ابراهيم من أن الأراضى المقدسة ستبقى أبد الآبدين وقفا على ذريته ، فظلوا على ايمانهم الراسخ بأن المسيح سيأتى ذات يوم لينشر السلام على الأرض ويجمع شملهم فى أرض أسلافهم ، وكانوا يجدون فى هذا الأمل ما يخفف اللوعة ويشفى النفوس الحائرة فيذكرونه فى صلواتهم اليومية الثلاثة ، مبتهلين الى الله ان يبعث صهيون ويعيدهم الى اورشليم .

وكان هذا الدعاء يتردد فى أعيادهم التى تذكرهم بأحداث العهد القديم ، أما صيامهم فيمتد طوال فترات يتخللها الحزن على أيامهم الخوالى ومجدهم الضائع ، وأما التلمود الذى يحفظونه عن ظهر قلب فيذكرهم

بالأرض الطيبة التي كان يغلها أجدادهم ، والمعبد الذي كان يشهد صلواتهم
وأدعياتهم بأن يعود مخلص الشعب المختار الى أرض صهيون .

فاذا ما حل عيد الفصح وانتهت فترة التوبات ، تبادل اليهود التحية
فيما بينهم قائلين : الى اللقاء في اورشليم ، العام القادم . وكان المتدينون
منهم يحجون الى بيت المقدس في القرون الوسطى ، أما أولئك الذين لم
يسعدهم الحظ بهذه الزيارة ، فقد كانوا يوصون أهلهم بأن يضعوا تحت
رؤوسهم في مشواهم الأبدى حفنة من تراب فلسطين (١) .

حاول الاسلام في أول الأمر ، أن يتألف اليهود ، أو يجذبهم اليه ،
ولكنه لم يفلح في ذلك لعنتهم في تفكيرهم ، واغفالهم فهم روح هذه
الوثبة العربية العظيمة . ومع ذلك فقد كان تسامح المسلمين مع اليهود
واضحاً ومستتراً على مر العصور فأتيح للسفاراديم ، وهم اليهود المقيمين
في الديار الاسلامية ، أن يعيشوا في سلام وطأنينة ، أكثر مما أتيح
للاشكنازيم وهم اليهود المقيمين في البلاد المسيحية ، واستقام للسفارازيم
الأمر بعض الشيء ، وانسجوا مع بيئتهم : فظهر منهم الأدباء والحكماء ،
والمقربون الى ذوي السلطان واصطبغوا بصبغة البلاد المقيمين فيها ، فلا
يختلفون الا فيما تفرضه عليهم عقيدتهم الدينية من طقوس وسلوك .

كان الذوبان الكامل في الخضم الاسلامي أمراً لا مفر منه لو بقيت
الحضارة في العالم نامية متفاعلة . بيد أن الظلام خيم على تلك الديار وعلى
من فيها من اليهود ، فلبثوا قروناً دون تغيير ، ليسوا بالذائبين نهائياً في
المحيط الذي لم يعد قادراً على الاذابة ، وليسوا بالمتسككين بالعقيدة
الأصلية المبنية على كونهم شعب الله المختار ، وان العودة الى أرض اسرائيل
واجبهم الأكبر . وانما أصبح هذا الاعتقاد مجرد طقوس وتبتلات وأمانى
دينية ، يتسلى بها العجزة في بيوتهم ، ويستعوض بها الشباب عما يجدونه
من اختلاف بسيط بينهم وبين المحيطين بهم . وهكذا فقدت العقيدة
حيويتها السابقة ، وأمسى مظهرها الوحيد أفراداً من اليهود يتحاملون على

(١) هذه هي الصهيونية : (من مطبوعات وزارة التربية والتعليم) ص ١٤ .

أنفسهم في شيخوختهم ليموتوا في أورشليم ، بعد أن يذرفوا أرواحهم
دموعا سخينة على حائط المبكى وأيامه الحلوة التي لن تعود !

أما (الاشكنازيم) فقد اضطرتهم الاضطهاد المسيحي الى التجمع في
شرق أوروبا حيث عانوا من الضغط والارهاق قدرا كبيرا ، أوجد فيهم
طبعا غريبة ، فقد أصبحوا ناقلين على مواطنيهم ، كارهين لهم خائفين
منهم ، مبتعدين عنهم .

مضت الأعوام والأجيال ، وهذا التباعد النفسى بين اليهود الاشكنازيم
والمسيحيين والأوروبيين تزداد شقته ، وتتأصل جذوره . فلما أنهارت
الأندلس العربية الاسلامية ، وارتدت أوروبا مسيحية ، خير يهودها بين
مصائر ثلاثة : الكتلحة أو الهجرة أو الحرق . فهاجر من هاجر من هؤلاء
اليهود الذين كانوا منسجمين مع محيطهم الاسلامى ، الى دول غرب
أوروبا ، حيث كالت البروتستنتية تسود تدريجيا ، فتجنبهم شيئا من المصير
السيء الذى أصاب الاشكنازيم في شرق أوروبا .

اليهود في فلسطين في العصر العثمانى :

استولى العثمانيون في عهد السلطان سليم الأول على بلاد الشام بما
فيها فلسطين ، في سنة ١٥١٦ بعد هزيمة السلطان الملوكي قنصوه الغورى
في موقعة مرج دابق ، وتلا ذلك وقوع العالم العربى تحت الحكم
العثمانى وازداد تدفق اللاجئين اليهود الى فلسطين فى أعقاب الاضطهاد
الدينى ومحاكم التفتيش فى اسبانيا ، وكان أغلبهم يمتاز بعلم واسع ،
فشغلوا أسس المناصب بين أبناء دينهم ، وما لبثت عشائر المغاربة منهم أن
اندمجت مع الطوائف العربية واليهودية ، بينما ظل يهود ألمانيا وبولندا على
انزوائهم لا يختلطون بالآخرين .

ذلكم هو التقسيم الطائفى الذى استمر عدة قرون فى فلسطين ، اذ لم
يعد يهود بخارى وفارس واليمن الى أرض صهيون قبل القرن التاسع عشر
وتلا هؤلاء يهود وسط أوروبا وشرقها فانضموا الى طائفة الاشكنازيم .

استمر الحكم العثماني أربعة قرون ، تميزت بعدم اكتراث الحكام بالمحكومين وما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة ، مما أنزل الفقر بأهل فلسطين عرب ويهود ، ودام ذلك الحال الى أن طرد محمد علي الأتراك العثمانيين من فلسطين سنة ١٩٣٢ وحاول بعد ذلك اجراء الاصلاحات ، الا أن الضرائب ظلت باهظة بقدر ما كانت أبان حكم العثمانيين ، فثار عرب فلسطين على حكمه ، واستولوا على القدس وصعد ... وقمع محمد علي ثورة العرب عام ١٨٣٧ ، ثم حدث زلزال مروع ففضى على نحو ألفين من اليهود .

وقامت الحرب مرة أخرى بين محمد علي والسلطان العثماني ، فتدخلت الدول الأوروبية وأعيدت سوريا وفلسطين الى الحكم العثماني بعد أن وعد الأتراك باجراء بعض الاصلاحات ومعاملة جميع السكان على قدم المساواة .

ثم استقرت أحوال اليهود بعد انشاء عدة قنصليات أوروبية فكانت كل واحدة منها تمنح حمايتها لرعاياها الأصليين بمقتضى الامتيازات التي منحها العثمانيون لبعض دول أوروبا .

اختلط العنصر الديني وفكرة ظهور المسيح الذي سيعيد اليهود ذات يوم الى فلسطين ، بالعنصر السياسي في بعض الأحيان ، وكان أول مظاهر هذا الاختلاط مشروع وضعه (دافيد رويني) خلال القرن السادس عشر ، وكان يقضى بدعوة اليهود من العرب الى غزو فلسطين وانتزاع أراضيها من أيدي الغاصبين الغزاة بمساعدة أقطاب اليهود في أوروبا ، مستهدفين تأسيس دولة يهودية في الأراضي الفلسطينية .

ولكن هذا المشروع أثار الذعر في النفوس فمات في المهد ، وظهر فيما بعد مشروع آخر عرضه تاجر دانيماركي يدعى (أوليجر باولي) على ملك انجلترا غليوم الثالث ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان هذا المشروع يقوم على أساس دنيوي لا ديني ، غير أن عاهلي انجلترا وفرنسا أعرضوا عنه (١) .

(١) هذه هي الصهيونية ص ٢٩ .

اثر الانقلاب الصناعى والثورة الفرنسية فى السياسة اليهودية :

فى أواخر القرن الثامن عشر بدأ الانقلاب الصناعى ، وقامت الثورة الفرنسية ويصحبها تبدل كبير فى تفكير وحياة وسياسة اليهود المقيمين فى غرب أوروبا .

اشعرت الثورة الفرنسية اليهودية بالحرية وبالمساواة ، فشرعوا يخالطون الناس على خور ، ويستفيدون من حقوقهم الجديدة على وجل ، وخيل اليهم ان عذاب اليهودى التائه قد انتهى ... ثم اقبلوا على العلم ، يأخذون ويعطون . على غير عاداتهم . وتطور الفكر اليهودى تطورا لم نشهده ابدا ، منذ تحجر على أنهار بابل ، منذ أربعة عشر قرنا فسفر التكوين لم يعد له مكان فى عصر الفلك والرياضيات والعلوم التجريبية ، وشجرة نسب بنى اسرائيل اقتلعها (داروين) بنظريته عن التطور والارتقاء ، والأساطير فضحها (فريزر) وغيره من الدارسين لنفسية الانسان القبرى .

وهكذا بدد نور العلم الضباب الكثير الذى أكتنف الفكر اليهودى مئات الأجيال ، وساهم يهود غرب أوروبا فى النهضة العلمية ، فظهر منهم العلماء والفلاسفة والأطباء والمخترعون والعاملون فى كل مكان .. وهيات لهم الثورتان الصناعية والفرنسية ، المجال لبدء حياة جديدة ، هى حياة المواطن العادى .

جاءت الثورة الفرنسية بنظريات سياسية تدعو الى الحقوق الطبيعية للانسان ، وأهمها الحرية والمساواة ، ولم تحاول أن تستثنى من التمتع بهذه الحقوق فردا من الأفراد أو الجماعات . وكان اليهود فى أوروبا من أبرز الجماعات التى أفادت من هذا الجو الحر ، ومن هذه الحركة التحريرية ، خاصة وأن هذه النظريات السياسية قد وجدت فى نابليون وفتوحاته التى امتدت الى جميع أنحاء أوروبا وسيلة التنفيذ الفعلى . فأمام غزوات نابليون سقطت جدران أحياء اليهود فى كل مكان ، وبالرغم من رد الفعل الذى حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فان الرجعية لم تشمل على وجه

العموم ما ناله اليهود من حقوق فى الحرية والمساواة . اذ خرج اليهود من الأحياء التى اختاروا العزلة فيها أول الأمر ثم فرض عليهم الإقامة فيها بعد ما احتدم العداء بينهم وبين المسيحيين ، وخرجوا كذلك من أزيائهم التقليدية ، فأصبحوا يلبسون اللباس الأوروبى العادى ويلبسون معه لباس التحرر الظاهرى فى العقائد الدينية ، وحاول بعضهم أن يتنصر التماسا للمشاركة التامة فى حياة الأوروبيين ، ومثال ذلك (دزرائيلى) الذى أصرت أمه على تعميده وأن تغسل بماء التعميد كل ما يحمله ابنها من مظاهر التميز الطائفى (١) .

نابليون واليهود :

كان نابليون من الخبراء الذين يحدقون صناعة الحكم ، وكان على علم بدهى بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ فى الرأى العام ، ولذا اهتم بعوامل النفوذ الصهيونى فى البلاد الفرنسية وفى البلاد التى يتطلع اليها بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية . كان فى سنة ١٨٠٦ سيد القارة الأوروبية غير مدافع ، هزم النمسا وبروسيا وتغلب على وليام بت فى ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه فى تلك السنة كان يرفع يديه دهشا ويسأل من حوله قائلا . بأية معجزة أصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مترهنة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفا ؟) .

فكر نابليون فى الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق وساووم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة . فهم يعودون الى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهو يستفيد من أموالهم ورعاياتهم فى تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ السياسى أو المالى الذى يعترضها ويعوق حركاتها .

لما اتجهت أوروبا كلها الى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال الدولة العثمانية ، أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة فى هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الروسية فى ٢٠ أبريل سنة ١٨٩٩ اعلانا دعا

(١) دكتور عبد المعز نصر : الصهيونية ص ٥٦ .

فيه يهود افريقية وآسيا الى موافاة جيشه بمصر ، ليدخلوا معه الى اورشليم ، وراجت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية الى اغتنام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم الحملة التجارية بين الوجه البحرى فى مصر ، وعكا والبحر الميت وشواطىء البحر الأحمر .

وواضح من خطة نابليون أنه لم يكن يريد المعونة العسكرية من الصهيونيين ، وان الفرق المزعومة التى قال انها تهدد مدينة حلب لم يكن لها وجود ، وانما أراد بها معونة الأيدى الخفية فى مراكز السياسة العليا كما أراد ضمان المال اذا ضنت به خزانة الدولة (١) .

وعد نابليون اليهود أن يعيد اليهم مجدهم الضائع ، ويرد لهم حقوقهم المسلوقة منذ آلاف السنين ولكن نابليون فك الحصار عن عكا وعاد الى بلاده قبل أن يصل نداؤه الى اليهود .

ثم دخلت قضية فلسطين بعد جلاء الفرنسيين عن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر (سنة ١٨٠١) فى دور جديد ، لن تتعرض له فى هذا الكتاب ، اذ هو خارج عن دراستنا ، وقد رأينا الاقتصار على دراسة أطماع اليهود فى فلسطين فى نهاية التاريخ الاسلامى ، وبداية التاريخ الحديث . وسنقتصر فى الفصل القادم ، وهو الأخير ، على دراسة أحوال العرب والمسلمين السيئة فى فلسطين المحتلة التى اغتصبتها اسرائيل الصهيونية ، وما ترتب على قيام هذه الدويلة المزعومة من تشرد أهالى فلسطين من العرب المسلمين ، مما أدى الى ظهور مشكلة (العائدين) أو (اللاجئيين) .

(١) العقاد : الصهيونية ص ٧٠ .

الفصل الرابع عشر

العرب والمسلمون في إسرائيل

شهدنا في الفصول السابقة كيف عاش اليهود في الدول الاسلامية ، في ظل التسامح الاسلامي ، فقد تولوا المناصب الكبرى ، ومارسوا شعائر دينهم في حرية تامة ، واشتغلوا بجميع الحرف والمهن ، وشاركوا في الحياتين الاجتماعية والاقتصادية . وهذه هي صورة قاتمة ، تبين أحوال العرب المسلمين في فلسطين التي اغتصبتها اسرائيل ، حتى يمكن المقارنة بين معاملة المسلمين لليهود ومعاملة اليهود الصهيونيين للمسلمين .

مشكلة اللاجئين :

بلغ عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٨ حوالي مليون وثلث المليون نسمة وبدأت موجة الهجرة العربية من فلسطين قبيل موعد انتهاء الانتداب البريطاني (١٥ مارس ١٩٤٨) بسبب الأخطار العظيمة التي أحدثت بالعرب والذعر الذي حل بهم بعد مذبحه دير ياسين .

بعد أن خرج البريطانيون من أرض فلسطين في سنة ١٩٤٨ تولى اليهود زمام الأمور بالقوة وأعلنوا قيام دولتهم التي أسموها اسرائيل ثم أخذوا يمكنون لأنفسهم في البلاد وينشرون الرعب والفرع في قلوب العرب . ولم تجد الدول العربية بدا من مقاومة الحركة اليهودية الجديدة ومقاومة القوة بالقوة ، فزحفت جيوشها على أرض فلسطين للقضاء على العصابات اليهودية التي تحاول ان تقيم دولة يهودية في أرض عربية وكادت الجيوش العربية أن تقضي على اليهود لولا مساعدة أمريكا وبريطانيا لهم في ارغام الجيوش العربية على قبول الهدنة وتمكن اليهود من الاستيلاء على جزء كبير من أرض فلسطين وطرد العرب منه .

عندما احتلت القوات الاسرائيلية المناطق التي يقيم فيها العرب حاولت أن تطردهم وترغمهم على الهرب من اسرائيل الى البلاد العربية فقامت بأعمال ارهابية كثيرة كانت تبيجتها أن خرج عدد من هؤلاء السكان اذ كان عدد سكان القرى العربية في المناطق العربية ٣٤٧ ألف نسمة يقيمون في ١١٠ قرية ما زالت قائمة ومحافظة على وضعها العربي ولا يبق فيها الآن غير حوالي ١٥٢ ألف نسمة فقط كما قامت القوات الاسرائيلية بطرد السكان العرب من ٣٧ قرية عربية أخرى بعد الهدنة الثانية وجمعت سكان هذه القرى وأرسلت قسما كبيرا منهم الى خطوط الهدنة وأمرتهم بدخول البلاد العربية ونقلت قسما آخر الى مناطق أخرى في اسرائيل .

سقطت المدن في أيدي اليهود فأخذوا ينزحون الى الأماكن الآمنة داخل فلسطين وخارجها . وخاصة الى الأردن وقطاع غزة وسورية ولبنان ومصر وعندما وصلت الحرب الى منطقة النقب رحل من عرب البادية نحو ثلاثين ألفا . وما جاء شهر أكتوبر ١٩٤٨ حتى ساءت الحال وتفاقم الخطب وأصبح نحو مليون عربي من اللاجئين والمشردين في حاجة للمأوى والمأكل والملبس والعمل والعلاج والتعليم بعد أن دمرت مساكنهم وضاعت أموالهم وجردوا وفقدوا جميع موارد الرزق وأسباب العيش ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية هؤلاء اللاجئين قضية تنتظر الحل السريع .

أحوال العرب السيئة في اسرائيل :

عينت السلطات الاسرائيلية ضباطا من الجيش لادارة الأعمال في المناطق العربية ويدير هؤلاء الضباط شئون القرى العربية ادارة عسكرية وضعت حكومة اسرائيل قانونا خاصا في ٣١ مارس سنة ١٩٥٠ اسمه (نظام الطوارئ في مناطق الحكم العسكري) وأنشئت بموجب هذا القانون ست مناطق عسكرية في البلاد وينص قانون الحكم العسكري على اعتبار كل قرية أو مدينة أو حي يقيم فيه العرب منطقة مغلقة لا يجوز الدخول اليها أو الخروج منها الا بتصريح من الحاكم العسكري الذي لا يسمح هذه.

التصاريح الا في الحالات الضرورية كالمرض أو القضايا أمام المحاكم
والحالات المشابهة .

يجرى اختيار الحاكم العسكري من الضباط الذين ليست لهم صداقات
شخصية وعلاقات ودية مع العرب وليس من الضروري أن يعرف اللغة
العربية لأنه يرغب العرب على أن يكتبوا له بالعبرية أو يخاطبوه بها .

للحاكم العسكري أن يفرض نظام منع التجول على المكان ويحدد
ساعاته ويستدعى قوة من الجيش أو بوليس الحدود لتنفيذه ولا يجوز
لأحد من سكان المكان أن يخرج منه وعليه أن يقدم طلبا رسميا على ورقة
تمغة وينتظر المصادقة على طلبه في خلال ٤٨ ساعة ويأخذ التصريح وعليه
بعد ذلك أن يبحث عن وسيلة نقل للسفر الى الجهة المعنية في التصريح ولا
يجوز له أن يذهب الى غيرها .

وإذا كان أحد السكان يملك قطعة أرض خارجة عن منطقة القرية التي
يعيش فيها فإن عليه أن ينال تصريحا للذهاب اليها . وهذا التصريح يعين
الساعات التي يجوز له أن يذهب فيها الى الأرض وإذا كان أحد السكان
يشتغل في عمل دائم خارج القرية فإن عليه أن ينال تصريحا يعطى له بناء
على موافقة صاحب العمل .

في حالة وقوع مخالفة عامة من سكان القرية فإن من حق الحاكم
العسكري أن يفرض غرامة جماعية على جميع السكان وأن يحصلها بالحجز
على ممتلكاتهم . وللحاكم العسكري جواسيس على العرب في القرية يدفع
لهم مكافآت لتبليغه عن كل نشاط مشبوه . ومن حق الحاكم العسكري
أن يتدخل في الأمور السياسية ويشجع السكان على الانتماء الى الأحزاب
الرسمية .

يبلغ عدد سكان اسرائيل حوالي مليوني نسمة بينهم ٢٢٦ ألف من
العرب والباقيون من اليهود . والسكان العرب في اسرائيل يتألفون من عشر
طوائف اسلامية ومسيحية هي : المسلمون السنيون والشيعية والدروز

البهائيون والأحاديون والمسيحيون الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة
والأرمن والبروتستنت .

أما السكان اليهود فان الانقسامات بينهم عديدة أهمها اللون والدين
والقومية والاتجاه العقائدى والميل السياسى والعادات الوطنية .

ويلعب اللون فى اسرائيل دورا رئيسيا فى الحيلولة دون خلق مجتمع
صحيح فان نصف سكان اسرائيل من أبناء اللون الأسمر أى من مواليد
الأقطار الآسيوية والافريقية والنصف الثانى من أبناء أوروبا . وهناك
اندماج حزبي بين الأوروبيين ولكن لا يوجد أى اندماج بين الشرقيين
والأوروبيين أو حتى بين الشرقيين بعضهم بعضا . ويسيطر الأوروبيون
سيطرة تامة على كل شىء فى اسرائيل (١) .

دخل الى اسرائيل منذ تأسيسها حتى الآن حوالى مليون نسمة من
المهاجرين اليهود الذين جاءوا من مختلف أقطار العالم وقد أظهرت الأرقام
الرسمية التى نشرتها حكومة اسرائيل أن نصف هؤلاء المهاجرين جاءوا من
الأقطار الشرقية أى بين آسيا وافريقية وان النصف الآخر جاء من أوروبا
كما ثبت أيضا ان ٩٣ فى المائة من هؤلاء المهاجرين لم يأتوا برغبتهم بل
جاءوا تلبية لوسائل الدعاية والاعراء التى قامت بها الهيئات الصهيونية التى
دفعت عنهم نفقات سفرهم وأنفقت عليهم مبالغ طائلة لا تقل عن سبعة آلاف
دولار على كل مهاجر قبل استيطانه .

وقد كان من السهل فى بادىء الأمر اسكان هؤلاء المهاجرين اذ كان
عرب فلسطين عند رحيلهم قد تركوا وراءهم عددا كبيرا من المدن والقرى
الخالية ، فنزل اليهود بها فلما امتلأت نزلوا بالمعسكرات التى كان الجيش
البريطانى قد تركها فى البلاد ، وهى عبارة عن أكشاك خشبية واسعة
يجاورها عدد كبير من الخيام وبيوت من الصفيح . وقد خدعتهم السلطات
اليهودية وقالت ان هذه المعسكرات هى معسكرات انتقال فقط وأن
المهاجرين سينقلون منها الى بيوت جديدة تقام لهم خصيصا وأطلقت على

(١) واكد : اسرائيل فى الميزان ص ٦١ .

هذه المعسكرات كلمة (معابر) أى أماكن انتقال ولكن الأمر على العكس تماما فإن هذه المعابر بدلا من أن تختفى وتزول أصبحت أماكن سكن دائم وأضيفت إليها ألوف من الخيام والبيوت والخشب ليس بها مجارى المياه أو غيرها من وسائل الصحة والنظافة .

فلسطين قطر صغير وهى فى أغلب جهاتها تتألف من مناطق جبلية يعوزها الماء ، ومن أراض صحراوية مجدبة ، ولا يصلح للاستغلال الزراعى منها الا مناطق محدودة تكاد تقتصر على السهول الساحلية التى تجاور البحر المتوسط والسهل الشمالى حول بحيرة الحولة وسهل مرج بن عامر ، وهى جهات ذات تربة خصبة وموارد مائية منتظمة وفيها تعيش الغالبية العظمى من سكان فلسطين وتقوم المدن الرئيسية ومراكز الاستغلال الهامة .

وعلى الرغم من تقدم الزراعة فيها ونجاح اليهود فى استغلالها الى أقصى حد مستطاع فإن إنتاجها من الغلات الزراعية لا يكفى حاجة السكان بأية حال فضلا عن مواجهة الزيادة المنتظرة فى عدد اليهود بالذين وفدوا وما زالوا يفتدون الى فلسطين (١) .

ويدرك اليهود هذه الحقيقة ادراكا تاما ، وهم من أجل هذا يبذلون أقصى الجهود لزيادة الأرض المنزرعة وذلك بتوفير المياه اللازمة لريها اما باستنباطها من باطن الأرض كما هى الحال فى منطقة النقب واما بتحويل المجارى النهرية اليها كما هى الحال فى مشروع نهر الأردن .

ولكن عقبات كثيرة تحول دون ذلك ، منها أن النقب اقليم جاف لا يمكن استغلال أراضيه وأن مياهه الباطنية قليلة لا يمكن الاستفادة منها ، ومنها أن نهيرات الأردن التى تمده بالماء لا تجرى فى أرض فلسطين وانما تمتد فى بلاد عربية أخرى غير خاضعة لارهاب اليهود .

والى جانب الزراعة والاتجاج الزراعى أدخل اليهود فى فلسطين صناعات كثيرة حديثة لتكون منفذا يستوعب عددا كبيرا من اليهود

(١) مصطفى عامر الدكتور متولى والدكتور عز الدين فريد : الشرق الاوسط ح ٢

المهاجرين وكان من الممكن أن تزدهر هذه الصناعات وتنمو خصيصا وأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراءها تشد أزرها وتمدها بالمعونة ولكنها على العكس من ذلك لقيت صعوبات جمة إذ انها لم تنهض على أسس طبيعية صحيحة وانما قامت على مجرد العاطفة والمساعدات الأمريكية ولذا فان مصيرها الى الانهيار ولن تقوى على استيعاب عدد كبير من المهاجرين .

الضمير العالمي ومشكلة اللاجئين :

بلغ عدد اللاجئين في عام ١٩٥٤ ما يقرب من مليون عربي ، وكان توزيعهم على النحو الآتي :

العراق ٥٠٠٠ لاجيء لبنان ١٠٤٠٠٠٠ - سوريا ١٤٠٠٠ لاجيء -
 المملكة الأردنية ٤٠٧٠٠٠ لاجيء - فلسطين العربية ٢٢٠٠٠٠ لاجيء -
 قطاع غزة ٢٠٤٠٠٠ لاجيء .

لقد شرد حوالي مليون عربي من سكان فلسطين الآمنين وأجبروا على ترك أراضيهم التي عاشوا وعاش أجدادهم فيها لافساح الطريق لليهودية الغاشية تحتل أرضهم وتغتال أرزاقهم وتقطع أوصالهم وتآكل أوقاتهم ، ويفتك الجوع بهم . وينهش السل في أجسادهم - فبدلت عزتهم ذلا وسيادتهم هونا وبؤسا (١) .

لم تتوان الدول العربية في البداية عن ايواء من كانوا اليها يلجأون وبادرت الحكومات والهيئات والأفراد الى اتخاذ التدابير الواجبة للاسعاف العاجل . وفي يوليو ١٩٤٨ طلبت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية من المنظمات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة أن تقوم باغاثة اللاجئين الفلسطينيين واتخذت هيئة الأمم المتحدة قرارا في اكتوبر سنة ١٩٤٨ بجمع الأموال لتنفيذ برنامج اغاثة لمدة ستة أشهر تنتهي في آخر أغسطس سنة ١٩٤٩ . وفي ديسمبر سنة ١٩٤٩ تألقت وكالة الاغاثة للاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة على أن تبدأ أعمالها في أول مارس سنة ١٩٥٠ .

(١) محمد صفوت : اسرائيل العدو المشترك .

تعمل الهيئة العامة للاغاثة على ايجاد عمل للاجئين وبناء مساكن لهم وتحمل عبء تغذيتهم ، واعانتهم . الا أن المعونة التي تقدمها ، ليست من الكفاية بحيث تساعد على نمو الأطفال طبيعيا ، والاحتفاظ لهم بمستوى عادى من الصحة والنشاط فتبدو عليهم علامات المرض وآثار الجوع .

ويعمل المجلس الأعلى لاغاثة اللاجئين الذى أنشأته جامعة الدول العربية رغم موارد المالية المحدودة على تقديم بعض الخدمات الاجتماعية وهذا مهما بلغت لاتعدو أن تكون مساعدات محدودة ، لاتستطيع أن تعوض على المهاجرين شيئا مما أصابهم .

وقد طالب العرب بعودة اللاجئين الى ديارهم . واعطائهم ضمانات دولية يطمئنون بها على أرواحهم وأموالهم ، وتعويضهم ماديا عن ممتلكاتهم التى فقدوها . فعرضت المشكلة على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ . فقررت اعادتهم الى بلادهم ولكنها لم تقو على تنفيذ هذا القرار ، لأن اليهود رفضوا أن يعود أى عربى الى أرض فلسطين الا اذا سويت القضية الفلسطينية لصالحهم . وحتى عند تسويتها يشترط اليهود أن يترك لهم تحديد عدد اللاجئين الذى يقبلون عودته ، واختيار اللاجئين الذين يسحون بعودتهم ، وتعيين الأماكن التى يقيمون بها دون التقييد بمساكنهم وأراضيهم الأصلية (١) .

الأحوال المؤلة التى يعيش فيها اللاجئين :

قدر عدد اللاجئين كما ذكرنا بما يزيد على مليون شخص ، يقيمون فى بيوت قديمة وأكواخ وثكنات ومساجد وأديرة فى المدن والقرى ، ويعيشون فى هذه الأماكن عيشة صعبة قاسية . وعلى الأخص فى معسكرات الوكالة المقامة من الخيام وألواح الخشب والصاج .

أما الخيام فردينة الى أقصى حد ، وقد استنفدت أغراضها وتلاشت تماما منذ زمن بعيد ، فأصبحت لاتقى حرا ولا بردا و لاتمنع شمسا ولا

(١) الشرق الاوسط (مصطفى عامر ، الدكتور منسولي ، الدكتور عز الدين فريد

ج ٢ ص ٥٩ .

مطرا والأسر مفصولة عن بعضها بقطعة من قماش داخل الخيمة الواحدة .
 بل ان كثيرا من اللاجئين ما يزالون ينامون فى العراء على الأرض دون
 غطاء وفى حاجة الى المأوى مهما يكن بسيطا . لأن الأكواخ من الخيام ،
 انها كالتقبور المظلمة لاتدخلها الشمس محرومة من الهواء ، معظمها ليس له
 من منفذ سوى الباب . وأكواخ الصاج أو الخشب لم تثبت الا بالحجارة
 وأما الأكواخ فى المعسكرات الجديدة فقد روعى فى بنائها أقصى حدود
 الاقتصاد ، وخصصت كل غرفة فيها لاتزيد مساحتها على ثمانية أمتار
 فلاسرة المؤلف من ٤-١٠ أفراد . وفى حالات كثيرة نجد عددا آخر من
 الأشخاص يشتركون مع تلك الأسرة فى الغرفة الواحدة .

وفى التقرير الذى رفعه المدير العام لوكالة غوث اللاجئين
 الفلسطينيين لمنظمة الأمم المتحدة عن وكالة السكن خلال عام ١٩٥٦ -
 قال : ان اللاجئين لم يحصلوا حتى الآن على الحد الأدنى لاحتياجاتهم فى
 السكنى ، ولا يزال عدد كبير منهم يقطنون فى تلال فلسطين ، ولم يتلقوا
 أية مساعدة لايوائهم منذ تشريدهم عن وطنهم ، وهناك أيضا حشود غير
 قليلة فى مخيمات غير رسمية لاتستطيع الوكالة تحمل مسئوليتها .

وأما الماء فيكاد يكون معدوما فى كل مكان ، ولا يظهر الا فى قليل
 من المعسكرات ومياه الآبار ملأى بالاملاح الضارة وملوثة بالطفيليات
 المسببة للأمراض ، وليس هناك من تسهيلات أو وسائل للغسيل
 والاستحمام الا فى بعض المعسكرات .

كما أن الغذاء قليل لايكاد يكفى لسد الرمق ، اذ يخص كل لاجئ
 فى اليوم رغيفان وقطعتان من السكر وملعقة من الأرز وخمس فولات
 وهى مقادير ضئيلة لاتكفى قوت طفل صغير ، وأن السواد الأعظم من
 اللاجئين لايدوقون اللحم أياما وشهورا مع شدة حاجتهم اليه ، وأدت
 حالة سوء التغذية الى انتشار كثير من الأمراض الصدرية وغيرها ،
 وتعريض حياة الصغار والمرضى والحوامل والمرضعات الى الخطر الشديد .
 والملابس كلها قديمة بالية تبرع بها أصحابها بعد أن قل النفع منها
 ويصرف للاجئ قطعة واحدة كل ثلاث سنين . وهكذا أصبح اللاجئين

فى الأغلأ محرومين مما يقى البدن من الحرارة أو البرد ، والحفاء عام شامل .

فلا عجب اذن أن ينحدر مستوى الصحة بين الالجئين الفلسطينيين هذا الانحدار السريع . وأن تزداد نسبة الأمراض باطراد على الرغم مما تقدمه الوكالة من اشراف وعلاج محدود ، وتدل تقارير هذه الوكالة أن عدد الالجئين المعرضين للأمراض يبلغ نحو ٩٢٪ من المجموع . وجاء فى الاحصائيات الرسمية أن لكل ١٠٣٨١ لاجئاً طبيباً واحداً ونسبة الوفيات بين الالجئين ٢٣٣٦٪ وهو رقم خطير يدل على ضعف الوسائل الصحية والعلاج (١) .

أما التعليم فقد أنشأت الوكالة عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية فى المخيمات والمعسكرات والمراكز التى يكثُر فيها الالجنون ، وتقوم هذه المدارس فى خيام وبيوت خشبية وغرف واسعة فى الشكنات ، مقسمة الى صفوف بحواجز من الخشب ، وسمحت الادارة المصرية فى منطقة غزة باستعمال دور المدارس الرسمية فى أوقات الفراغ لتعليم أبناء الالجئين ، ودل الاحصاء على أن مايزيد على مائتى ألف ولد و بنت منهم محرومون من التعليم .

ضرورة حل مشكلة المهاجرين :

وجدت وكالة الاغاثة أن حل مشكلة الالجئين هو عودتهم الى بلادهم فى فلسطين التى طردتهم اليهود منها ، فجاء فى تقرير الوكالة ان هؤلاء الالجئين المعوزين الذين فقدوا منازلهم ومواردهم وموارد رزقهم وعاشوا على المعونة والتبرع نتيجة العدوان الصهيونى على فلسطين ليتساءلون اليوم عن مصيرهم ، وعما يخبئه القدر فى طياتهم . وهم لا يطلبون غير العودة الى وطنهم والاستقرار فى بلادهم . ولا أمل لهم فى الحياة الا اذا أجيب طلباتهم ونالوا حقوقهم فى العودة والتعويض . ينبغى التشديد مرة أخرى بأن رغبة الالجئين فى العودة الى وطنهم مازالت

(١) من تقرير الشيخ الامريكى (جاك تنى) .

على أشدها ما لم تفقد شيئاً من حدثها ، وانهم مازالوا يعتقدون أن ظلماً فاحشاً قد لحق بهم وان الحل الوحيد المقبول عندهم هو العودة الى الديار .

حذرت الوكالة من نتائج عدم السماح بعودة اللاجئين الى ديارهم بقولها : « ان اللاجئين كسجموع مازالوا يعارضون معارضة جساعية مشاريع الانماء الكبرى اعتقاداً منهم أنها تؤدي الى الاسكان الدائم ، وبالتالي تنطوي على مضاعفات سياسية خطيرة » ومن الواضح أن مشكلة اللاجئين ليست مشكلة اقتصادية مادية ، بل مشكلة نفسية روحية ، فقالت « ان المشكلة التي تتشغل في اللاجئين الفلسطينيين تتعلق بالآلام والذكريات وخيبة الآمال التي يعانها مئات الألوف من بنى البشر ، وهي ليست مجرد مشكلة مادية قابلة للحلول الاقتصادية . ومن الواجب رؤية الأمور في ضوء الأثر النفساني الناجم عن تلك الآلام والذكريات وخيبة الأمل التي يعانها هؤلاء المشردون » .

وأعلنت الوكالة أن مشكلة اللاجئين تسبب اضطرابات في الشرق الأدنى . ان هناك تفهماً غير كاف للصلة الوثيقة بين التوتر المستمر في الشرق الأدنى وبين مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ولقد تبين من الحقائق الثابتة أن الشعور يتزايد ما بين قرابة مليون نسمة الذين قوضت أركان حياتهم نتيجة لأحداث ١٩٤٧ - ١٩٤٨ وهم اليوم في عام ١٩٥٦ . من أهم أسباب الاضطرابات كما أنهم في الوقت ذاته ، ضحية هذا الاضطراب » .

ان بقاء اللاجئين على هذا الوضع أمر تأباه الكرامة وينفر منه الذوق ، اذ من غير المعقول أن يعيش اللاجئين على هذا النحو المشين على ما تجود به الهيئات والمؤسسات ، مع أن لهم حقاً طبيعياً في الحياة الحرة الكريمة . وان لا بد من ايجاد حل عاجل ، تستقر به أمور اللاجئين العرب وتدبر موارد الرزق لهم ، لكي يحيوا كغيرهم ، من أبناء البلاد العربية حياة كريمة ولكي يعملوا معاً على بناء وطنهم ويساهموا بنشاطهم وجهودهم في النهوض به في الارتفاع بمستواه .

ومن واجب الدول - التي تسمى نفسها حرة - حل هذه المشكلة الخطيرة من غير تأخير ، وأن تلزم صنيعتها اسرائيل بتنفيذ المقررات الدولية الصادرة في ذلك منذ بضع سنين فان هي لم تشأ ذلك أو لم تستطعه ، مال اللاجئون بقلوبهم الى أقوام آخرين عليهم يجدون عندهم من عدل وخير لم يجدوها قط عند حماة اسرائيل . واتجهوا بأفكارهم لاعتناق مثل جديد عسى أن يكون فيها ما يساعدهم على الخلاص من البلاء الذي أصابهم والشر الذي وقعوا فيه ..

وخلاصة القول أن ما يجب عمله قبل كل شيء هو ما ذهبت اليه الأمم المتحدة من وجوب عودة هؤلاء المنكوبين الى وطنهم . الذي تهفوا اليه قلوبهم في كل حين ، وتعويضهم عنمتلكاتهم التي اغتصبها اليهود ، وضمان استقرارهم ثانية في بلادهم الذي لا يبغيون عنها بديلا أبدا .

هذه هي صورة قاتمة مظلمة ، لحياة العرب والمسلمين داخل حدود فلسطين المحتلة ، التي اغتصبها العصابات الاسرائيلية . وهذا الكتاب لا يتناول قضية فلسطين بطريق مباشر ، اذ أنه يدرس موقف الاسلام والمسلمين من أهل الذمة . ولكننا رأينا أن تتيح للقارئ فرصة المقارنة ، فيقارن بين معاملة العرب والمسلمين لليهود طوال العصور الاسلامية ، وبين معاملة اليهود الصهيونيين في فلسطين المحتلة للعرب المسلمين الذين أوقعهم سوء حظهم في برائتهم . وما أبعد الفرق الشاسع بين التسامح العربي الاسلامي ، والتعصب اليهودي الصهيوني .

الفصل الخامس عشر مضارة العرب أرقمت من مضارة اليهود

لاترات حضارى لليهود :

قبل ظهور اليهودية ، كانت الفوضى الدينية تغمر العالم القديم ثم ظهرت اليهودية فى أطراف آسيا الغربية ، تحاول نشر نفوذها وتعاليمها فى الشرقين الأدنى والأوسط أى فى جزيرة العرب والهند والصين ، ثم فى أوروبا . ولكنها فشلت من أول الطريق ، لأن الاسرائيليين الذين قاموا يشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش عيشة البداوة والانحطاط ، ليست لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبات الحضارة كالفاهية والثورة والتنظيم وال عمران بينما كانت الحضارات فى كل من ايران والهند والصين فضلا عن الحضارة الرومانية الأوروبية نالت نصيبا كبيرا من التقدم والتكامل . ومن البديهي أن طلب الانصياع من قوم متحضرين الى قبول دعوة قوم يعيشون فى عالم من الجهل والبداوة مهما كانت دعوتهم هذه منصرفة الى أغراض دينية سماوية لاتلقى طبعها غير الاعراض والسخرية .

ومن البديهي أيضا ، أن تقابل تلك الرسالة التى يحملها ذلك الاسرائيلى الذى على جانب ضئيل من الحضارة بمثل هذا الاعراض من الهندى والصينى والايرانى والرومانى ، الذين كانوا يرون أنفسهم أعظم رقا وحضارة وثقافة ونظاما ، ولا ينقصهم فى نفس الوقت دين يلجأون الى عبادته فلديهم آلهة كثيرة يعبدون من يشاءون منها ، ولا يرون فى أنفسهم حاجة الى تبديلها طالما أنها تغمرهم بكل ماترنو اليه ميولهم الزمنية والديونية من شهوات وآمال و متمات لحياتهم الحافلة بالحضارة .

ليس لليهود فلسفة نظرية أو عملية أو آثار فنية ، وكل ما فى الأمر أنهم خصصوا أنفسهم للعبادة القائمة على المتاجرة والانتفاع . فلا يوجد بينهم ، ولا سيما قديما من كرس نفسه للفن والعلم والفلسفة واذا كنا لا نجد عند اليهود ثقافات أدبية وفنية أو ثقافات فلسفية وأخلاقية يفيدون به العالم . فهم فى أدوار حياتهم الثلاثة ، دور البداوة ودور المملكة ودور التثنت فى العالم - لم يصدروا من عندهم ثرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات العلم والفلسفة وكل محصولهم من الكتب المقروءة فانما هو تلك المواعظ والترانيم التى وقفوها على أنفسهم ، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكم والدراسة العملية قبل اتصالهم بأمم الحضارة واضطرارهم الى المعيشة بين تلك الأمم فى المشرق والمغرب (١) .

عقلية اليهود :

كانت أهم مظاهر الحياة اليهودية فى خلال القرون الطويلة الماضية هو الميل الى العزلة والاعتقاد بأن اليهودى يحمل من أسرار الكون أكثر من أى انسان آخر وكان اليهود اذا نزلوا مكانا رفضوا الاختلاط بأهله واختاروا لهم فيه زاوية بعيدة عن الأنظار وأقاموا فيها مساكنهم ، وقد عرفت أحياء اليهود فى أوروبا باسم « جيتو » ، وفى هذه الأحياء اليهودية نشأ المجتمع اليهودى بأسراره وخفياه ، وفى هذه الأحياء وصفت الكتب اليهودية السرية التى لا يعرف العالم عنها الا القليل . وفى هذه الأحياء نشأت الهيئات السرية الرهيبه التى أرادت السيطرة على العالم . وفى هذه الأحياء نمت علوم السحر والشعوذة وبقية العلوم السرية .

ان هذه العزلة التى عاش فيها اليهودى كانت سببا فى محافظته على مستوى الذكاء والدهاء ومحاولة اختراق الحجب والأسرار . وقد نشأت فى هذه الأحياء اليهودية جماعات سرية صغيرة من المفكرين والعلماء مالوا

(١) المقاد : الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٦٨ .

على الكتابة والتأليف .. وكانت القواعد الرئيسية التي تسيطر على عقول هذه الجماعات هي :

١ - المحافظة على النفسية اليهودية ومنعها من الضياع في تيار الغربية .

٢ - نشر الحقد في قلوب اليهود ضد العالم ونشر فكرة احتقار اليهودي لغيره من الشعوب .

٣ - العمل على أن يسترد الشعب اليهودي مكانه .

٤ - العمل من أجل سيادة الشعب اليهودي للعالم كله ..

وقد قامت هذه الجماعات اليهودية بوضع عشرات من الكتب السرية الخطيرة التي تطرق هذه المواضيع وتدفع اليهودي الى التمسك بها ، وأصبح اليهودي لايهتم بالثورات قدر اهتمامه بهذه الكتب ويعتبر أن هذه الكتب تفسخ الثورات وتحل محلها .

وكل من يطلع على ماورد في هذه الكتب السرية يشعر بالتأثير الذي أحدثته في عقلية اليهودي على مر السنين ، ويشعر بأن العقلية اليهودية تختلف في تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعا وأن هذا الاتجاه قد أحدث تأثيره في تاريخ العالم كله ، وحاول أن يفرض طابعه على البشرية جمعاء ، لكي يضعها تحت طاعة حكام اليهود . فان السحر بجميع أسرارهِ وأنواعه جاء من العقلية اليهودية والايسان بالأشباح ونقل الأرواح جاء من هذه العقلية . والعرافة والتدجيل والتكهن بالمستقبل وقراءة الكف والنجوم والطوالع كل ذلك جاء من العقلية اليهودية .

هذا النشاط الفكري اليهودي لم تكن غايته خدمة البشرية والانسانية بل كانت هذه السيطرة على البشرية بأساليب شيطانية غريبة لأغراض أهمها نشر البلبلة في عقول الناس وتفريق صفوفهم ودفنهم نحو الانحطاط والفجور .

وقد أدى هذا النشاط والاجتهاد الى تأليف جمعيات سرية منظمة
تنظيماً دينياً غريباً ، وتنتشر في جميع أنحاء العالم - وما زالت هذه
الجمعيات قائمة حتى الآن ، وقد أصبح بعضها صهيونياً ، وما زال البعض
الآخر يهودياً متديناً .

ثقافة اليهود محدودة :

ان الصهيونيين مكروهون في كل مكان وفي كل زمان وهم يعرفون
ذلك ولكنهم لا يعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بل
يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعواتهم كلها قائمة على شكوى
الظلم والاضطهاد وعلى الحاجة الملحة الى الانصاف على أنهم يسلسون
أن العلة منهم ، ولكنها علة تشرفهم .. والعلة في زعمهم أنهم قوم
محسودون ، لأنهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات
لم تجتسع لغيرهم من الأمم . منهم ناجحون في ميادين الأعمال ناجحون في
ميادين العلوم والفنون ، وخلق بهذه الكفايات النادرة والنجاح الملحوظ أن
يجلب الحسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه وهذا هو الزعم الباطل
بحذافيره (١) .

لم يحدث أن اليهود أنشأوا لهم ثقافة مستقلة قط في زمن من الأزمان
وانما يستفيد اليهودى الألماني من ثقافة المانيا ، ويستفيد الصهيونى
الانجليزى من ثقافة انجلترا ويستفيد اليهودى الأمريكى من ثقافة أمريكا .
ويقال مثل ذلك فى اليهود فى ايطاليا وسويسرا وهولندا وبلجيكا ، فهم
يستفيدون من ثقافات هذه الأمم .

أن المقياس الصحيح لنبوغ اليهود فى العلوم والفنون هو تاريخهم
القديم وقد كانت فى الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات
فى الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت
هذه المكتبة الجامعة التى احترقت فى بعض الحروب عنواناً لثقافة الأمم
القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت منها محفوظات من

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ص ٥٠ .

تواليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكلم كتاب كانت من تواليف اليهود
القدماء ؟ كم أثرا من آثارهم فى علوم الفلك أو الجغرافية أو الهندسة أو
الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟

والاجابة على هذا السؤال : لا شىء ، لا كتاب ، ولا أثر ، ولا
ثمرة وهذا هو المقياس الصحيح المعقول .

وكان أذكىاء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل (ابيان)
حيث وجه السؤال بصددها الى المؤرخ اليهودى (يوسفوس) فبماذا
أجابه يوسفوس ؟ انه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار ، وانما اعترف
بها واعتذر عنها كما قل بحروف : « اتنا نسكن بلدا بعيدا من البحر
ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات فهل من العجب
أن أمة كهذه الأمة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة - تظل
مجهولة بين غيرها ؟ » .

وقد أورد (فولتير) هذه العبارة ، فعلق عليها قائلا ، على فرض أن كتب
العهد القديم تعد من كتب اليهود : (لا بد أن نلاحظ ان اثنين وعشرين
كتابا صغيرا ليست بالعدد الكبير اذا نظرنا الى أرقام الكتب التى كانت
محفوظة فى مكتبة الاسكندرية .. ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا
قليلا وأنهم كانوا على جهل مطبق فى علوم الهيئة والرياضة والجغرافية
والطبيعات وأنهم لم يفقهوا شيئا من تواريخ الأمم الأخرى ، ولم يبدأوا
بالتعليم فى الاسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف وما
كانت لغتهم الا خليطا بربريا من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة فى
تصريفات الأفعال فقيرة فى أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغريباء
على كتبهم ولا على عناوينها .

تلك حقيقة الدعوى التى يروجها اليهود عن النبوغ المحسود ، وعن
الكراهية التى يغيرها فى النفوس امتيازهم فى الكفايات والملكات ، فهم فى
الثقافة عالية على كل أمة يستمدون منها التعليم ، وهم فى ميادين العمل دون
غيرهم من الأمم .

ها، نجح اليهود في ميادين الاقتصاد ؟

هناك خطة يهودية صهيونية للسيطرة على العالم ، لا بالقوة العسكرية ولا بالسيطرة الحكومية ولا بالتسلط الاقتصادي القائم على التقدم العلمي ولكن بشيء واحد هو امتلاك زمام التجارة العالمية والتحكم فيها وأقدر الناس على هذا هم اليهود .

ان ظهور اليهود في ميادين المال والتجارة وقوة نفوذهم السياسي في الوقت الحاضر انما يرجع الى صفات متأصلة فيهم، وهي الوحدة والقدرة على انتهاز الفرص المواتية واليهودي يعرف ماذا يفعل ، ومتى وكيف ولماذا هو فاعله ؟ .

ومما يذكر أن اليهود أينما أقاموا تركزت الأعمال حيث أقاموا ، وكلما رحلوا انتقلت مراكزهم معهم حيثما حلوا والدليل على ذلك أن اسبانيا كانت مركز الذهب في العالم طالما كان اليهود هناك ، ولما طردوا من اسبانيا خسرت البلاد بفقدتهم ما كان لها من مكانة في هذا الشأن . وشيئاً بهذا انتقال مركز التجارة الى أوروبا من الجنوب الى الشمال ، لما غادر اليهود ايطاليا واسبانيا والبرتغال ، ونزلوا هولندا والمانيا وانجلترا فالاقتصاد هو أساس كيان العالم ، ومن يملك زمام الاقتصاد ملك زمام الموقف في هذا العالم .

ومن جهة أخرى ، أثبت اليهود أنهم لا يصلحون للزراعة . فقد ظهرت بشرق أوروبا في مستهل القرن ١٩ حركة زراعية يهودية ، ولكن لم يبد نشاطها على أشده الا في الثلث الأخير من هذا القرن . وكان الغرض منها هو توجيه اليهودية الى ناحية الزراعة ، فأنشئت لهم مستعمرات في الأرجنتين وفي أوكرانيا وغيرها ، ولكن هذه المحاولات لم تعد بنتائج مبشرة لأن اليهود أنفسهم لا يعملون لحياة الزراعة (١) .

(١) جوزيف هيلر : الفكرة الصهيونية ص ١٧ .

الثقافة العربية ارقى من الثقافة العبرية :

الثقافة العربية هي ثقافة الأمة التي نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة في كل دور من أدوارها على سنة التطور في جميع اللغات .

عاش العرب طوال حياتهم على مر العصور على اتصال مباشر باخوانهم في البشرية في شتى أنحاء العالم ، وساهموا بنصيب كبير في تطور الحضارة والمدنية في شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائما أن يتطورا من حسن الى أحسن ، فكان للعرب دائما رسالة عالمية انسانية (١) .

انه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة اليهود الدينية المحصورة في هذا الحيز المحدود انها رسالة عالمية . أو انها يسكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية .

لكن الأمر يتجاوز فضول القول الى فقد الحياء حسب ما يقال : ان العبرية هي التي نهضت بأمانة الرسالة العالمية في تاريخ بني الانسان ، وان تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق في وادي النيل وفي وادي النهرين وفي شبه الجزيرة العربية ، فيقال ان تلك الحضارات جميعا لم تحفل بسبب الأذى ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تغضب للواجب والحق كما غضب لهمس رب العبريين : رب الصواعق والجنود .

الحضارة والثقافة في اسرائيل :

في اسرائيل ألوان كثيرة متباينة من الحضارة والثقافة نتيجة لتباين الأصناف والأديان فهناك : اليونان الأرثوذكس والأقباط الارثوذكس ، والأقباط الكاثوليك ، واليونان الكاثوليك والبروتسنت الأوروبيون ، والنسطريون ، والدروز الى جانب اليهود والمسلمين .

(١) العرب ورسالتهم الانسانية للمؤلف ص ٥٢ .

وتنتشر بينهم جميعا عدة لغات : الألمانية ، والانجليزية والفرنسية ،
والروسية ، والبولندية ، واللغات السلافية ، وكذلك العربية ، والآرامية ،
واللغة الأولى بطبيعة الحال هي اللغة العبرية .

ينقسم السكان الى فريقين يتقاربان عددا : أحدهما يهود نزحوا من
أوروبا وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الميادين الثقافية والاجتماعية
والاقتصادية والفريق الثانى من أصل شرقى يهودا كانوا أو غير يهود ،
وهؤلاء متأخرون متقاربون فى حظوظهم الضئيلة بجانب غيرهم الذى من
أصل عربى .

ان العادة جرت فى اسرائيل على المناداة باعادة تهذيب وثقيف يهود
الشرق ، ويجب أن يعاد تشكيل تفكيرهم وشخصيتهم بحيث يصبحون
نسخة من يهود أوروبا ، وأنه حين لا ينفع الاغراء والترغيب فى الوصول
الى تلك النتيجة يجب أن يأخذ التشريع والارغام مجراه .

وهذا الرأى يشبه رأى الأوروبيين فى القرن ١٩ فى شعوب البلاد التى
كانوا يخضعونها لسلطانهم .

فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٩٥٧ عقدت فى اسرائيل حلقة علمية
خطيرة ، اشترك فيها عدد كبير من مفكرى اليهود وزعمائهم وعلمائهم فى
أنحاء العالم . وكان القصد من عقد هذه الحلقة هو القيام بدراسات
اجتماعية لمعرفة أسباب التدهور الثقافى والاجتماعى الذى أصاب يهود
اسرائيل بعد انشاء الدولة ، وأسباب تدهور العلاقات الاجتماعية بين يهود
اسرائيل وبقية يهود العالم وأسباب فشل الأيدولوجيا الصهيونية فى جلب
يهود العالم نحو اسرائيل لكى يعتبروها دولتهم ويهاجروا اليها .

وقد تعلم فى هذه الحلقة ٧٢ مفكرا يهوديا ، وعلى رأسهم (دافيد بن
جوريون) رئيس حكومة اسرائيل والدكتور (ناحوم جولدمان) رئيس
الجمعية الصهيونية العالمية ، و (عيسا نويل نيومن) رئيس الجمعية
الصهيونية لنشر المعرفة اليهودية .

وقد اتفق الجميع على أن المجتمع اليهودي مريض وأن هذا المرض منتشر بين جميع اليهود في إسرائيل والخارج . وأن هذا المجتمع لم يستطع أن يغسل نفسه من أدران الماضي وفشل في تكوين بيئة اجتماعية تقدمية مستقلة وأن هذا المجتمع اليهودي يشبه برج بابل ليس له طابع خاص .

وقد اختلف أعضاء الحلقة في تعيين أسباب هذا الفشل : فقال بعضهم أن السبب في ذلك هو الدين اليهودي وتعاليم التوراة والتلمود . فإن هذه التعاليم الدينية تحتوى على قواعد اجتماعية ذات طابع وحشى غير انساني فهي تدعو اليهودى الى قتل غير اليهود وسلب ممتلكاتهم وتدعوه الى اغتزال بقية الناس واحتقارهم واستعبادهم واقتراف الفظائع ضدهم وتدعوه الى قتل الأسرى والاعتداء على النساء والأطفال وتدعوه الى الهدم والتخريب والى استعمال القسوة والشراسة .

ولكن بعض هؤلاء العلماء يقولون أن السبب الرئيسى في نقمة اليهودى على العالم هو العزلة النفسية التى عاش فيها عبر القرون ، وهى التى خلقت لديه عقلية قاسية تميل الى الشر والهدم ، وسفك الدماء .

فهرست

٣ مقدمة

الباب الأول

٩ اليهود والمسيحيون فى الجزيرة العربية قبل الاسلام

اضطهاد الرومان لليهود وهجرتهم الى الجزيرة العربية -
اليهود فى الجزيرة العربية قبل الاسلام - اليهودية فى اليمن -
المسيحية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام - صراع اليهود
والنصارى حول السيادة فى اليمن - محاولات الاحباش لنشر
المسيحية فى الجزيرة العربية - اليهود فى الحجاز - لماذا لم
يقبل العرب على اعتناق اليهودية ؟

الباب الثانى

٢٥ الرسول والمسيحيون

حاجة العالم الى الاسلام - الرسول والزاهب بحيرى -
المسيحيون والتبشير بنبوّة محمد - الرسول وورقة بن نوفل
- هجرة المسلمين الى الحبشة المسيحية - موقف الرسول
من المسيحيين - الرسول والدولة الرومانية المسيحية - بين
الرسول والمقوقس .

الباب الثالث

٤٧ الرسول واليهود

اليهود والتبشير بنبوّة محمد - عدااء اليهود للرسول والاسلام
- موقف الرسول من اليهود - الصراع السلبي بين المسلمين
واليهود - الصراع الايجابى بين اليهود والمسلمين (بنو قينقاع ،
بنو النضير ، بنو قريظة ، يهود خيبر) .

الباب الرابع

٦٥ أحكام أهل الذمة في الإسلام

تعريف أهل الذمة - حقوق وواجبات أهل الذمة - الجزية :
أسباب فرضها ومقدارها - طريقة جمع الجزية وموعدها -
أحوال الاعفاء من الجزية - المجوس وأداء الجزية - عهد عمر
وأهل الذمة - ملابس أهل الذمة - قواعد فقهية في التزواج
والقضاء والارتداد والمواريث والتجارة .

الباب الخامس

٩٥ أهل الذمة في ظل التسامح الإسلامي

التسامح في الإسلام - حقوق الإنسان في الإسلام - موقف
أهل الذمة من الفتوحات الإسلامية - مظاهر التسامح الإسلامي
مع أهل الذمة - اعتراف المستشرقين بتسامح المسلمين .

الباب السادس

١١٠ أهل الذمة في مجتمع صدر الإسلام

اقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام - تعلم أهل الذمة اللغة
العربية - اقبال أهل الذمة على الحضارة الإسلامية - أهل
الذمة يساهمون في الحياة الاجتماعية .

الباب السابع

١٢٥ أهل الذمة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

عمر بن الخطاب وأهل الذمة - أهل الذمة في عهد عثمان
وعلى - أهل الذمة في العصر الأموي - أهل الذمة والوظائف
الحكومية - أهل الذمة والخراج - الجزية في عهد الخلفاء
الراشدين والأمويين - الحرية الدينية وبناء الكنائس -
النصارى العرب من بني تغلب .

الباب الثامن

١٤٢ أهل الذمة في العصرين العباسي والعثماني

تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة - أهل الذمة

والمناصب الكبرى - اقبال أهل الذمة على الإسلام في عهد
المأمون العباسي - المجوس في العصر العباسي واقبالهم على
الإسلام - صداقة الدولة العباسية لدولة الفرنجة
المسيحيون في ظل الحكم العثماني الإسلامي - المسيحيون في
المجتمع العثماني .

الباب التاسع

١٥٧ أهل الذمة في مصر الإسلامية

موقف الأقباط من الفتح الإسلامي - تسامح العرب مع أقباط
مصر - أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية - انتشار الإسلام
في مصر - اقبال أهل الذمة على تعلم اللغة العربية - أهل
الذمة المصريين في ظل الحكومة الإسلامية - أهل الذمة
في العصرين الطولوني والاختيادي - أهل الذمة في العصر
الفاطمي والأيوبي والمماليكي .

الباب العاشر

١٧٧ أهل الذمة في بلاد الأندلس وجزيرة صقلية

التسامح الإسلامي في الأندلس - أهل الذمة في المجتمع
الإسلامي بالأندلس - بعثات علمية أوروبية إلى الأندلس -
صقلية في العصر الإسلامي .

الباب الحادي عشر

١٨٩ الحروب الصليبية ليست حروبا دينية

الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية - الحروب الصليبية
ليست حروبا دينية - عوامل اخفاق الحروب الصليبية -
صور لتعصب وفظائع الصليبيين - صور من تسامح المسلمين
مع الصليبيين - اقبال بعض الصليبيين على اعتناق الإسلام -
اقتباس الصليبيين الحضارة الإسلامية .

الباب الثاني عشر

٢٠٧ اليهود في الدول الإسلامية

بين التسامح الإسلامي والتعصب اليهودي - أحوال اليهود في

الدولتين الفارسية والرومانية - اليهود في الدولة العربية
الاسلامية - اليهود في المجتمع الاسلامي - اليهود في العصر
العباسي - اليهود في بلاد الأندلس الاسلامية - اليهود في
مصر الاسلامية - مقارنة بين يهود مصر ويهود أوروبا .

الباب الثالث عشر

اليهود في فلسطين في العصر الاسلامي ٢٢٣

فلسطين العربية الاسلامية - فلسطين جزء من الوطن العربي
- اليهود وفلسطين قبل القرن الثامن عشر الميلادي - اليهود
في فلسطين في العصر العثماني - اثر الانقلاب الصناعي
والثورة الفرنسية في السياسة اليهودية - نابليون واليهود ،

الباب الرابع عشر

العرب والمسلمون في اسرائيل ٢٢٧

بداية مشكلة اللاجئين - احوال العرب السيئة في اسرائيل -
الضمير العالي ومشكلة اللاجئين - الاحوال المؤلمة التي يعيش
فيها اللاجئون - ضرورة حل مشكلة اللاجئين .

الباب الخامس عشر

حضارة العرب ارقى من حضارة اليهود ٢٤٩

لا تراث حضاري لليهود - عقلية اليهود - ثقافة اليهود محدودة
- هل نجح اليهود في ميدان الاقتصاد ؟ - الثقافة العربية
ارقى من الثقافة العبرية - الحضارة والثقافة في اسرائيل .



الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الله وأهل الذمة

تأليف

الدكتور على حسني الخربوطي



بجسنة

التعريف بالإسلام